

مشاهير قادة
الحرب العالمية الثانية

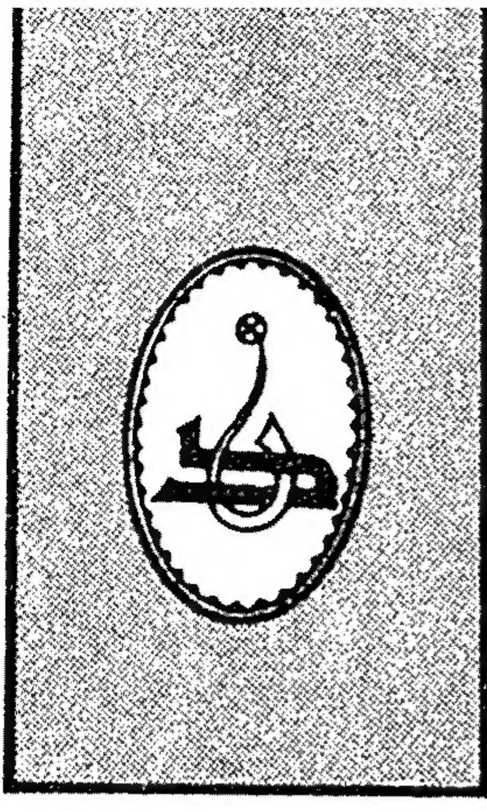


جوكوف



بسّام العسلي

دار النفائس



جوكوف غريغور كونستانتينوڤيتش

Joukov - Gregor -

KONSTANTINOVICH

بسم الله الرحمن الرحيم

٥

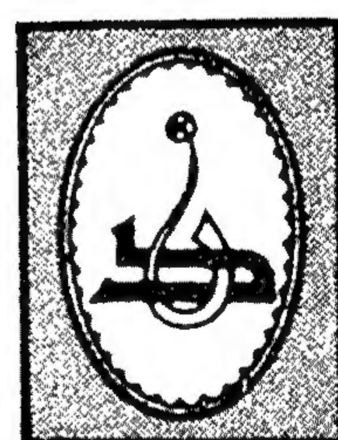
مشاهير قادة الحرب العالمية الثانية



جوكوف

بسّام العسليّ

دار النفائس



دار النفائس

للطباعة والنشر والتوزيع

شارع فردان ـ بناية الصباح

وصفي الدين ـ ص.ب ١٤/٥١٥٢

برقياً: دانفايسكو ـ ت ٨١٠١٩٤

أو ٨٦١٣٦٧ بيروت ـ لبنان

الطبعة الأولى: ١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

المقدمة

تواضع في غير ضعف، وجرأة عن غير تهور، وثبات عن علم، ورغبـة دائمة في التعليم والتعلّم، تلك هي بعض الفضـائـل التي تميزت بها شخصيـة ماريشـال الإتحاد السـوفييتي جوكـوف، والتي جعلت منه بطلاً قومياً لبـلاده، وإنسانـاً قريبـاً من قلوب مواطنيـه ونفوسهم.

لقد بدأ جوكوف حياته والفقر يضغط عليه بكل ثقله، حتى أنه لم يتمكن من التعلم إلا بقدر ما قدمته إليه أبرشية قريته، ووصلت به إلى مرحلة التعليم الإبتدائي، وانتقل بعد ذلك للعمل في موسكو في الصناعة الرائجة ـ صنـاعة الفـراء ـ . وقد كـان العمل مـرهقاً بالنسبة لصبي لم يصلب عوده ويقسو ساعده، ولا ريب أنه ما من أحد عرف الصبي في تلك الفترة وهو على ما كان عليه من البؤس، يتوقع له أن يصبح يوماً في قمـة السلطة لبلاده، وأن يمـارس دوراً يتجاوز حدود بلاده في صناعة الحرب وفي لعبة مصير العالم.

ولقد أصبح الحـديث عن الفقر المبكـر، والبؤس في النشأة من ميـزات العصر ـ مودة ـ ينتحلهـا الأدعيـاء، عـلى سبيـل المبـاهـاة

والتفاخر. غير أن جوكوف وهو يتحدث عن تلك الفترة من حياته، لا يتحدث عنها لاستثارة العطف أو المباهاة، وإنما يقررها ببساطة وعلى أساس أنها واقع شحذه للعمل والدراسة والتعلم من صفحات الكتب ومن مدرسة الحياة. فهو وفي مثل ظروفه القاسية قد وجد في الكتاب ملاذاً يعيش فيه عالماً متفتحاً، زاهياً، تشرق فيه أيام المستقبل على نحو ما كانت تنطلق إليه أحلام الصبيّ وتحلم به، وتعيشه في عالمها الخاص.

وإذن فلم تكن العملية، عملية التعلم من الكتب، بمثابة فرار من قسوة الواقع، أو هروباً من عالم البؤس إلى عالم الخيال، لتترك في النفس نوعاً من ازدواجية الشخصية، وإنما كانت بحثاً عن سبل تطوير الحياة للانتقال من عالم لا تتوافر فيه الظروف التي يريدها الصبيّ إلى عالم تتوافر فيه ظروف أفضل لتحويل الأحلام إلى واقع.

ولقد رافقت هذه الظاهرة - ظاهرة الإفادة من العلم والتعلّم لتطوير الواقع - جوكوف طوال حياته، فهو يقف في موسكو، وجحافل الألمان الغزاة تطوقه من كل جهة، وتضغط عليه وعلى قواته القليلة من كل ناحية، فيبحث عن المخرج، ويحاول إيجاد حل للمأزق، واستثمر الإمكانات المتاحة له حتى حدودها القصوى، وبدأ بتحقيق انتصارات صغرى، لم تلبث أن تجمعت لتنتظم في عقد كامل، وهي تتطور يوماً بعد يوم إلى أن أمكن له تحقيق النصر الحاسم.

وقد كان موقفاً مثيراً يحمل في شكله ومضمونه كل معاني اليأس

التي تحبط إرادة العمل لدى أي إنسان، إلا إنساناً مثل جوكوف، لم يعرف في حياته إلا الأمل المتجدد، والثقة المتعاظمة، ورصيداً هائلاً من القدرة على العمل في كافة الظروف.

لقد عمل جوكوف طوال سنوات الحرب مع ستالين، ولم يكن العمل مع رجل مثل ستالين أمراً سهلاً، مع ما عُرف عنه من البأس والشدّة، ومع ما اشتهر به من الدّقة في العمل. وقد استطاع جوكوف الاستحواذ على ثقة ستالين، من خلال عمله، ولم يكن هذا هو ما يبحث عنه جوكوف رغم حاجته لثقة زعيم بلاده، بل إن ما كان يبحث عنه هو إتاحة الظروف للنجاح في عمله والدفاع عن بلاده، ولهذا فعندما طرح ستالين حلولاً تتناقض مع ما كان يعتقده جوكوف، تصدّى جوكوف لستالين ودافع عن وجهات نظره، ووضع مصيره ومستقبله في كفّة القدر، وفضّل خسارة ثقة ستالين عن خسارة موقف يتعلق به النصر لجبهته، وبالتالي النصر لبلاده. وكانت خسارة مؤقتة، لم تلبث أن تبددت ظروفها كما تتبدد سحابة الصيف تحت تأثير حرارة الشمس اللاهبة.

وخرج جوكوف من مأزقه وقد حقّق نصراً مزدوجاً. فقد نجح في إلحاق الهزيمة وتنفيذ مخططه، ونجح في استعادة الثقة التي فقدها بعضاً من الوقت في علاقته مع ستالين.

وانتهت الحرب، وزال ستالين من الوجود، وانقلبت القيادة السوفييتية ضده، وأخذت في الهجوم عليه وعلى أعماله، بل إنها هاجمت حتى قبره في موجة من الحقد والكراهية. غير أن شخصاً

واحداً بقي فوق الحقد وفوق الكراهية. هذا الشخص هو جوكوف الذي بقي موضوعيّاً في أحكامه، عادلاً في تقويمه، فأنصف ستالين، ودافع عنه وعن أعماله قدر استطاعته، وواجه غضب القيادة السوفييتية بقوة، وفضّل الاعتزال عن مسرح الأحداث من أن يتنازل عن وجهات نظره ومواقفه.

لقد عاش جوكوف أقسى فترات الحرب وأشدّها هولاً، ورأى بعينيه وسمع بأذنيه ما فعلته جحافل الغزاة الألمان ببلاده وشعبه، وغضب كثيراً، غير أنه لم يفقد مشاعره الإنسانية، فهو يقف أمام القادة الألمان وقد جاءوا يحملون له راية الاستسلام المهين في موسكو، فيستقبلهم بكبرياء واعتزاز ولكن من غير حقد ولا كراهية. إنه يعرف أنهم أدوات في لعبة الحرب التي كان يلعبها هتلر وقيادته النازية، فعاملهم بما يحفظ لهم كرامتهم. وكان موقفه مماثلاً يوم اقتحم برلين، ووقف أمام الرايخستاغ، ورأى الأطفال الألمان وقد سحقتهم مخاوف الحرب وأهوالها. وفي هذا الموقف، تذكر أطفال بلاده وما تعرّضوا له، فلم تحمله الذكرى على الانتقام الحاقد، بل دفعته لإصدار أوامره بمشاركة هؤلاء بؤسهم وتقديم العون لهم قدر المستطاع.

ذلك هو الرجل جوكوف، والإنسان جوكوف، أما الماريشال جوكوف، فهو صورة مكبّرة عن الصبيّ جوكوف، يخوض المعركة بعد دراسة دقيقة لظروفها، وموازين القوى فيها، وطبيعة مسرح العمليات، ثم يضع مخططه بإحكام فلا يترك للصدفة مجالاً، ويتعلّم من طرائق العدو وأساليبه طرائق العمل ضده، ثم ينطلق

نحو هدفه وقد ضمن أفضل الظروف لتحقيق النجـاح، ثم يتخذ من نجاحه هذا أساساً لتحقيق النجاح التالي.

وهكذا سار جوكوف بثقة وهو يطوي الأرض بجيوشـه ما بـين موسكو وبرلين. ولقد تميزت قيادة جوكوف عن بقية القيادات التي عـرفتها جبهـات الحرب ـ في الحـرب العالميـة الثانيـة ـ بـاشتـراك مجموعات الجيـوش في تنظيم الجبهـات. وكانت قيـادة مجموعـات الجيوش الضخمة عمليـة معقّدة، نـظراً لما تتـطلبه من احكـام في تنظيم التعاون بين مختلف القوى والأسلحة، فكان جوكوف بحق هو رائد قيادة الجبهات الضخمة التي تضم مجموعات الجيوش.

وتبقى سيرة جوكوف الشخصية، وسيرته القيادية أكثر اتساعـاً وشمـولاً من مجرد التقـديم لها. ذلـك أنها قصة الإنسـان المبدع، والقائد الكبير، الذي يبحث عن بلوغ هدفه بعقل متفتح، ونفس مشرقة، وقيم مثلى، والذي تندمج حياته الخاصة بحياته العامة في توازن مذهل وتكامل رائع.

بسام العسلي

الوجيز في حياة جوكوف

١٨٩٦ ولادة جوكوف في قرية ستركلوفكا.

١٩٠٧ إنتقاله للعمل في ورشة للفراء في موسكو بعد إنهاء دراسته الابتدائية.

١٩١٥ إلتحاق جوكوف في الجيش القيصري وانضمامه لسلاح الفرسان.

١٩١٦ إنتقاله إلى الجبهة (منطقة بيستريسك) وإصابته بجراح خطيرة.

١٩١٨ إلتحاقه بفوج الخيالة الرابع من الفرقة الأولى - الموسكوفية -.

١٩١٩ حارب أعداء الثورة البلشفية تحت قيادة فرونزه، وانتسب للحزب.

١٩٢٢ تعيينه قائداً لكوكبة فرسان (سريّة) في الفوج ٣٨.

١٩٢٣ تعيينه قائداً لفوج بوزولوك ٣٩.

١٩٢٥ تخرّج جوكوف من مدرسة الخيّالة العليا بتفوق.

١٩٢٦ تعيينه قائداً للفوج ٣٩ بعد إعادة تنظيمه.

١٩٣٠ تعيين جوكوف للواء الخيالة الثاني من فرقة (سمارا) السابعة.

١٩٣٠ تعيينه معاوناً لمفتش خيالة جيش العمال والفلاحين الأحمر.

١٩٣٣ تعيين جوكوف قائداً لفرقة الخيالة الرابعة، وتحويلها لفرقة ميكانيكية.

١٩٣٧ تعيين جوكوف قائداً لفيلق الخيالة الثالث والفيلق القوزاقي السادس.

١٩٣٩ نجاح جوكوف في طرد اليابانيين من منغوليا، وإيقاف عدوانهم

١٩٤٠ ترفيع جوكوف لرتبة فريق، وتعيينه قائداً لمنطقة كييف العسكرية.

١٩٤١ تعيينه قائداً لجبهة لينينغراد بعد ما حققه من نجاحات على الجبهة الجنوبية الغربية.

١٩٤٢ قيادته للجبهات حتى الوصول إلى برلين.

١٩٤٥ تعيينه ممثلاً للإتحاد السوفييتي في مؤتمر بوتسدام. واشتراكه في التمهيد لاجتماع رؤساء دول الحلفاء.

١٩٤٦ تعيين جوكوف قائداً عاماً للقوات البرية السوفييتية.

١٩٥٣ تعيينه في منصب المساعد الأول لوزير الدفاع.

١٩٥٥ تعيينه وزيراً للدفاع.

١٩٥٧ أصبح جوكوف عضواً كامل العضوية في البريزيديوم مجلس الدفاع - إضافة لعمله وزيراً للدفاع. ولكن لم تمض إلا أشهر قليلة حتى تم عزله من منصبيه.

١٩٦٩ صدر له كتابه الشهير (مذكرات وآراء) والذي عكف على كتابته خلال السنوات الأخيرة من حياته.

١٩٧٤ توفي جوكوف وهو يحتفظ برصيده الشعبي وبتقدير الجماهير له.

من أقوال جوكوف

١ ـ أثبتت تجارب الحروب أن نهاية المعركة منوطة في النتيجة، بمدى استعداد القائد وهيئة أركانه للهجوم، وما يتسم به من دقة في التنظيم. ويحتل الاستطلاع المكانة الأولى في هذا العمل المعقد جميعه. فبعد استيضاح موقف العدو وقوّاته ووسائطه والخصائص المميزة للأرض التي يعمل عليها، يمكنه تحديد أسلوب أعماله تحديداً دقيقاً. وأعرف أنا من خلال خبرتي العملية، مدى أهمية تنفيذ الاستطلاع بدقة، وهو أمر لا بدّ منه إذا كان الهجوم على دفاع العدو سينطلق من الفجر، لأن العدو يستطيع خلال الليل وتحت جنح الظلام، أن يبدّل وضعية قوّاته، وأن يغير ترتيبه القتالي بسهولة، ويُصبح مثل هذا الاستطلاع أكثر ضرورة عندما يكون العمل ضد عدو ماكر، ويمتلك خبرة قتالية عالية.

* * *

٢ ـ يجب إعداد القادة وهيئات الأركان لإتقان فن قيادة المعارك التصادمية المباغتة. ويتطلب ذلك بالضرورة، الإمتناع عن استخدام الطريقة المعتادة ـ الروتينية ـ في القيادة بواسطة الأوامر

الخطيّة ـ الكتابية ـ والهاتف، وكل ما يتعلّق بمد الأسلاك وخطوط الاتصال. ويجب الإنتقال إلى قيادة المعركة باللاسلكي، أو عن طريق إعطاء التعليمات القتالية المختصرة بصورة مباشرة، وهو ما كان يقال له في أيام الخيالة (بالقيادة من على صهوة الجواد).

* * *

٣ ـ قد تقع وحدة ما، أو حتى تشكيل قتالي في التطويق، ويُعتبر الخروج من التطويق هو من أصعب أنواع الأعمال القتالية وأكثرها تعقيداً. ولكي تخرق جبهة دفاع العدو بسرعة، على القيادة أن تبدي مهارة فائقة، وقوة إرادة جبارة، وتنظيماً دقيقاً في قيادة القوّات، وتعتبر عملية إعادة التجميع بصورة مخفية عن أنظار العدو، على قطاع الخرق، وحشد نيران المدفعية والقصف الجوي بكثافة عالية، وتسديد ضربة حاسمة إلى التنظيم القتالي للعدو، وحرمانه من الرصد المدفعي باستخدام الستائر الدخانية، كل ذلك هو من أكبر الضمانات اللازمة لنجاح الخرق وخروج القطعات من الطوق.

* * *

٤ ـ لا بد من بذل جهدٍ كبيرٍ حتى تترسخ في نفوس المقاتلين وضبّاط الصف والقادة الفكرة الأساسية. وهي أن التشكيلات والوحدات لن تكون قوة جبّارة قادرة على إرهاب العدو، إلا عندما يصبح جميع المقاتلين على درجة عالية من الكفاءة القتالية.

* * *

٥ ـ تبدأ الحروب في العصر الحاضر بدون إعلان حالة الحرب مسبقاً. ويحاول الطرف المهاجم أن يحتفظ بكل عناصر المباغتة. وتدخل قوى الطرفين المتحاربين الرئيسة إلى ساحة العمليات عند بداية الحرب، حاملة معها كل الخصائص الاستراتيجية والعملياتية الناجمة عن ذلك، ويأخذ الصراع المسلح طابع العنف الشديد الذي لا يقبل المساومة وهذا ما يفرض بالضرورة تعبئة جهود الشعب جميعها، وتوحيد الصراع في الجبهة والمؤخرة. إن تحطيم المعتدي لا يتحقق إلا بالأعمال الهجومية، إلا أنه لا يجب الانتقاص من أهمية الحالات الأخرى، مثل الموقعة التصادمية، والأعمال التراجعية الاضطرارية، ومعارك التطويق.

* * *

٦ ـ تتوافر في التاريخ القديم والحديث أمثلة كثيرة عن فقدان القوات لإرادة القتال، والمبادرة إلى الهرب أمام عدو متفوق بالسلاح. وليس هناك من يستطيع أن يقدم حدوداً دقيقة بين دور الأسلحة والأعتدة القتالية وبين دور الروح المعنوية للقوات. إنما ثمة حقيقة لا سبيل لإنكارها، وهي أنه في حالة تكافؤ الشروط، تفوز في تحقيق أهداف الحرب أو المعارك الكبرى للقوات، تلك التي تتصف بإرادة لا تُقهر في تحقيق النصر، وتتميز بالتصميم العنيد لبلوغ الأهداف التي تقاتل من أجلها. فتقاتل بصلابة في العزيمة، وباستعداد دائم للتضحية تحت العلم الذي تسير إلى الحرب في ظل راياته الخفّاقة.

* * *

٧ ـ لا تُعتبر أهوال الحرب شيئاً خطيراً إذا ما تمّ الإعداد لها إعداداً جيّداً قبل نشوبها، وإذا ما تم تعريف كلّ بواجبه في الدفاع عن البلاد. أما الارتباك وحالة الذعر فلا يحلّان إلا في المكان الذي لا تتوافر فيه الاستعدادات الضرورية للحرب، سواء في وسط البلاد، أو على مستوى القوات المسلحة، أو بين الجماهير، وإلا حيث لا يتوافر التنظيم والقيادة الحازمة لمجابهة المحن القاسية.



٨ ـ لقد تعاظمت تأثيرات الثورة التقنية في الشؤون العسكرية، وتُبذل جهود كبيرة ومنظمة لإعادة بناء الجيش والأسطول والقوات الجوية. وأصبحت الأسلحة الصاروخية النووية الآن هي القوة الضاربة الرئيسة. وقد ارتفعت الأصوات بالضجيج وقد أذهلتها هذه التطورات، فأخذت تقول بأنه قد حلّ الآن عصر (حرب الأزرار) وأنه لم يبق للإنسان في مثل هذه الحرب إلا دور ثانوي. إن في هذا الرأي كل الضلال، إذ على الرغم مما تحتله الوسائط الصاروخية والنووية من أهمية بالغة، وبصرف النظر عن مقياس الحرب وطبيعتها وأُسلوبها، إلا أن الإنسان هو الذي قام ويقوم وسوف يضطلع فيها بالدور الرئيسي، وإن أحدث الأسلحة، وحتى وسائط التدمير الشامل، لن تنتقص من دور الشعوب في الحروب. وقد يكون اشتراك هذه الشعوب وجماهيرها اشتراكاً مباشراً في الصراع المسلّح، وفي بعض الحالات الأخرى يكون إشتراكها من خلال إنتاجها الحربي ومن خلال تأمين المتطلبات المختلفة للصراع المسلّح ـ مادّياً ومعنوياً وتقنياً ـ.

«لقد تم بناء قواتنا المسلّحة على أساس المركزية الصارمة، ووحدة القيادة، والإنضباط الحديدي»

جوكوف ـ مذكرات وآراء ص ٧٨

الفصل الأوّل

١ ـ جوكوف يتحدث عن شباب طفولته.

٢ ـ جوكوف في الجيش.

٣ ـ الحرب الأهلية.

٤ ـ إعادة التنظيم.

٥ ـ العمل القيادي.

٦ ـ تجربة الحرب في خالخين ـ غول.

٧ ـ على طريق الحرب.

٨ ـ الأيام العصيبة.

١ ـ جوكوف يتحدث عن شباب طفولته

يبكي أيام الطفولة من عـرف مباهجهـا وأفراحهـا، ويحن لأيام الطفولـة من عاش مسـرّاتها وسعـادتها ولكن مـا شأن من لم يعش طفولته بذكريات أيام الطفولة؟ بل ما شأن الطفولة بمن لم يعيشوها ويعرفوها؟

قـد تكون إستعـادة الذكـريـات لمثـل هؤلاء هي مجرد عمليـة إسترجاع لـلألم، والبحث عن المتعة من خـلال الألم؟ وقد يكـون الحافز لذلك هـو العيش الدائم مـع مصادر الـطاقة الكـامنة وراء الخلق والإبداع؟ وقد تكون أيضاً مجرد تعذيب للذات وعيش على الحقد والكراهية؟ أو قد تكون مجرد مقارنة للبرهان على توافر عوامل النجاح في وسط عوامل الإحباط والفشل؟

مهما كان عليـه الأمر، فـلا ريب أن تراكم السنـين، وحوادث الأيام، لا سيما عندما تكون هذه الحوادث ذات شدة عالية، وذات إثارة حادّة، كفيلة بإضعاف ذكريات الأيام البعيدة، وإسقاطها من حساب الذاكـرة. ولكن، وبالـرغم من ذلك فـإن أيام الشقـاء لا تنسى ـ أو الأسى لا يُنسى كما يقول المثل العربي العامّي ـ. وها هو

القائد الكبير الماريشال جوكوف وقد تجاوز الستين من عمره، وعاش أخطر ما يعيشه إنسان، وعرف أشد أنواع الإثارة التي يمكن لإنسان معرفتها. يتحدث عن شباب طفولته، إذ لم يُقدّر له أن يعيش حياة الطفولة كما يجب له أن يعيشها، فيقول:

«كان بيتنا في قرية سترلكوفكا بمحافظة كالوغا، حيث ولدت في ١٩ تشرين الثاني من عام ١٨٩٦ م، وكان هذا البيت يقع في منتصف القرية. إنه بيت عتيق، إنغرست إحدى زواياه في الأرض بشدة، وكست الطحالب والأعشاب، بمرور الزمن، جدرانه وسقفه، ولم يكن هذا البيت أكثر من غرفة واحدة لها نافذتان، المهم في الأمر، هو أن والدي ووالدتي كانا يجهلان من شيّد بيتنا هذا، أو متى تم تشييده.

غير أننا عرفنا عن طريق المعمِّرين في القرية، أنه كانت تعيش فيه أرملة لا أولاد لها، فتبنّت صبيّاً من الميتم عمره سنتان حتى تبدد وحدتها، وكان هذا الصبي هو والدي. أما من هما والداه الحقيقيان فما من أحد عرف عنهما شيئاً. وحتى والدي لم يحاول فيما بعد أن يعرف أصله. وكل ما هو معروف أن طفلاً عمره ثلاثة أشهر تركته إمرأة مجهولة على عتبة مأوى الأيتام مع رسالة قالت فيها: «فليحمل ابني اسم كونستانتين). أما ما أكره المرأة المسكينة على أن ترمي طفلها على عتبة الميتم، فهو أمر ظل مجهولاً. ومن المستبعد أن تكون قد لجأت إلى ذلك لنضوب عاطفة الأمومة عندها - كما يعتقد - وإنما تركته هرباً من حالة يائسة لا مخرج منها».

وهكذا، وببساطة متناهية، يذكر ـ جوكوف ـ أن والده كان (إبن حرام أو ابن سفاح) وهو أمر يحاول التستر عليه حتى من لا يعرفون الحرام والحلال في المجتمعات الغربية أو الشرقيّة على السواء. غير أن ـ جوكوف ـ ماريشال الاتحاد السوفييتي، وبطل بلاده أربع مرات، لا يجد ضيراً أو حرجاً في ذكر الحقائق، ما يخصه وما يخص الآخرين منها، كما عاشها وكما عرفها، مهما بلغت درجة تلك الحقائق من الشدّة والقوّة. وتلك هي أولى فضائل الماريشال جوكوف، والتي كانت خير عون له في مواجهته لمنزلقات الحياة وانحرافاتها.

مهما كان عليه الأمر فقد توفيت تلك المسكينة التي تبنّت والد جوكوف، ولمّا يبلغ هذا الوالد الثامنة من عمره، فمضى للعمل في صناعة ـ الأحذية ـ في قرية أوغودسكي زافور الكبيرة. وانحصر تعليمه في ممارسة الأعمال المنزلية، إذ كان مُلزماً برعاية أولاد سيّده ورعاية ماشيته أيضاً. ومضت عليه في عمله هذا ثلاث سنوات، قادته قدماه بعدها إلى موسكو، حيث انضم فيها إلى ورشة لصنع الأحذية. ولكنه لم يكد يستقّر في عمله حتى اجتاحت التظاهرات العمالية مدينة موسكو (سنة ١٩٠٥) ووجد والد جوكوف نفسه مطروداً من عمله ـ لاشتراكه في التظاهرات ـ فعاد إلى قريته، ولم يغادرها بعد ذلك أبداً، وقضى ما بقي من حياته في تصليح الأحذية ـ إسكافي ـ إلى جانب العمل في المزارع.

لا حاجة للقول بأنه لم يكن باستطاعة والد جوكوف (كونستانتين) أن يطمح للزواج بأكثر من امرأة فقيرة إلى حد

الإملاق. وهذا ما فعله عندما تزوج من (أوستينا ـ أرتيميغنا) التي كانت تقطن في قرية مجاورة، وكانت في الثلاثين من عمرها، في حين كان كونستانتين في الخمسين من عمره. وكان هذا الزواج هو الثاني لكل منهما، فكلاهما قد ترمّل بعد زواجه الأول. وكانت والدة جوكوف قويّة البنية، فكانت ترفع كيس الحنطة ـ ووزنه مائة كيلوغرام أو خمسة بودات بالوزن الروسي ـ بسهولة، وتنقله إلى مسافة كبيرة. وقيل إنها ورثت هذه القوة الجسدية عن أبيها الذي كان يضع رأسه بين قائمتي الفرس ويرفعها، أو يمسكها من ذيلها ويجلسها على كفلها بجذبة واحدة.

ولما كان دخل والد جوكوف من تصليح الأحذية زهيداً، فقد اضطرت والدته للعمل، فكانت تمارس أعمال الفلاحة في الحقول طوال أيام فصل الربيع وفصل الصيف وأوائل فصل الخريف، ثم تعمل في نقل البضائع من مركز القضاء إلى تجار قريتها، وكان دخلها من هذا العمل زهيداً أيضاً، غير أنه ما من مجال أفضل للعمل. فقد كانت معظم نسوة القرية يمارسن العمل ذاته، تاركين للجدود والجدات أمر الرعاية بأبنائهن. أما الرجال فكانوا يعملون في موسكو وبطرسبورغ (لينينغراد) وغيرها من المدن في حرف موسمية، وكان كسبهم ضئيلاً، ونادراً ما كان أحدهم يعود إلى القرية وفي جعبته فيض من دخله المتواضع.

وأمام هذا الفقر المدقع، كان في القرية فلاّحون أثرياء ـ ملاّكون ـ يعيشون في بحبوحة، يقطنون بيوتاً كبيرة مضاءة ومريحة، وفي حظائرهم ماشية كثيرة وطيور، وفي عنابرهم مخزون كبير من

الحنطة والدقيق، ويلبس أطفالهم جيداً ويأكلون حتى الشبع ويتعلّمون في أحسن المدارس، وكانت مفارقة مثيرة ومحزنة للأطفال ـ في عمر جوكوف ـ وهم يعيشون في مثل ذلك الفقر المدقع، ويقارنون بين حياتهم وحياة الآخرين.

وزاد الأمر سوءاً بالنسبة لجوكوف ما تعرّضت له أسرته وهو في السنة الخامسة من عمره، عندما ولدت أمه ولداً ـ أطلقوا عليه اسم ألكسي ـ ما لبث أن مات بسبب الجوع والإهمال، إذ اضطرت أمه لتركه في رعاية الآخرين للبحث عن لقمة العيش، مما ترك جرحاً عميقاً في نفس أفراد العائلة جميعاً. وزاد من وطأة المأساة اضطرار العائلة لهجر المنزل الذي كاد يتداعى على رؤوس ساكنيه، مما أرغمهم على هجره، والانتقال إلى عنبر مهجور، عملوا على ترميمه بأيديهم، على أمل توفير الوقاية من برد الشتاء، وعلى أمل العثور على نزل أفضل عندما ينقضي فصل الشتاء.

وكان على جوكوف الإسهام بالجهد، ولّما يتجاوز السابعة من عمره (سنة ١٩٠٢) فكان ينطلق لصيد الأسماك ـ بالسلال ـ من نهر أوغوبلانكا. وكان حظه جيداً في كثير من الأحيان، فكان يتبادل مع الجيران بعض ما يصطاده من السمك مقابل ما يقدّمه الجيران من الحساء والعصيدة.

وجاء الصيف وذهب جوكوف للعمل في الحقل مع أبويه، وكان فرحه لا يوصف إذ باستطاعته أن يقدم للعائلة شيئاً مفيداً ونافعاً. وانطلق للعمل بحماسة، وسرعان ما تشققت يداه، وامتلأت

بالفقاعات المائية التي سببت له ألماً، فضمّد له والده يديه، واستمر في عمله.

وعندما جاء موسم الحصاد، اشترى لـه والده منجلاً جديداً ورافقه إلى الحقل لحصاد الحنطة السوداء (الجودار). ولفرط حماسة جوكوف، ولجهله بطريقة العمل الصحيحة، أهوى بالمنجل على خنصر يده اليسرى وكاد يقطعه، وأسرعت الجارة وقد انتابها الفزع، فضمدت له جرحه بورقة من عشب مزمار الراعي، والتأم الجرح بعد مدة، غير أنه ترك ندبة عميقة بقيت لتذكر جوكوف دائماً بفشله في العمل الزراعي.

جاء خريف سنة ١٩٠٣، وحان موعد ذهاب جوكوف إلى مدرسة أبرشية القرية، فصحبته أخته التي تكبره سنتين (واسمها ماشا) والتي كانت تتعلم في المدرسة ذاتها. ووجد جوكوف في المدرسة نوعاً جديداً ومثيراً من أنماط الحياة، فأقبل على التعلّم، وأظهر تفوقاً، حتى إذا ما كانت سنة ١٩٠٦، أكمل تعلمه، وحصل على بطاقة امتياز. وكان فرح الأسرة كبيراً، فكافأته أمه بإهدائه قميصاً جديداً، وكافأه والده بحذاء جديد خاطه بيديه، وقال له وهو يقدّمه له:

«ها أنك أصبحت إنساناً متعلماً، وبات لزاماً إرسالك إلى موسكو لتتعلّم مهنة ما».

لقد أنهى جوكوف السنة العاشرة من عمره، وبات لزاماً عليه أن يعمل، ولكن ما هو العمل الذي سيحترفه، ويمتهنه؟ لقد انتهت

أيام الطفولة والاعتماد على دخل الأبوين ، ولقد أحب جوكوف الحرف والكلمة، ورغب أن يحترف مهنة الطباعة ، ولكن ما من أحد يستطيع مساعدته لاحتراف هذا العمل.

وكان خال جوكوف ـ ميخائيل ارتيموفيتش بيليخين ـ صاحب ورشة لصنع الفراء. فلما جاءَ في الصيف إلى القرية، سار والد جوكوف ومعه ابنه إلى منزل الخال ميخائيل الذي لم يتنازل لدعوتهما حتى للجلوس ـ إذ أن السادة الأغنياء لا يحبون الأقارب الفقراء ـ ولكنه قَبِل أن يستخدمه في ورشته بعد أن شاهد بطاقة نجاحه في المدرسة بامتياز.

وحان موعد الرحيل عن مرتع الطفولة، وخرج جوكوف ووالدته يودعان الحقول والغابات حتى إذا ما وصلا إلى المحطة، التفت جوكوف إلى والدته، وقال لها:

«هل تذكرين يا أمي تلك الفسحة عند السنديانات الثلاث، حيث كدت أقطع خنصري؟».

وأجابته أمه: «أذكر يا بني، الأمهات يتذكرن دائماً كل ما يحدث لأبنائهن، ولكن السيء أن ينسى الأبناء أمهاتهم».

فقال جوكوف معقباً: «بالنسبة لي يا أماه، هذا لن يحدث أبداً».

وسار القطار، وكان وداعاً مؤثّراً. لقد انسلخ جوكوف عن وجوده، وهو لا زال طري العود، غض الإهاب. وغاص جوكوف في مقعده، وهو ممزق بين عواطفه الشتى، وكان تهيبه لما هو آتٍ أكبر

من تأثره بما فات. فلم يشعر بمرور الوقت، وعندما توقف القطار في محطة موسكو، كان الليل قد انقضى، وبدأت تباشير فجر اليوم الجديد تلوح في الأفق.

كان الوقت مبكراً جداً، وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت المحطة تعج بالضجيج والحركة، ومضى جوكوف ـ مع مرافقه ـ وسط الزحام. كانت المناظر تمر من أمامه وكأن غشاوة رقيقة تمنعه من رؤية ما حوله بوضوح.

ولقد كانت المناظر تمر مسرعة لكثرة تبدلها وتلونها، كل شيء غريب، الأبنية العالية، المخازن الكبيرة، العربات المطهمة التي تجرها الخيول الجميلة، الشوارع الفسيحة. وأخيراً وصل الى الورشة، فأرشده مرافقه إلى مكان سكنه، ومكان عمله. وكان هذا كل ما يجب عليه معرفته في الوقت الحاضر.

ولّما كان جوكوف هو أصغر صبيّ في الورشة فقد كان عليه تنظيف الغرف، ومسح الدار وتنظيف أحذية أرباب العمل وأولادهم، وجلب ما تحتاجه الدار والعاملين فيها من خضار وأطعمة ودخان وفودكا. وتعرّف جوكوف بسرعة على المتاجر المحيطة وعلى (المعلمين في الورشة) والعاملين فيها، وانصرف لتعلّم حرّفته. وكان العمل يستمر من الساعة السابعة صباحاً حتى السابعة مساء، وحتى الساعة الحادية عشرة ليلاً إذا ما تطلبت ظروف العمل ذلك.

كانت البداية شاقة على جوكوف ـ الصبي في الثانية عشرة من

عمره ـ إذ لم يكن قد اعتاد على النوم في وقت متأخر، ولم يكن قد اعتاد على هذا الجو الصاخب، وزاد الأمر سوءاً بما كان يتلقاه من الضرب بسبب عدم تكيّفه بسرعة مع مستجدات حياته. غير أنه، ومع مرور الوقت، استطاع تجاوز الصعوبات، ولكن عقبة واحدة لم يكن باستطاعته مغالبتها هي شدة حنينه لأمه وأبيه وأخته، ومناخ القرية الهادىء والعيش وسط أحضان الطبيعة.

إنصرم العام الأول، وأتقن جوكوف القسم الابتدائي من صناعة الفراء. ثم أخذ في التكيف بدرجة أكبر مع نظام العمل، ووجد في الابن الأكبر لرب العمل ـ ألكسندر ـ والذي كان في مثل سنّه، صديقاً حميماً.

وانصرف جوكوف للقراءة بنهم. وكانت القصص المترجمة (من أمثال مغامرات شارلوك هولمز) هي الكتب الأسهل متناولاً، فقرأ جوكوف منها الكثير، غير أنه لم يلبث أن عزف عن قراءتها، إذ لم يجد فيها ما هو مفيد للتعلم. والتحق بمدرسة مسائية، لتعلم اللغة الروسية، والحساب، والجغرافيا، وقراءة الكتب العلمية. وبعد سنة التحق بدورات مسائية أيضاً ذات مستوى ثقافي يعادل مستوى المدارس المدنية. وكان على جوكوف أن يحضّر دروسه عند طرف المدخل، بالقرب من المرحاض، حيث كان يضيء المدخل مصباح دائم ضئيل بقوّة عشرين شمعة. ولما جاء موعد الامتحان النهائي، اجتازه جوكوف بنجاح.

ومرّت الأيام، ومضى عام ١٩١٠، ومضى معه العام الثالث

لجوكوف وهو يعمل في الورشة، وانتقل إلى فئة كبار الصبية، وأصبح تحت إمرته ثلاثة من التلاميذ.

وها هو الآن وقد باتَ يعرف مدينة موسكو معرفة جيدة. فقد تولى خلال سنته الأخيرة مهمة توزيع الطلبات إلى مختلف أنحاء المدينة. وقد أتاح له عمله هذا توفير بعض النقود (من إجرة الترام) لشراء الكتب، حيث كان يمضي لنقل الطلبات سيراً على الأقدام، حاملاً على ظهره كيس الفراء، ويُسرع في خطاه حتى ينجز عمله في الوقت المناسب، ثم يعود حاملاً ما اشتراه من كتب، وينتظر الليل حتى يُشبع نهمه من المطالعة والقراءة. أما المجلات، وأما الصحف، فكان يحصل عليها من أصدقائه في العمل.

لم يكن جوكوف قد رأى حتى الآن ـ نهر الفولغا ـ، ولكنه وبينما كان ذات صباح يسلّم طرداً عن طريق مرفأ المدينة، وصل إلى النهر. إنه لم يشاهد من قبل نهراً بمثل هذا الاتساع، فوقف يتأمل المياه المتدفقة وقد سحره جمال النهر وعظمته، وقال في نفسه:

«لقد عرفت الآن لماذا ينظمون الأغاني في الفولغا، ويبجلونه فيسمونه الأمّ».

لقد شبّ جوكوف، وبلغ الرابعة عشرة من عمره، ولا زال هؤلاء الكبار من العاملين في الورشة يوجعونه ضرباً، فطفح به الكيل، ونفذ صبره. وذات مرة، وبينما كان مدير الورشة ينهال عليه ضرباً بغريزة ساديّة، ودون أن يعرف سبباً لذلك، تفجر غضبه مرة واحدة، فالتقط عصا من السنديان، وانهال بها ضرباً

على رأس هذا الذي يضربه حتى طرحه أرضاً وقد فقد وعيه. وتملك الخوف جوكوف، ففرَّ هارباً وقد ظن أنّه قتله. ولكن مضى كل شيء على خير.

جاءت سنة ١٩١١، وحصل جوكوف على إجازة لمدة عشرة أيام يقضيها في قريته. وكم كانت فرحته كبيرة، إنه سيعود إلى قريته التي تبعد ١٠٥ كم عن موسكو. وفيها، سيلتقي بأهله وأصحاب طفولته. وركب القطار، والحنين الجارف يستثيره، فلم يتمكن من الجلوس على مقاعد القطار، ووقف يرقب الغابات والغياض وهي تفرّ مسرعة، يا لجمال الريف الرائع. أين هذه المناظر من منظر الشوارع القذرة في العاصمة؟ وأين هذه الروائح الأخاذة من رائحة الورشة والمصنع؟...

ما كاد القطار يتوقف في محطة القرية، حتى وقع نظره على والدته، وقال في نفسه: «كم تغيّرت أمي خلال هذه المدة، لقد دبت فيها الشيخوخة خلال هذه السنوات الأربع؟». وشعر باختناق في حلقه، وبذل جهداً حتى لا ينفجر باكياً، وأسرع إلى أمه التي عانقته وهي تجهش باكية، وضمّته إلى صدرها بيديها الخشنتين وقد غطتهما الدمامل، وتمتمت: «إبني، حبيبي، اعتقدت أني سأموت قبل أن أراك».

وأجابها جوكوف: «ما هذا الكلام يا أماه، ألا ترين كيف كبرت، كل شيء سيتحسن».

وقالت الأم: «يا رب». ومضى جوكوف وأمّه إلى المنزل،

فاستقبلها أبوه وأخته. كان أبوه قد شاخ وازداد انحناء، لقد بلغ السبعين من عمره. أما أخته، فقد أصبحت فتاة يافعة. وجلس الجميع والفرحة تغمرهم، وقطع الأب حبل الصمت، فقال لابنه: «حسناً، إذ عشت ورأيتك هكذا شاباً قوي البنية».

وفتح جوكوف سلته التي حملها معه من المدينة، وأعطى كلاًّ هديته التي اختارها له وأعطى أمه بالإضافة إلى ذلك ثلاثة روبلات نقداً، ورطلين من السكر، ونصف رطل من الشاي، ورطلاً من السكاكر، فسرت لذلك، وقالت: «شكراً لك يا بني، لقد مضى وقت طويل لم نشرب فيه شاياً حقيقياً مع السكر».

ونفح جوكوف روبلاً لأبيه من أجل إنفاقه في الحانة، فبادرته أمه قائلة: «يكفيه عشرون كوبيكا». فقاطعها أبوه قائلاً: «إنتظرت ابني أربع سنوات، فلا تفسدي لقاءنا بالتكلم عن العوز».

مضى جوكوف في اليوم الثاني من إجازته إلى الحقول ـ برفقة أمّه وأخته ـ وهناك التقى مع صحابة الحقل من رفاق الطفولة. لقد أصبحوا شباباً، واشتدت سواعدهم، وعمل معهم جوكوف قدر استطاعته وأنهكه التعب، حتى إذا ما جاء المساء، اجتمع الشباب عند العنبر، وبدأ الجميع ينشدون الأغاني المرحة، فيما كانت البنات يرددن بدورهن أغنيات حلوة. ورقص الجميع، حتى إذا ما اقترب الفجر انصرف الجميع للراحة والنوم. ولكن ما إن تمضي فترة قصيرة، حتى يُسرع الأهل لإيقاظ الأبناء، لقد حان وقت العمل.

يا لهذه الحياة، يظهر أن الشباب قادر على عمل كل شيء.

وهكذا مرت الإجازة، بسرعة الحلم، وحان موعد رجوع جوكوف إلى عمله في موسكو.

إنتهى عام ١٩١١، ومع نهايته أصبح جوكوف معلماً فتياً (مساعد معلّم). وانتقل إلى شقة خاصة به، وارتفع دخله إلى عشرة روبلات كاملة، وهذا ما لم يكن يحلم به الكثيرون آنذاك. ولقد أمكن له وهو يعيش في شقة مستقلة أن يصرف وقتاً أكبر للمطالعة والتعلم.

وعرف أن جريدة (نشرة موسكو) وجريدة (الكلمة الروسية) هما جريدتان تعبران عن مصالح سادة روسيا القيصرية، في حين كانت جريدة البلاشفة (النجم) وجريدة (البرافدا) تعبران عن مشكلات الطبقة العاملة، وفقراء الفلاحين. وبما أنه ينتمي إلى الفئة الثانية، فقد أصبح قارئاً منتظماً للبرافدا، وتطوع أن يشرح لرفاقه في العمل ما كان يطالعه على صفحات الجرائد.

لم يكن جوكوف يومها يحلم بأن يصبح زعيماً سياسياً، ولا إنساناً مرموقاً. إن كل ما يطمح إليه هو أن يتمكن من توفير بعض المال ليفتح مصنعاً للفراء. ألم يبدأ خاله مثل بدايته، وها هو الآن يمتلك الأموال الضخمة والمشاريع الكثيرة؟.

ولكن ها هي نذر الحرب تقترب، وبدأ المتطوعون سنة ١٩١٥ بالانضمام إلى الجيش، وأخذته نوبة الحماسة، فرغب في التطوع في الجيش القيصري، لا سيما وأن ابن سيده ـ ألكسندر ـ قد سبقه إلى التطوع. واستشار صديقاً له كان يأنس برأيه فقال له الصديق:

إنني أفهم رغبة ألكسندر في ذلك، فأبوه غني، ولديه ما يحارب من أجله. أما أنت أيها الأحمق فلأي شيء تحارب؟ ألأنهم أبعدوا أباك عن موسكو؟ أم لأن أمك تكاد تقضي جوعاً؟ إنك إن عدت مشوهاً فلن تنفع أحداً». وأبعد جوكوف عن تفكيره التطوع في الجيش.

٢ ـ جوكوف في الجيش

أعلنت الحكومة القيصرية في شهر أيار ـ مايو ـ ١٩١٥ عن استدعاء الشبان من مواليد سنة ١٨٩٥ للخدمة في الجيش، فسيق إلى الحرب الشبان ممن لم يبلغوا العشرين عاماً. واقترب دور جوكوف، ولكنه لم يشعر بالرغبة للالتحاق بالجيش؛ فقد كان يرى في كل خطوة يخطوها في موسكو أولئك المشوهين التعساء العائدين من الجبهة.

وفي تموز ـ يوليو ـ ١٩١٥، صدر الإعلان عن استدعاء الفتيان من مثل مواليد جوكوف (١٨٩٦) فاستأذن جوكوف صاحب العمل للسفر إلى القرية من أجل وداع أهله ومساعدتهم في جمع محصول الحنطة. ثم ما لبث أن التحق بمدينة مالوياروسلافيتس في محافظة كالوغا (يوم ٧ آب ـ أغسطس ـ)، فتم اختياره لسلاح الخيالة (الفرسان). وكانت فرحته لا توصف، إذ كان هذا السلاح يحمل مضموناً نبيلاً. ولقد زاد من فرحته أنه كان الوحيد الذي تم اختياره لسلاح الخيالة، بينما ترك رفاقه جميعاً لسلاح المشاة.

تتشابه ظروف الحياة العسكرية في جميع الجيوش وفي كافة البلاد، رغم كل ما يُقال عن التباين والاختلاف. فقد تم تجميع

المجندين في مراكز التجمع، وتبع ذلك فرزهم، وقام كل واحد بوداع من يعرفه من أبناء قريته أو من أقاربه، ووجد كل مجند نفسه بين مجموعات بمثل عمره، ولكنه لا يعرف عن أي واحد منهم شيئاً.

هكذا وجد جوكوف نفسه عندما شحنوه مع مجموعته في قطار للبضائع. ولما لم تكن العربة تتسع لأربعين شخصاً، فقد اضطر معظم المجندين للوقوف طوال الطريق أو الجلوس على الأرضية القذرة، وراح بعضهم ينشدون الأغاني فيصرفون بالغناء نفسهم عن التفكير، بينما انهمك بعضهم بإيجاد وسائل للتسلية، في حين جلس آخرون يغالبون الدمع، ويبثون أشجانهم لجيرانهم الذين لا يعرفونهم، وهناك فئة بقيت معتصمة بالصمت تستعيد ذكريات الماضي، وتفكر باحتمالات المستقبل.

وكان جوكوف من هذه الفئة الأخيرة. لقد ودع رفاق الصبا، وها هو يشعر بوحشة لم يعرفها من قبل، وهو لا يعرف إن كان قادراً على الاضطلاع بأعباء الجندية، أو المشاركة في القتال إذا ما اقتضى الأمر. إن الحياة قد صقلته، وإذن فقد يستطيع أداء واجبه العسكري بشرف. هذا ما فكر به جوكوف وهم ينزلونه من عربة القطار في كالوغا، مع أفراد مجموعته.

ولكن الرحلة لم تصل إلى نهايتها بعد، وإذا بصوت يمزق الظلمة: (تراصف)، وبدأ السير باتجاه معاكس للمدينة. وسأل أحد المجندين من الفضوليين: «إلى أين يسيرون بنا؟».

ورد عليه العريف، وكان إنساناً طيباً على ما يظهر: «إسمعوا يا أولاد، لا تلقوا مثل هذه الأسئلة على الرؤساء ؛ إذ ليس على الجندي إلا أن ينفذ الأوامر بدون تردد. أما إلى أين يذهبون به ؟ فهذا أمر يعرفه الرؤساء فقط». وجاء من رأس الرتل ما يؤكد كلامه في صوت قائد المفرزة الحازم: «لا تتكلم في الصف». وتلقى جوكوف لكزة من هذا الذي يقف إلى جانبه، وهمس بصوت خافت: «**ها قد بدأت الخدمة العسكرية**».

سارت المجموعة لمدة ثلاث ساعات، وأوشك الفجر على البزوغ، ونال التعب من المجندين كل مبلغ، فلما توقفوا لاستراحة قصيرة، استغرق بعضهم في نوم عميق. ولكن سرعان ما أفزعهم، وأيقظهم من غفوتهم صوت العريف، وهو يدعوهم للانتظام في الصف ومتابعة المسير.

ومضت ساعة أخرى، وصلوا بعدها إلى نهاية الرحلة، ودخلوا المعسكر الذي اقتيدوا إليه، وأُدخلوا إلى مهجع ليس فيه من الأثاث سوى المقاعد الخشبية، وأعطيت لهم فرصة للراحة، حتى الساعة السابعة صباحاً.

اصطف المجندون الجدد ، وأعطيت لهم التعليمات اللازمة ، والبرنامج الداخلي، وواجباتهم ، وأُعلموا أنهم سيتبعون دورة على نظام المشاة، قبل إرسالهم إلى سلاح الفرسان، وسلموا بنادق تدريب المشاة. ووقف العريف قائد الجماعة، فحذرهم بشدة من أنه لا يسمح بمغادرة الصف إلا (لقضاء حاجة) ومن خالف ذلك

فعقوبته كتيبة التأديب. وكان العريف المبجل يتكلم بحدة، ملوحاً بقبضته مع كل كلمة قالها، وعيناه تقدحان شرراً، حتى كأن هؤلاء المجندين هم ألد أعدائه.

ثم جاء دور قائد الفصيلة، فعرف بنفسه، وقال للمجندين:

«**أنا قائد فصيلتكم، وآمل أن تكونوا قد فهمتم جيداً ما قاله لكم قائد الجماعة. إنكم ستخدمون القيصر والوطن بصدق. وأنا لا أطيق التصرف الأرعن**».

مضى المجندون إلى التدريب (النظام المنضم). ومرت ساعات النهار الأول ثقيلة، متباطئة، وعندما وصل اليوم حتى نهايته، كان المجندون قد بذلوا آخر ما لديهم من الجهد والطاقة، ولكنهم ما كادوا إلى مهجعهم ينصرفون، حتى جاءهم صوت العريف يأمرهم لاجتماع (التفتيش المسائي)، من اجل حفظ النشيد الحكومي (**اللهم احفظ القيصر**). واستمر التمرين حتى منتصف الليل. وهكذا انتهى اليوم الأول من حياة جوكوف في الجيش.

مرت أيام التدريب التالية متشابهة، ولم يكن من السهل احتمال هذا الضغط الجسدي والنفسي، ولكن هؤلاء المجندين لم يعيشوا بدورهم من قبل حياة سهلة مترفة، فأمكن لهم بذلك التكيف مع الحياة الجديدة، ولم يمض أكثر من أسبوعين حتى كانوا قد اعتادوا نظام الجيش، وألفوه. وجاء قائد السرية، فاستعرض المجندين، وهو في حالة سكر إذ كان من المدمنين المواظبين على احتساء الخمرة في كل الأوقات، ثم ختم تفتيشه للمجندين بوصيته:

«عليكم الجد في العمل، لأن الصلاة لله والخدمة للقيصر لا تضيعان عبثاً».

أنهى المجندون تدريبهم في أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩١٥، وأُرسلوا بالقطار إلى أوكرانيا حيث فوج الخيالة الخامس الاحتياطي. ولدى وصولهم إلى محطة (سافينتا)، نزلوا من القطار، فاستقبلهم على الرصيف عدد من ضباط الصف، فارعي الطول، ذوو هندام حسن، بلباس الخيالة، بعضهم يرتدي زي الفرسان الخفيفة (الهوسار ـ الهوصار) وبعضهم يرتدي زي الفرسان الروس (الأولن)، وآخرون بزي وحدات الفرسان الثقيلة (الدراغون).

وتم فرز المجندين، فكان من نصيب جوكوف ورفاقه من أبناء موسكو والمناطق القريبة منها الانضمام إلى كوكبة الخيالة الثقيلة (دراغون). وشعر جوكوف بالأسى، لأن نصيبه لم يحمله للانضمام إلى الفرسان الخفيفة (الهوصار). وليس ذلك لأن زي الفارس الهوصار كان زياً أجمل وأبهى، وإنما لأنه سمع بأن ضباط الصف في هذا الصنف من الفرسان كان من أفضل ضباط الصف وأكثرهم إنسانية. وكان مصير الجندي في الجيش القيصري رهن يد ضباط الصف. ولكن ما العمل، يظهر أنه من الضروري التكيف في كل يوم من حياة الجيش مع وضع جديد.

وفي اليوم التالي، استلم جوكوف ـ ورفاقه ـ ملابس الفرسان وتجهيزات الخيالة، وعين لكل واحد حصانه. وكان من نصيب جوكوف مهرة شموخاً بلون رمادي قاتم. وبدأت مرحلة جديدة من

التدريب، أكثر إثارة من سابقتها، إلا أنها أشد صعوبة. فقد كان على جوكوف ورفاقه إتقان الدروس العامة إلى جانب دراسة الفروسية وتعلم استخدام الأسلحة البيضاء، والعناية بالخيل ثلاث مرات في اليوم. وتعين أن يكون الاستيقاظ في الخامسة بدلاً من السادسة صباحاً، مع التأخر في النوم ساعة أخرى في المساء. وكان أصعب ما صادفه جوكوف تدريب الفروسية، أي القفز على ظهر الحصان ثم القفز عنه إلى الأرض، وإتقان استخدام السيف والرمح والسلاح الأبيض. وقد أصابه التسلخ حتى سال الدم من أقدامه، فقيل له: «اصبر، وستصبح زعيم عصابة قوزاقي صحيح». وصبر جوكوف حتى ملك صهوة جواده.

كان قائد فصيلة جوكوف، ضابط صف قديم، اشتهرت أسرته بالطيبة والذكاء، وكان هو ـ واسمه دوراكوف، أي الأحمق ـ رئيساً حازماً، هادىء الطبع، رابط الجأش، ما ألحق قط إساءة بأحد من الجنود، في حين كان القائد الآخر، وهو ضابط صف حديث اسمه بورودافكو، على النقيض تماماً، إذ كان عصبياً يكثر من الصياح واستخدام قبضته. ولم يكن هذا الرقيب يعرف التسامح، لا سيما عندما يشرف على تدريب الفروسية.

وتصادف أن ذهب قائد الفصيل دوراكوف بإجازة، وحل محله بورودافكو، فراح يتدخل في كل كبيرة وصغيرة، ويتحامل على الجنود، فيلاحقهم في النهار حتى ينهكهم أثناء الدرس، ويقوم في الليل بتفقد مناوبة الحرس، فيتصيد المناوبين الذين تأخذهم غفوة، فينهال عليهم ضرباً، حتى طفح الكيل. واتفق جوكوف مع بعض

رفاقه، فنصبوا له كميناً في زاوية مظلمة، ورموا عليه عباءة قيدت حركته، وانهالوا عليه ضرباً حتى فقد وعيه. وبات جوكوف وعصبته وهم ينتظرون إحالتهم إلى محكمة عسكرية ميدانية، ولكن لحسن حظهم، عاد قائد الفصيلة دوراكوف، وعمل على تسوية المشكلة، ثم نقل بورودافكو إلى كوكبة أخرى.

أصبح جوكوف ورفاقه من الخيالة المدربين في ربيع سنة ١٩١٦، وعلموا أن القيادة ستشكل منهم كوكبات ـ سرايا ـ لسند الخسائر، ولهذا فإن عليهم متابعة التدريب ـ بموجب البرنامج الميداني للتدريب ـ إلى أن يتم إرسالهم إلى الجبهة. ونقلوا إلى مكان آخر في قرية (لاجيري) وحل محلهم مجندون جدد (من مواليد سنة ١٨٩٧). وقد تم اختيار ثلاثين جندياً منهم كانوا من أفضل الجنود تدريباً، لإعدادهم حتى يصبحوا (صف ضباط)، وكان جوكوف بينهم، إلا أنه لم يرغب باتباع هذه الدورة، فاستدعاه قائد الفصيلة، وكان جوكوف يحترمه لذكائه وإدارته الجيدة وحبه للجنود، فأقنعه باتباع الدورة وقال له:

«سترى الجبهة يا صديقي حتماً، ولكن يجب أن تتزايد معرفتك قبل ذلك بالعمل العسكري لأن ذلك سيكون مفيداً لك. إني على ثقة بأنك ستصبح صف ضابط جيد. . ثم هاأنذا كما ترى، إني لا أستعجل الذهاب إلى الجبهة، وقد تعلمت جيداً خلال سنة قضيتها في المواقع الأمامية، وعرفت ذلك، وفهمت الشيء الكثير. ومن المؤسف، بل والمؤسف جداً، أن يموت شعبنا هكذا بحماقة، ولماذا؟. . هذا هو السؤال؟ . .».

شكر جوكوف قائد فصيلته على نصيحته، ووافق على الالتحاق بالدورة الدراسية التي تقـرر عقدهـا في مدينـة إيزيـوم من محافـظة خاركوف. وبلغ مجموع من وصل إلى هناك من مختلف القطعـات ٢٤٠ شخصاً ، تم توزيعهم على شقق خاصـة، وبدأت الـدراسة على الفور ، وكان من سوء حظ جوكوف هنـا أيضاً أن كـان كبير ضباط الصف، سيئاً جداً، لقبوه بلقب (الأربعة والنصف) بسبب قصر سبابة يده اليمنى. ولكن قصر هذه السبـابة لم يكن ليعيقـه عن استخدام قبضته لطرح أي جندي أرضاً. ولسبب جهله جوكوف، تركزت كراهية هذا (الأربعة والنصف) عليه، وعانى منه الأمرين، ثم إنه حاول حرمانـه من الفحص النهائي ، غـير أن رئيس الدورة تدخل لمصلحة جوكوف، بعد أن قام جوكوف بشرح كل ما تعرض لـه من عقوبـات على يـد (الأربعة والنصف). وتقـدم جـوكـوف للفحص، ونجح بتفوق، وتخرج برتبة (معاون صف ضابط).

مضت عقود من عمر الزمن، وأصبح جوكوف ماريشالاً للاتحاد السوفييتي. غير أن ذكريات السنة الأولى من حياته في الجيش بقيت راسخة في أعماق نفسه، وقد تحدث عنها بقوله: «إني عنـدما أقيم الآن الدورة التدريبية في الجيش القديم، لا يسعني إلا أن أقول بأن الدراسة فيها كانت جيدة بصورة عامة، لا سيما في النظام المنضم، كـما كان خـريجونـا يتقنون أعمـال الفرسـان واستخدام الأسلحـة وأصول تدريب المحارب. وليس من قبيل الصدف أن يصبح عدد كبـير من صف ضباط الجيش القـديم ـ بعـد الثـورة ـ من القـادة العسكريين الأكفاء في الجيش الأحمر. لقد كان التدريب القاسي هو

أساس العمل التربوي. ولم يكن ضباط الصف يحاولون معاملة الجنود على قاعدة إنسانية، ولم يكن من المطلوب منهم أصلاً الوصول إلى قلوب الجنود. لقد كان هدفهم الوحيد هو أن يصنعوا من الجندي أداة طيعة، فكانت الصرامة والقسوة هي الوسيلة لتطبيق الانضباط. وعلى الرغم من أن الأنظمة لم تكن تنص على العقوبات الجسدية، إلا أن هذه العقوبات كانت شائعة. لقد كان الجيش القيصري القديم يفتقر قبل كل شيء إلى روح الجماعة، ويعوزه التلاحم بين الجنود وبين كبار الضباط.

وفي اثناء الحرب (لا سيما في سنة ١٩١٦ وبداية سنة ١٩١٧) تعرض هذا الجيش لنقص كبير في عدد الضباط نتيجة الخسائر الفادحة في الحرب، مما اضطر القيادة للاستعانة بأفراد الطبقات الكادحة من العمال والفلاحين النابغين والمثقفين، ومن بين الجنود وصف الضباط، الذين أظهروا تفوقاً في المعارك القتالية. وكان هذا التمايز في الوحدات ـ حتى الكتيبة ضمناً ـ غير واضح كل الوضوح، إلا أنه كان بيِّناً في القطعات والتشكيلات. فالضباط والقادة الأمراء لم يكونوا على صلة أبداً بأوساط الجنود، وكانوا يجهلون كل شيء عن حياة الجنود ومأكلهم ومهجعهم، كانوا غرباء حقاً عن هذا الجندي. وقد أدت هذه الظاهرة، بالإضافة إلى انتشار الجهل التكتيكي في أوساط الضباط القادة والأمراء، إلى عدم تمتعهم باحترام الجنود وثقتهم بهم ـ باستثناء قلة منهم ـ.

أما في المستويات المتوسطة من الضباط، فكان الأمر على العكس، لا سيما عندما اقتربت الحرب من نهايتها، إذ أصبح هناك

عدد كبير من الضباط القريبين من روح الجنود ومشاعرهم، وقد أحب الجنود أمثال هؤلاء الضباط ومنحوهم ثقتهم، وساروا وراءهم في النار وفي الماء. وكان ضباط الصف هم الأساس الذي اعتمد عليه الجيش القديم، فكانوا هم الذين يضطلعون بأعباء تدريب الجنود وتعليمهم، وهم الذين يختارون المرشحين لإعدادهم حتى يصبحوا صف ضباط. وكان هذا الإعداد يتم بدقة وعناية، حيث يجري تدريبهم القتالي بشكل نموذجي. وكانت تنزل بهم في الوقت ذاته أشد العقوبات الانضباطية لأقل هفوة ـ بما في ذلك الإهانة والضرب ـ. ولهذا كان ضباط الصف يتخرجون وهم على درجة جيدة من التدريب القتالي، مع إتقان تطبيق منهجهم على المرؤوسين ضمن متطلبات النظام العسكري القيصري.

كان ضباط الوحدات يولون ثقتهم التامة لصف الضباط في مجال تدريب الجنود وإعدادهم. وقد ساعدت هذه الثقة ـ بالتأكيد ـ على إعطاء صف الضباط قدرة للعمل بروح استقلالية، وبمبادهة واسعة، وبشعور كامل بالمسؤولية. وقد برهن معظمهم،ولا سيما المتطوعون منهم، خلال المواقف القتالية على أنهم قادة أكفاء. وقد أكدت لي خبرتي الطويلة الأمد، أنه حيث لا توجد ثقة بالقادة الصغار، وحيث يجثم باستمرار فوق رؤوسهم وصاية الضباط الكبار، فإنه لن يكون هناك قادة صغار أكفاء، ولن تكون هناك بالتالي وحدات جيدة».

أصدرت القيادة أمرها بإرسال من أتموا الدورة الدراسية إلى كوكبات ـ سرايا ـ تعويض الخسائر، مع إرسال ١٥ منهم إلى الجبهة

مباشرة، وكان جوكوف في جملة هؤلاء، الذين توجهوا للمحطة من أجل الانتقال بالقطار إلى مدينة (خاركوف).

سار القطار نحو الجبهة، وطال أمد الرحلة، فقد كانت القطارات هذه الذاهبة للجبهة وتلك القادمة من الجبهة محملة بالجرحى ممن كانت جراحات كثير منهم خطيرة. وكانت هذه القطارات مضطرة للتوقف عند كل تقاطع حتى تفسح المجال لتحركات فرق المشاة نحو الجبهة. ولقد أتيحت الفرصة بذلك لجوكوف ومجموعته، للاختلاط بالجرحى، وتبادل الأحاديث معهم عن أوضاع الجبهة، فعرف هؤلاء مجموعة من الحقائق:

«**أولها**: إن القوات الروسية كانت سيئة التسلح والإمداد بالذخيرة.

وثانيها: إن القادة الكبار قد نالوا من الحرب سمعة سيئة، حتى أن الجنود باتوا يعتقدون أن القادة في القيادة العليا ما هم إلا خونة مأجورين للألمان، وأن طعام الجنود سيء».

فأصيب جوكوف ورفاق مجموعته بالوجوم لما سمعوه، وهيمن عليهم شعور الحزن والتشاؤم، فرجعوا فرادى إلى عربتهم في القطار، وجلس كل واحد منهم صامتاً، يفكر بما يتوقع مصادفته من مصاعب وما ينتظره من هموم.

عندما وصل جوكوف ومجموعته في صبيحة اليوم التالي (أوائل شهر آب ـ أغسطس ـ ١٩١٦) إلى منطقة (كامينيتس بدولسكا)

غادروا عربـة القطار، فـوجدوا بـأنه وصـل في الوقت ذاتـه إمداد بالرجـال لفوج الهـوصار العـاشر. ومائـة حصان ومعهـا تجهيزات الفرسان الكاملة لإمداد فوج الدراغـون العاشر. ولكن مـا كادت عربات القطار تفرغ حمولتها حتى أعطيت شارة الإنـذار من الخطر الجوي. ولجأ كـل فرد إلى المكـان الذي اختـاره، وحلقت طائـرة استطلاع ألمانية وألقت قنابلها الصغيرة، فقتلت جنـدياً وجـرحت خمسة خيول.

كـان هـذا أول تـطعيم حقيقي للمعـركـة، عـرفـه جـوكـوف ومجموعته، في طريقهم لقطعتهم الجديدة.

التحق جوكوف بفرقة الخيالة العاشرة التي انتقلت في الأول من أيلول ـ سبتمبر ـ إلى الغابات الجبلية في منطقة (بيستربسك). ولما كانت طبيعة الأرض لا تسمح بقتال الخيالة، فقد انتشرت الفـرقة وقاتلت كما تقاتل قوات المشاة.

انطلق جوكوف ورفيقان له في تشرين الأول ـ أكتـوبر ـ ١٩١٦ للقيام بدورية استطلاعية واصطدمت قدم أحد الخيول بلغم، وأدى الانفجار لإصابة رفيقي جوكوف بجراح خطرة بينما قذف الانفجار بجوكوف بعيـداً، فغاب عن الـوعي لمدة يـوم كامـل. ولما كـانت الصدمة شديدة، فقد أعادوه إلى مستشفى (خاركوف)، حيث بقي تحت العـلاج حتى شهر كـانون الأول ـ ديسمبـر ـ. وعندمـا غادر المستشفى كان لا يزال في حـالة ضعف شـديد، وأضحى ضعيف السمع ـ وهي العاهة التي لازمته بقية حياته ـ.

٣ ـ الحرب الأهلية

نقل جوكوف على أثر إصابته إلى مركز تدريب الأغرار، ولكنه أصبح الآن ضابط صف له خبرته القتالية في الجبهة، ويحمل على صدره صليبي (القديس جورج) اللذين منحا له بسبب نجاحه في القبض على ضابط ألماني، وأسره ولإصابته بجراح خطرة.

عرف جوكوف خلال خدمته في الجبهة مدى التدهور المعنوي للوحدات المقاتلة، والتدني الخطير للحالة النفسية للجنود، الذين زاد من استيائهم ونقمتهم رسائل الأهل والأقارب التي كانت تحمل معها أنباء المجاعة التي باتت تجتاح البلاد. ولم يكن هؤلاء الجنود بحاجة لما يثير نقمتهم ويضاعف من استيائهم وتذمرهم، فقد كانت أنظارهم تقع كل يوم على أوضاع الفلاحين في القرى المتاخمة للجبهة في أوكرانيا وبوكوفينا ومولدافيا، وما نزل بهؤلاء الفلاحين من الكوارث بسبب اضطهاد الحكم القيصري. وكان هذا المناخ، هو أفضل مناخ لعمل عناصر التحريض السرية التي استطاعت تكوين قناعة عامة لدى الجنود ـ وهم يخوضون حربهم للسنة الثالثة ـ في صراع أزهقت فيه أرواح العمال والفلاحين إرضاء لنزوات القيصر، لا من أجل الدفاع عن مصالحهم الشخصية، وأنهم سيصبحون مشوهين وسيقتلون من أجل (سيد الأرض الذي سلخ آخر جلدة عن أجسادهم).

وها هو جوكوف يعمل في مركز التدريب ـ على المؤخرة ـ، غير أن الحالة النفسية ـ المعنوية ـ للجنود الروس لم تتبدل. فالجنود لا

يريدون الحرب، ولا يتحرقون شوقاً لشم رائحة البارود، إن لهم مشاغلهم الأخرى، لا في سبيل القيصر والوطن، وإنما في سبيل ذويهم والأرض والسلم. وفي تلك الفترة (من نهاية عام ١٩١٦) تزايدت الشائعات عن إضرابات العمال وعصيانهم في المدن الكبرى. وكثر الحديث عن (البلاشفة) الذين يقودون النضال ضد القيصر، من أجل السلام، ومن أجل حرية الشعب الكادح، وأصبح الجنود أنفسهم يطالبون بإلحاح إيقاف الحرب.

هكذا انتظمت الجبهة والمؤخرة بناظم واحد، وهكذا ظهرت هناك إرادة واحدة في توجيه الصراع ضد نظام الحكم القيصري. ولم يكن جوكوف في هذا التيار أكثر من صف ضابط، إلا أن جنوده كانوا يثقون به، ويخوضون معه الأحاديث الخطيرة. وكان هو رغم قراءاته الكثيرة، لا يعرف المسائل السياسية معرفة عميقة، فبات أسيراً لما كان يقال له، واقتنع بأن البلاشفة ـ لا غيرهم ـ هم الذين يستطيعون تقديم السلام والأرض للشعب الروسي، وبات داعية للبلاشفة، ونصيراً لهم، بإرادته ومحض تصميمه.

جاء يوم ٢٧ شباط ـ فبراير ـ ١٩١٧، ليشكل نقطة التحول الحاسمة في حياة جوكوف، بل في حياة الشعب الروسي بأكمله[١].

---

(١) بصرف النظر عن الثورات والانتفاضات القديمة التي بدأت منذ سنة ١٩٠٥، والتي استمرت بعد ذلك نوباً، فقد بدأت الأحداث بالتسارع منذ مطلع سنة ١٩١٧. ففي يوم ١٠ شباط ـ فبراير ـ تمت آخر مقابلة بين القيصر نيقولا رومانوف (الثاني) وبين رئيس دوما الدولة (رودزيانكو) الذي طلب عزل وزير الدولة لعجزه =

ففي هذا اليوم تم استنفار الكوكبة التي كان يخدم فيها جوكوف، والتي كان يقودها (البارون فون درغولتس).

ولما لم يكن أحد يعرف سبب هذا الاستنفار، توجه جوكوف إلى قائد فصيلته، وسأله عن سبب الاستنفار لأن الجنود يريدون معرفة إلى أين يقودهم القادة، لا سيما بعد أن وزعت عليهم الذخيرة للقتال، ولكن ظهور قائد الكوكبة قطع الحديث. وصدر الأمر بالسير (خبباً) إلى مقر فوج الخيالة الخامس الاحتياطي (في مدينة بالاكاليه). وعندما وصلت الكوكبة إلى هناك وجدت كوكبات أخرى قد اصطفت (من فرسان الدراغون وفرسان الهوصار).

ولم يطل الانتظار فقد ظهرت جماعة من المتظاهرين وقد حملت الأعلام الحمراء، فمضى قائد كوكبة جوكوف إلى مقر قيادة الفوج، وتبعه قادة الكوكبات الأخرى. وخرجت من قيادة الفوج جماعة كانت مزيجاً من العسكريين والمدنيين (العمال). وتوجه أحد العسكريين بخطابه إلى الجنود، وقال لهم بصوت جهوري: «إن الطبقة العاملة والجنود والفلاحين من وطننا لا يعترفون بعد الآن

= عن قمع الاضطرابات فرفض القيصر. وفي يوم ١٤ شباط ـ فبراير ـ أضربت ٦٠ مؤسسة صناعية كبيرة في بيتروغراد بناء على نداء وجهه البلاشفة. وفي يوم ١٨ شباط ـ فبراير ـ أضرب عمال مصانع الأعتدة الحربية في بيتروغراد ـ وفي يوم ٢٢ شباط ـ فبراير ـ أضرب عمال مصانع بوتيلوف، وتظاهر ٢٠ ألف عامل في شوارع العاصمة، ثم استمرت التظاهرات اليومية، فوصل عدد المتظاهرين يوم ٢٤ شباط ـ فبراير ـ حتى ٢٠٠ ألف عامل. وظهرت بواكير التمرد في صفوف الجيش (٣٠٠ يوم من الثورة الروسية ـ دار الفارابي ـ بيروت ١٩٧٨ ص ٢).

بالقيصر نيقولا الثاني، ولا يعترفون بالرأسماليين والإقطاعيين، وإن الشعب الروسي لا يرغب في الاستمرار في الحرب الأمبريالية الدامية، وإنه بحاجة إلى السلم، فلتسقط الحرب، ولتسقط القيصرية، وليعش السلام بين الشعوب، ولتعش مجالس ممثلي العمال والجنود (السوفييت) ـ أورا».

وتعالت صيحات يعيش ـ الأورا ـ من جميع الأنحاء. وخرجت لجنة الجنود من نشاطها السري إلى مجال العمل العلني، وقامت باعتقال من يمكن لهم التعرض لمسيرة الثورة. وعادت القوات إلى أماكنها بانتظار وصول تعليمات (لجنة الجنود).

قامت كل كوكبة بانتخاب ممثليها إلى لجنة الفوج، فانتخبت كوكبة جوكوف ـ ملازماً وجوكوف مندوباً ثانياً وجندياً آخر ـ. واجتمعت لجنة الفوج في بداية شهر آذار ـ مارس ـ وقررت تقوية وحدة الجنود والعمال والفلاحين في النضال من اجل استمرار الثورة.

جاء بعد ذلك ملازم ثان الى الفوج، وتحدث إلى الجنود، وكان حديثه في البداية حسناً، كما لو كان مع الثورة، ثم راح بعد ذلك يمتدح الحكومة المؤقتة[1] ويحث على تعبئة الجيش لصد العدو،

---

(١) كان القيصر نيقولا الثاني قد أمر بحل مجلس دوما الدولة (مجلس الوزراء) في ٢٦ شباط ـ فبراير ـ ١٩١٧. وفي ٢٨ شباط ـ فبراير ـ اعتكف القيصر في مقر إقامته، وترك مقر القيادة العليا، فتشكلت حكومة مؤقتة برئاسة الأميرلفوف، وفيها كيرنسكي يوم ٢ آذار ـ مارس ـ. وفي ٨ منه، فرضت الإقامة الإجبارية على =

وتلقى الجنود كلماته باستياء. وعندما عرض الأمر على التصويت، جاء لصالح أولئك الذين ساروا على خطى البلاشفة. وأصبح مجلس فوج ـ جوكوف ـ بلشفياً. ولكن لم تمض فترة طويلة حتى أصدرت لجنة الجنود أمرها بحل كوكبة ـ جوكوف ـ وإعادة جنودها إلى مواطنهم. وقام جوكوف ورفاقه بمنح الجنود مصدقات تثبت تسريحهم فعلاً من الخدمة، ونصحوهم بحمل بنادقهم وذخيرتها معهم. ولكن مفرزة من فرسان الجيش القومي الأوكراني المضاد للبلشفية، جرد هؤلاء الجنود من أسلحتهم.

ثم عاد جوكوف إلى موسكو في ٣٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩١٧ وحصل على إجازة، فمضى إلى قريته حيث أمضى فيها فترة شهرين مع أمه وأبيه. وكانت الحرب الأهلية قد اندلعت في كل مكان، كما هوجمت روسيا بقوات الحلفاء. ولما أراد جوكوف الالتحاق بقوات الجيش الأحمر، في بداية شهر شباط ـ فبراير ـ ١٩١٨، أصابته الحمى الطفحية، ثم أصيب بانتكاسة، فلم يتمكن من الالتحاق بالجيش حتى شهر آب ـ أغسطس ـ ١٩١٨، إذ تطوع في فوج الخيالة الرابع من فرقة الخيالة الأولى ـ الموسكوفية ـ.

= القيصر، ثم أبعد وعائلته إلى سيبيريا يوم ١ آب ـ أغسطس ـ، ثم تشكلت حكومة مديرين برئاسة كيرنسكي ـ من خمسة أعضاء ـ يوم ١ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩١٧، وفي اليوم ذاته تم الإعلان بقيام الجمهورية الروسية. وتبع ذلك تشكيل الحكومة المؤقتة الثالثة في ٢٥ أيلول ـ سبتمبر ـ (برئاسة كيرنسكي أيضاً). (٣٠٠ يوم من الثورة الروسية ـ ص ٣ ـ ١٠).

لم يكن جوكوف حتى الآن قد انضم إلى الحزب، فتقدم في شهر آذار ـ مارس ـ ١٩١٩ بطلب انتساب، وفي أول أيار ـ مايو ـ ١٩١٩، قبل عضواً في الحزب الشيوعي الروسي (البلشفي).

لم يشترك جوكوف وفرقته في الحرب الأهلية خلال تلك الفترة، إذ كانت هذه الفرقة تعيد تنظيمها وتدريبها، شأنها شأن كثير من فرق الجيش الأحمر، وقد أفادت من خبرات الجيش القديم ومن أجهزته القيادية. وقد تعرض جوكوف لتلك الفترة بعد حين بقوله:

«عندما أتذكر العمل المشترك مع ضباط الجيش القديم، يجدر القول إنهم في غالبيتهم كانوا قوماً شرفاء، يتمتعون بوجدان حي، ويبذلون جهدهم بإخلاص في سبيل الوطن، إنهم أبناء بررة لشعبنا. وعندما كان يتطلب الموقف تقديم حياتهم في المعارك ضد العدو، فإنهم كانوا يقدمون على التضحية بدون تردد، وبشرف. لقد كان ينقصهم شيء واحد فقط، هو المقدرة على التقرب من المحاربين، فقد كانوا يبتعدون عنهم، ولا يحاولون الوصول إلى اللغة المشتركة التي يلتقون بها مع جماهير الجيش الأحمر. وقليلون هم جداً أولئك الذين نجحوا في أن يصبحوا قادة ورؤساء ورفاقاً كباراً للجنود. وإني لأذكر أننا كنا قد ناقشنا في المنظمات الحزبية، أكثر من مرة، عن العلاقات المتبادلة مع الضباط السابقين، وحاولنا منح الأخصائيين العسكريين ثقة أكبر. ولكنه كان بين الشيوعيين أشخاص موتورون يعتبرون أن الصحيح هو معارضة الجيش النظامي والامتناع عن تنظيمه، وعدم قبول الأخصائيين العسكريين

القدامى في الجيش الأحمر، باعتبار أن الضباط القدامى في مجملهم هم من الحرس الأبيض (المضاد للثورة)، وأنهم غير قادرين على التلاؤم مع النظام السوفييتي، وأن الانضباط والنظام الصارم اللذين ألفوهما يتلاءمان والأنظمة الاقطاعية. ولكن المعروف أن وجهة النظر هذه قد رفضت في المؤتمر الثامن للحزب، بأغلبية عظمى، وقد فهم الأخصائيون العسكريون الذين كانوا يتتبعون باهتمام أعمال المؤتمر الثامن، أن الحزب يثق بهم ويقدرهم ويهتم بهم، فازدادوا اقتراباً من جماهير الجيش الأحمر والمنظمات الحزبية. وأصبحت العناصر القيادية بين ضباط الجيش الروسي القديم، أكثر فاعلية وحزماً في مسائل الانضباط وخدمة القوات. وقد انعكس ذلك كله على أفضل وجه في القدرة القتالية والاستعداد القتالي للجيش. وقد عمل المفوضون العسكريون والعاملون الحزبيون السياسيون وجنود الجيش الأحمر أنفسهم على إحباط جميع المحاولات الهادفة إلى زعزعة الثقة بالضباط القدامى».

اشتبك فوج جوكوف (فوج الخيالة الرابع) مع قوات (الحرس الأبيض ـ المناهض للثورة ـ) في عدد من المعارك. وكانت إحداها تلك التي وقعت في تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩١٩ وتطورت إلى أشتباك عنيف بالسلاح الأبيض . وأصيب جوكوف بشظايا قنبلة يدوية اخترقت ساقه وجنبه الأيسر، فنقل إلى المستشفى ثم غادره وهو في حالة شديدة من الضعف، فمنح إجازة نقاهة لمدة شهر قضاها مع أهله في قريته.

أرسل جوكوف بعد ذلك مدرباً إلى (دورات القادة الحمر) في

ريازان، فالتحق هناك في كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٢٠، وقد ضمت هذه الدورات الخيالة الذين أبدوا تفوقاً في القتال. وقد عهد إلى جوكوف بمنصب الطالب الضابط مساعد أول الكوكبة ـ السرية ـ وكلف بتدريب الطلاب على استخدام السلاح الأبيض (السيف والرمح) وتعليمهم قتال الحراب والنظام المنضم والتربية البدنية. واستمر جوكوف في عمله هذا حتى شهر تموز ـ يوليو ـ ١٩٢٠ حيث حمل الطلاب الضباط على عجل في القطارات، ولم يعرف أحد منهم إلى أين ينقلونهم. حتى وصلوا موسكو، واستقروا في أحد ثكناتها، وأُعلموا أنه سيشكل منهم ومن بقية الدورات لواء مختلطاً سيرسل إلى الجبهة، ووزعت على الجميع التجهيزات الضرورية، والأسلحة، وكانت تجهيزاتهم وتجهيزات خيولهم جديدة، فظهروا بمظهر جميل.

ولما كانت قوات الثورة المضادة (قوات الحرس الأبيض بقيادة فرانغل) قد اتخذت من إقليم القوقاز قاعدة لها. والتحق جوكوف (بفوج الخيالة الأول) الذي كان يقوده القوزاقي المقاتل القديم ـ أندرييف ـ والذي اشتهر بشجاعته وإقدامه. ولما وصل جوكوف ـ ورفاقه ـ إلى أركان الفوج، وسلموا وثائقهم، استقبلهم قائد الفوج، وراح يرمق سراويلهم الحمراء، ثم قال ممتعضاً: «إن محاربي لا يحبون القادة الذين يرتدون السراويل الحمراء. إن معظم المحاربين عندنا قد ذاقوا طعم الجراح، ونحن لن نرحم من يجرب ذلك». ثم أصدر قائد الفوج أمره: «أنت يا جوكوف تستلم الفصيلة الثانية».

توجه جوكوف إلى قائد الفصيلة السابق، وعرف منه قوة الفصيلة ـ ثلاثين فارساً ـ ثم أمر بجمعها مع خيولها، وتفقدها، ثم تحدث إلى أفرادها بقوله:

«هاكم أيها الرفاق، لقد عينت قائداً لكم. فهل أنا قائد جيد أم سيء. وهل أنتم محاربون جيدون أم سيئون، هذا ما سنراه في المستقبل، أما الآن، فإني أريد أن أرى خيولكم وتجهيزاتكم القتالية، وأن أتعرف على كل واحد منكم شخصياً».

وراح جوكوف يتعرف على الجنود، ولاحظ أن بعض المحاربين كانوا يرمقون بفضول بنطاله الأحمر، فقال لهم:

«لقد أشار قائد الفوج ـ أندرييف ـ إلى أنكم لا تحبون السراويل الحمراء، وأود أن أعلمكم أنه ليس عندي غيرها. وأنا أرتدي ما أعطته لي السلطة السوفييتية. وأنا ما زلت أقوم بواجبي تجاه السلطة السوفييتية. أما اللون الأحمر بصورة عامة، فإنه كما هو معلوم، لون الثورة، وهو يرمز إلى كفاح الشعب الكادح من أجل حريته واستقلاله».

أتيحت الفرصة بعد أيام قليلة لدخول جوكوف وفصيلته في معركة ضد قوات عصابات (الحرس الأبيض)، حيث أمكن تطهير منطقة مجاورة، وانتهت المعركة لمصلحة الفصيلة، وأمكن تدمير رجال العصابات، وتم أسر عدد منهم، ولم تصب فصيلة جوكوف بأية خسارة، ولم يسمع جوكوف بعد المعركة أحداً من المحاربين يتطرق إلى موضوع ـ البنطال الأحمر ـ، وسرعان ما عين جوكوف

قائداً للكوكبة ـ السرية ـ الثانية من فوج الخيالة الأول.

استمر جوكوف ووحدته في خوض الصراع المرير ضد قوات العصابات. وكانت معارك هذا الصراع قاسية ومثيرة، ولم تكن معركة ربيع سنة ١٩٢١ أقلها قسوة أو إثارة، على كل حال. فقد توافرت المعلومات عن تحشد ثلاثة آلاف مقاتل، من قوات الثائر أنتونوف على بعد ١٥ كلم عن قرية (فيازوفايا بوتشتا)، فتم استنفار فوج جوكوف، الذي تحرك مع بقية وحدات اللواء.

وكُلف جوكوف وكوكبته ـ سريته ـ مع أربع رشاشات متوسطة ومدفع واحد للتقدم على محور الطريق، باعتباره القوة المتقدمة للفوج. وما كاد جوكوف وكوكبته يتقدم مسافة خمسة كيلومترات حتى اصطدم بقوة من القوات الثائرة ضمت ٢٥٠ مقاتلاً. وأصدر جوكوف أمره على الفور بتوقف الكوكبة، ووضع الرشاشات في مواقع مناسبة وفتح النار، ثم اندفع وقوته بالهجوم. ولم تصمد قوة الثائرين للصدمة، فتراجعت بسرعة بعد أن تعرضت للخسائر الكبيرة. وحدث أثناء الالتحام بالسلاح الأبيض أن أطلق أحد الثائرين نار بندقيته فأصاب جواد جوكوف وقتله ووقع جوكوف ذاته تحت الحصان، وأسرع ذلك الثائر للوصول إلى جوكوف من أجل قتله، وكاد يصل إلى غايته لولا أن أسرع أحد رفاق جوكوف فسدد ضربة قوية بحربته لذلك الثائر الذي خر صريعاً، ثم عمل على مساعدة جوكوف للخروج من تحت الحصان، وركوب حصان آخر. وفي تلك اللحظة شاهد جوكوف رتلاً من الخيالة المعادية

يسعى للالتفاف على الكوكبة، فأمر على الفور بتوجيه نيران كافة الأسلحة ضدها، وأرسل إلى قائد الفوج يعلمه عن الموقف الطارىء.

ولم تمض أكثر من نصف ساعة حتى اقتربت بقية وحدات الفوج واشتبكت مع العدو بالنيران. ولما كانت قوات الثائرين متفوقة بعددها فقد اضطرت وحدات الفوج للانسحاب. وأفادت قوات الثائرين من هذه الفرصة فوجهت ضربتها إلى مجنبة كوكبة جوكوف. وقرر قائد الفوج العودة إلى قرية (فيازوفايا بوتشتا) بهدف استدراج قوات العدو إلى أرض غير ملائمة له، وصدر الأمر إلى جوكوف بتغطية انسحاب الفوج من المعركة. ولاحظ الثائرون حركة الفوج، فركزوا جهدهم كله ضد كوكبة جوكوف التي راحت تعمل حرساً لمؤخرة الفوج بعد أن كانت تعمل مقدمة له.

تطورت المعركة، ووقع ثقلها على جوكوف وكوكبته، ورأى العدو قلتهم الضئيلة، وغرَّته كثرته، فأيقن أنه سيمزق هذه الكوكبة وسيسحقها، ولكن تحقيق ذلك لم يكن سهلاً كما ظن أو توقع. فراح جوكوف يتحرك ـ يناور ـ برشاشاته المتوسطة الأربعة، وبالمدفع من عيار ٧٦ مم. فأمكن له بذلك إبادة قوات الهجمات المتتالية، حتى غطت جثث الثائرين أرض المعركة. كل ذلك وجوكوف يتابع قيادة الانسحاب مع الاستمرار في القتال. ومقابل ذلك، فقد وقعت بعض الخسائر في كوكبة جوكوف، فأمر بحملهم على قواعد الرشاشات وحاضن المدفع حتى لا يمثل بهم رجال العصابات.

وصل جوكوف وكوكبته إلى القريـة، غير أن القتـال لم يتوقف. وشاهد جوكوف أحد رشاشاته التي تـأخرت في الانسحـاب، وقد أحيط به، فأسرع لإنقاذه. وأطلق أحدهم النار فـأصاب حصـان جوكوف، ووقع الحصان فوق جوكوف للمرة الثانية. وكـاد الثوار يذبحونه لو لم يسرع رفاقـه لإنقاذه مـرة أخرى. وخـرجت كوكبـة جـوكوف من هـذه المعركـة وقد خسـرت عشرة قتـلى وخمسة عشر جريحاً.

استمـر جوكـوف وكـوكبتـه في صـراعهم طـوال فصـل صيف ١٩٢١، وكـانت القوات الأخـرى قـد نجحت في تـدمـير قـوات الثورة، فوقع على جوكوف واجب تـطهير بعض المنـاطق من فلول الثائرين الممزقة، وكان النجاح حليفه في كافة العمليات التي كلف بتنفيذها.

٤ ـ إعادة التنظيم

انتهت الحرب الأهلية، وبدأت مرحلة إعـادة التنظيم الشـامل للجيش الأحمـر، وتم تعيين جـوكوف في الفتـرة الـواقعـة مـا بـين حـزيران ـ يـونيو ـ ١٩٢٢ وآذار ـ مـارس ١٩٢٣، قائـداً لاحدى كوكبات فوج الخيالة ٣٨، ثم معاوناً لقائد فوج الخيالة ٤٠ من فرقة الخيالة السابعة (سامارا).

وكان قادة الفوجين على درجة عالية من الكفاءة، تعلم جوكوف منهما كثيراً مما يمكن تعلمه حتى إذا ما كان ربيع سنة ١٩٢٣ استلم جوكوف برقية من أركان الفرقة تدعوه للمثول أمام الفرقة. ولما كان

يجهل سبب استدعائه فقد هيمن عليه القلق طوال الطريق للمقابلة. ولكن هذا القلق سرعان ما تبدد، فقد استقبل قائد الفرقة (ن. و. كاشيرين) بالترحاب مرؤوسه جوكوف، وقدم له الشاي، وسأله كثيراً عن التدريب التكتيكي والاستعداد القتالي في فوجه، ثم سأله بصورة مباغتة:

«ما رأيك؟ هل يتعلم الخيالة عندنا بصورة صحيحة ما يلزم للحرب في المستقبل؟ وكيف تتصور أنت هذه الحرب المقبلة؟». إنه سؤال مربك حقاً. إنه لا يزال يتولى قيادته على مستوى الكوكبة، فكيف يسأله قائد الفرقة عن الحرب بصورتها الشاملة؟ يا له من سؤال معقد؟ وأحمر وجه جوكوف، ولم يعثر على الجواب المناسب. ولاحظ قائد الفرقة ارتباكه وتردده، فانتظر بصبر ريثما تمكن جوكوف من استعادة السيطرة على تفكيره، ثم قال:

«ما زال ينقصنا نحن القادة كثير من المعلومات والمهارات الضرورية لتعليم القوات على أتم وجه. إننا نعلم مرؤوسينا ما سبق وعلمونا إياه في الجيش القديم. ويجب تسليح الملاك القيادي بالمفهوم الحديث لأعمال العسكرية حتى يتم تدريب القوات تدريباً كاملاً».

وأجاب قائد الفرقة: «هذا صحيح، ونحن نحاول أن يجتاز القادة عندنا دورات عسكرية ـ سياسية، ويدرسوا في الأكاديميات. ولكن هذه العملية طويلة الأمد، والمؤسسات التعليمية عندنا ما تزال قليلة، وعلينا في بادىء الأمر أن ندرس معتمدين على أنفسنا».

وراح قائد الفرقة يتمشى في الغرفة، ثم وجه حديثه بصورة مباغتة لجوكوف: «إنني لا أعرفك جيداً، ولكن الرفاق الذين تحدثت معهم، أشاروا علي بتعيينك قائداً لفوج الخيالة ٣٩. فإذا لم يكن هناك مانع، فاذهب إلى أركان الفرقة وخذ أمر المهمة. أما أمر التعيين فموقَّع وجاهز».

ودَّع جوكوف قائد الفرقة وقد غمره الاضطراب. فالوظيفة الجديدة مشرفة جداً، ذلك أن قيادة الفوج هي دائماً أهم مرحلة في تكوين القائد وإعداده لإدارة الحرب. وهذا ما عبر عنه جوكوف بقوله:

«إن الفوج هو القطعة العسكرية الأساسية، حيث ينظم التعاون للمعركة بين صنوف القوات البرية كافة، وقد لا تكون القوات البرية وحدها أحياناً. ويجب أن يعرف قائد الفوج وحداته جيداً، وكذلك وسائط الدعم التي عادة ما يتم إلحاقها بالفوج في الأعمال القتالية. والمطلوب منه المهارة في اختيار الاتجاه الرئيسي في المعركة، وحشد جهده الأساسي عليه، وهذا هام جداً لا سيما في الظروف التي يملك فيها العدو تفوقاً واضحاً بالقوى والوسائط. **لذلك فإن قائد القطعة الذي يستوعب قيادة الفوج كل الاستيعاب، والقادر على تأمين استعداده القتالي بصورة دائمة، سيكون في طليعة القادة العسكريين في جميع مستويات القيادة التالية سواء في زمن السلم أو في زمن الحرب».**

لقد أُدرك جوكوف أهمية التعلم في إعداد القادة وهو يسير بسرعة

نحو المرتبات القيادية العليا، فقال: «**هناك ثمة قادة ظنوا أنفسهم، بعد انتهاء الحرب الأهلية، أنهم باتوا أساطين في فن الحرب، وأنه لم يعد هناك ما يمكن لهم تعلمه بعد ذلك، وقد أدرك قسم منهم خطأه فيما بعد، فعاد إلى صوابه. أما الآخرون، فبقوا على ما هم عليه بذخيرتهم القديمة، وبدهي، أنهم سرعان ما قصروا عن مسايرة الركب المتطور، والمتطلبات المتزايدة فاضطروا الى الانسحاب إلى الاحتياط**».

تولى جوكوف قيادة فوجه في نهاية شهر نيسان ـ إبريل ـ ١٩٢٣، وكان هذا الفوج يستعد خلال تلك الفترة للخروج إلى المعسكر، فكان بذلك أول قطعة من الخيالة تخرج للمعسكر التدريبي بعد الحرب الأهلية. ولم يكن لدى الكثير من الضباط فكرة واضحة عن العمل في هذه الظروف الجديدة. كما تبين وجود سيئات في درجة الاستعداد القتالي، لا سيما في مجال التدريب التعبوي ـ التكتيكي ـ والتدريب على الرمي. ولهذا وجه جوكوف اهتمام الوحدات إلى تنظيم القاعدة المادية للتدريب، (مساعدات التدريب) في المعسكرات. وأصبح المعسكر مجهزاً على أفضل وجه في منتصف شهر أيار ـ مايو ـ. وحصل الفوج على معسكر منظم جيداً ـ من الخيام ـ وبه مطعم صيفي جميل، وناد. وجهزت أماكن مسقوفة ومرابط للخيول. أما حقل الرمي فكان مفخرة للفوج، حيث أعد للتدريب على الرمي بكافة أنواع الأسلحة.

إنصرف الفوج للتدريب مع بداية شهر حزيران ـ يونيو ـ ١٩٢٣. واندفع الجميع للعمل بحماسة مثيرة، وقد توافرت جميع

الظروف المطلوبة للتدريب. وتم تعيين بطل الحرب الأهلية (غ. د. غاي) قائداً للفرقة في منتصف الصيف، فكان أول عمل له هو استدعاء قادة الألوية والأفواج والوحدات للاجتماع به في خيمة القيادة في المعسكر، بهدف التعارف وبحث مشكلات التدريب.

وبعد مضي ثلاثة أيام على هذا الاجتماع، وبناء على توجيهات هيئة أركان الفرقة، كان موعد قائد الفرقة مع جوكوف وفوجه لاستعراضه واختبار مستواه التدريبي. واصطف الفوج بكامله للاستعراض. وصعد قائد الفرقة رابية مشرفة، وهو يمتطي جواده الأدهم ذا القوائم البيضاء، والذي كان جواداً جموحاً متحفزاً، إلا أن فارسه أخضعه لإرادته بيد حازمة وركبتين قويتين. وراح قائد الفرقة يتابع باهتمام حركات الفوج وتدريبه.

بدأ التدريب بالإيعازات الصوتية، ثم بإيعازات السيف (أو ما يسمى بالتعليم الصامت) ثم بإشارات البوق. ونفذت حركات التشكيل والتحرك والإلتفاف والدوران والتوقف والتراصف بدقة مثيرة، لم يكن يتوقعها حتى قائد الفوج ذاته. وفي الختام، انتظم الفوج، وبدأ يتحرك بتشكيلة (السيل) وهي حركة قوزاقية قديمة للهجوم. ووجه جوكوف مركز التنظيم القتالي نحو المرتفع الذي يقف عليه قائد الفرقة. وبعد أن اقترب الفوج من المركز، أصدر جوكوف أمره إليه بالتوقف، وتقدم إلى قائد الفرقة ليقدم له تقريره معلناً انتهاء العرض. ولكن قائد الفرقة لم يتركه أبداً ليقدم تقريره، بل رفع يديه إلى الأعلى صائحاً: «أنا استسلم، أستسلم،

أستسلم». ثم اقترب من جوكوف وقال له بحرارة. «شكراً، شكراً جزيلاً». وعندما أصبح على مساواة منتصف الفوج، وقف على ركابه، ووجه حديثه إلى المحاربين: «**إنني خيال قديم، وأعرف جيداً التدريب القتالي للخيالة. ولقد برهنتم اليوم على أنكم تقومون بواجبكم تجاه الوطن، وتبذلون كل جهد ممكن، وهذا ما يجب أن يكون. إن التدريب القتالي الجيد، والإدراك الجيد للواجب تجاه الوطن هما الطريق إلى منعة جيشنا البطل. شكراً لكم. لقد بعثتم السرور في قلبي اليوم**».

إنتهى تدريب الفوج إلى نتائج جيدة. وكان لزاماً عليه الانتقال في نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر ـ مع فرقته (فرقة الخيالة السابعة، سمارا) إلى منطقة أورشا للاشتراك في مناورات المنطقة. وكانت هذه المناورات تجري لمعسكر التدريب لأول مرة أيضاً بعد الحرب الأهلية.

لم تكن هذه المناورات كبيرة من حيث المستوى، إلا أنها كانت صعبة وشاقة، وكانت تتطلب سيراً سريعاً إلى منطقة أورشا. وقد أصدر قائد الفرقة أمره إلى جوكوف للسير في مقدمة الكتلة الرئيسة للفرقة، وكان ذلك يعني بأنه يجب على فوج جوكوف السير لمسافة طويلة في وقت قصير، مع إتخاذ تدابير الحيطة أثناء المسير (مفارز أمن وحراسة) والبقاء في حالة استعداد دائم للفتح، والانتقال من تنظيم المسير إلى تنظيم القتال للدخول في معركة مع العدو وإعداد أفضل الظروف لزج قوى الفرقة الرئيسة في المعركة.

إستمر تحرك الفرقة مدة ثلاثين ساعة تم خلالها السير لمسافة مائة كيلومتر، بعد استراحتين طويلتين، مدة كل واحدة منهما خمس ساعات، وكان ذلك بمثابة اختبار قاس لقدرة الفرسان وخيولهم على التحمل، أضف إلى ذلك أنه كان على الفرسان العناية بخيولهم وسقايتها وإطعامها وإصلاح وضع التجهيزات والوسائط أثناء الاستراحات. وعلى الرغم من التعب، فقد بقيت الروح المعنوية عالية لدى الجميع.

عمل جوكوف على دفع عناصر الاستطلاع إلى الأمام. وأفادت هذه العناصر عند الفجر عن تحرك قوات (معادية) خلف طريق موسكو ـ أورشا، باتجاه محطة أورشا، وأن هذه القوات المعادية قد اشتبكت في (معركة) مع عناصر الاستطلاع ومفارز التغطية التي كانت تغطي المشارف المؤدية إلى عقدة الخطوط الحديدية. وكما يحدث في المناورات دائماً، إندفع المحكمون نحو الفوج من كافة الاتجاهات يحملون على أيديهم الشارات البيضاء ـ والمحكمون هم قادة يساعدون الإدارة في المشروع ـ وأخذوا ينهالون بأسئلتهم على جوكوف: «ماذا تعرف عن العدو؟»، «ما هو قرارك؟»، «ما هي التدابير التي ستتخذها؟» وأجاب جوكوف بهدوء، ودون أي انفعال: «إني سأتوجه فوراً إلى مفرزة الرأس وأقوم بالاستطلاع الشخصي. وهناك سأتخذ القرار».

وهمز جوكوف حصانه، ووصل بعد بضع دقائق إلى مفرزة الرأس، فعرف من قائدها: «أن فوجي مشاة (معاديين) قد انتقلا

إلى تشكيل ما قبل المعركة، وهما يتحركان خلف الخط الحديدي بالاتجاه العام، نحو المرتفع الموجود في الأمام، حيث تدور معركة مع المشاة الصديقة. ويظهر أن مشاة العدو لم تعرف بعد بوصول قواتنا إلى هذه المنطقة، لأننا لم نصادف قوات استطلاع أو مفارز حراسة تابعة لقوات العدو».

ولم يكد قائد مفرزة الرأس ينهي تقريره، حتى ظهرت مجموعة من الفرسان وهي تقترب من جوكوف، وتبين أن هذه المجموعة هي مجموعة قائد الفرقة. فعرض عليها باختصار ما توافر له من معلومات، وأفاد بأن قراره هو: «الإفادة من هذه الفرصة الملائمة للغاية من أجل شن هجوم مباغت على العدو، وإصدار الأمر إلى الفوج لاتخاذ تشكيل القتال على الفور، والهجوم على العدو، لا سيما وأن طبيعة الأرض ملائمة جداً للهجوم».

ونظر قائد الفرقة بمنظاره، وقال: «حالة نادرة، اعمل بجرأة أكبر، ومهد للهجوم بالمدفعية ونيران الرشاشات كلها، وستصل القوى الرئيسة للفرقة خلال ٢٠ حتى ٣٠ دقيقة وستوجه ضربتها إلى مؤخرة هذا التجميع لدحره نهائياً».

مضت ساعة من الزمن، غطى الدخان والغبار بعدها ميدان المعركة. وفتحت أفواج الخيالة التابعة للفرقة بتراتيب القتال، واندفعت نحو (العدو) وهي تصرخ صرختها الجبارة (الأورا). وكان المنظر في الواقع جميلاً وأخاذاً، وكان المحاربون قد انتفخت

أوداجهم، وأحدقت أبصارهم بما يقع تحت أنظارهم الشاخصة أبداً إلى الأمام، وكأنهم في معركة حقيقية. وانتهت المعركة بإعطاء إشارة الرحيل، واستحق الجميع ثناء القيادة لما حققوه من النجاح. ولقد ترددت أصداء هذا النجاح بقوة، لا في وسط القيادة فحسب، وإنما أيضاً بين القوات المسلحة، وحتى بين جماهير الشعب التي كانت ترقب التحولات الجديدة في بناء القوات المسلحة. ولقد ظهر ذلك واضحاً عندما بدأت أفواج الفرقة سيرها إلى (مينسك) بعد استراحة أيام قليلة، حيث مكان الإقامة الدائمة لأفواج الفرقة ووحداتها. فقد خرج آلاف من سكان المدينة إلى الشوارع، وراحت صيحات (الأورا) في مرافقة قوات الفرقة، فكانت هذه الصيحات (الزغاريد) هي الرابطة الحقيقية التي ربطت قلوب أفراد القوات المسلحة بقلوب شعبهم ومواطنيهم، وكانت المحافظة على رابطة الثقة والمحبة هذه تستحق من أفراد القوات المسلحة بذل كل الجهود الممكنة.

ولم تكن أماكن الإقامة في مينسك جيدة، فكان على جوكوف وفوجه بذل جهد كبير لإعداد الثكنة، وتهيئة أماكن الإقامة ـ للأفراد والأسلحة والخيول ـ بشكل مناسب قبل قدوم فصل الشتاء، وقد أمكن الانتهاء من ذلك كله في الموعد المناسب. وكان على جوكوف، بعد ذلك، إعداد نفسه وإعداد قوات فوجه، لمرحلة التدريب التالية. وقد تعرض جوكوف لتلك المرحلة بقوله:

«قد يبدو كل شيء سهلاً، ولكن ليس بالنسبة لشاب عمره ٢٦ سنة وهو يقود فوجاً من الخيالة، ليس له إلا زاد قليل من خبرة

الحياة. لقد أنهيت في الجيش القيصري القديم دورة ضابط صف، وأنهيت في الجيش الأحمر دورة القادة الحمر، وهذا كل شيء. وقد حاولت التعويض على ذلك عندما انهمكت بعد انتهاء الحرب الأهلية في دراسة كل ما كانت تقع عليه يدي من الكتب العسكرية، لا سيما ما كان منها متعلقاً بالمسائل التعبوية ـ التكتيكية ـ ولكن على الرغم من ذلك، فقد بقيت وأنا أشعر بضعف في المسائل النظرية، وأنني أكثر قوة في المسائل العملية، ذلك لأني قمت بتدريب لا بأس به أثناء الحرب العالمية الأولى، وأتقنت جيداً أصول التدريب القتالي.

أما في المجال النظري، فقد كنت مقصراً عن الاستجابة التي تفرضها أعباء قائد الفوج وواجباته. وقادني التفكير إلى عدم إضاعة الوقت، والانصراف إلى الدراسة بتصميم. ولكن كيف السبيل إلى ذلك وأعمال الفوج تتطلب مني تخصيص اثنتي عشرة ساعة يومياً حتى أتمكن من القيام بكل شيء وفي كل مكان؟.. كان المخرج الوحيد هو إضافة ثلاث أو أربع ساعات أخرى إلى برنامج العمل اليومي، من أجل التحضير الشخصي، أما النوم والراحة، فلا بأس، سأجد يوماً أستريح فيه بعد الحصول على المعرفة اللازمة».

جاءت بعد ذلك، الفرصة التي كان ينتظرها جوكوف، ويتوق لها. فقد استدعاه قائد الفرقة في نهاية شهر تموز ـ يوليو ـ ١٩٢٤، وسأله عن جهوده من أجل تطوير ثقافته العسكرية، وتوسيع دائرة معارفه. فأجابه بأنه لا زال يقرأ كثيراً، ويحاول تحليل الأعمال

القتالية للحرب العالمية الأولى، وأنه أعد مواداً كثيرة للمحاضرات التي سيلقيها على ضباط الفوج في المرحلة التدريبية القادمة. وهنا قال له قائد الفرقة (غ. د. غاي):

«كل هذا جميل ويبعث السرور في النفس، ولكن هذا قليل في الوقت الحاضر. فالعمل العسكري لا يقف عند حدود، ويحتاج الرؤساء العسكريون إلى تعليم أشمل في مجال دراستهم للمسائل العسكرية وأظن أن عليك الالتحاق في الخريف بمدرسة الخيالة العليا في ـ لينينغراد ـ وهذا فيه فائدة كبيرة لنشاطك المقبل». وخرج جوكوف من المقابلة، والفرحة تكاد تطير به، بعد أن وعد قائد الفرقة بأن يبذل كل ما بوسعه حتى يكون أهلاً للثقة الممنوحة له.

إنصرف جوكوف للبحث والدراسة والاستعداد لامتحانات القبول التي أمكن له اجتيازها بسهولة، فتم تسجيله في المجموعة الأولى. وانتقل إلى لينينغراد، حيث أمضى بعض الوقت في زيارة المدينة والتعرف على معالمها، والتحق (بمدرسة الخيالة العليا).

كانت أعباء الدراسة كبيرة جداً، وتتطلب تحضيراً كبيراً بعد المحاضرات، غير أن حماسة الشباب وقدرتهم على العمل وبذل الجهد، قد استطاعت تذليل الصعوبات. وقد انحصرت الدروس في فصل الخريف والشتاء بصورة رئيسة في استيعاب نظريات العمل العسكري ومبادئه. وغالباً ما كانت تجري الدروس النظرية على صناديق الرمل، كما كان يتم حل التمارين والمسائل على الخرائط والمخططات. هذا إلى جانب ممارسة أعمال الفروسية على نطاق

واسع من ركوب وتدريب وسواها مما كان على قادة القطعات إتقانها إتقاناً تاماً. وكان الاهتمام مركزاً على إتقان الطعان والنزال، ولكن ذلك كان نشاطاً فردياً على حساب أوقات الفراغ. وخصص التدريب خلال فصل الصيف من سنة ١٩٢٥ للتدريب التكتيكي ـ الميداني ـ. وانتهت الدراسة بمسير سريع إلى نهر فولخوف، وذلك من أجل تحسين المهارة التطبيقية للقادة الفرسان.

لم يقنع جوكوف، الباحث عن المتاعب أبداً، بما بذله من جهد خلال دورة القيادة، وما احتمله من العناء والمعاناة، بل أراد أن يتوج ذلك كله بتجربة جديدة ومثيرة، فاتفق مع اثنين من رفاقه على العودة إلى (مينسك)[1] على ظهور الخيل، واجتياز المسافة التي تبلغ ٩٦٣ كيلومتراً بمدة سبعة أيام على طرق ترابية عبر فيتبسك ـ أورشا ـ بوريسوف.

تقدم جوكوف بطلب إلى القيادة للموافقة على (إذن بالمسير) ووافقت القيادة. غير أنه لم يكن بالمستطاع وقتها تنظيم نقاط مراقبة أو خدمة أو إطعام على الطريق، ومع ذلك لم يتراجع جوكوف ورفيقيه عن قرار السير. ولم تكن مثل هذه التجربة الرياضية قد عرفت من قبل لا في الاتحاد السوفييتي، ولا في البلدان الأخرى. وكان أمل جوكوف ورفيقيه كبيراً في أنه إذا ما تهيأت الظروف الملائمة بضرب رقم قياسي عالمي، فإنه بالمستطاع تنظيم مسيرات

---

(١) مينسك: **(MINSK)** عاصمة روسيا البيضاء، تقع على نهر سفيتسلوش **SVIS-LOTCH** وهي مركز تجاري وصناعي هام في الإتحاد السوفييتي.

مماثلة بالخيل ولكن بصورة جماعية.

وانطلق جوكوف ورفيقاه من لينينغراد في صباح يوم خريفي باكر. وتعرضوا خلال مسيرتهم لمشاق وصعوبات كثيرة، ولكنهم وصلوا في الوقت المناسب. وكم كانت دهشتهم كبيرة عندما وصلوا إلى مينسك، فوجدوا جموعاً كبيرة من المواطنين الذين احتشدوا لاستقبالهم بالهتاف وبالحماسة. وقدمت الدولة جوائز لجوكوف ورفيقيه مرفقة بثناء القيادة، وبإجازة قضاها جوكوف مع أهله.

عاد جوكوف من إجازته، فوجد بأن الفرقة تمر بمرحلة إعادة التنظيم، وأصبح فيها أربعة أفواج[1] من الخيالة بدلاً من الستة التي كانت من قبل. وتسلم قيادة الفوج الجديد ٣٩. وأصبح العمل بالنسبة له أكثر سهولة من قبل، بعد ما تزوده من المعرفة في دورة الخيالة العليا، وزادت ثقته بقدرته على العمل باستقلالية في مسائل التدريب القتالي وقيادة الفوج.

انتقلت الفرقة في صيف عام ١٩٢٦ إلى معسكر تدريبي، وخصص لجوكوف وفوجه، قطاع يتمتع بمناظر رائعة في منطقة (جدانوفيتشيا) على بعد عشرين كيلومتراً تقريباً من مينسك.

---

(١) كانت الأفواج في الفرقة من قبل تضم ٤ كوكبات - سرايا - بينما أصبحت الأفواج الجديدة مكونة من ٦ كوكبات، تشكل كل كوكبتين منها كتيبة خيالة. وبالإضافة إلى ذلك فقد بات الفوج يضم كوكبة رشاشات من ١٦ رشاشاً، وبطارية مدفعية، وفصيلة إشارة، وفصيلة مهندسين (نقابين) وفصيلة كيميائية، ومدرسة الفوج الخاصة بإعداد المستويات القيادية الصغرى.

سار التدريب القتالي في المعسكر على قدم وساق، وتركز الاهتمام بشكل خاص على التدريب التعبوي ـ التكتيكي ـ الميداني للوحدات، وعلى تدريب القادة وهيئات الأركان والقطعات بكاملها. ولما كان جوكوف يهوى التكتيك أكثر من أية مادة أخرى، فقد كان من الطبيعي أن يحظى التدريب التكتيكي بقسط أكبر من العناية والرعاية. وكانت حكمة جوكوف التي يرددها:

«الجيش هو أداة الحرب، نظم وشكل بهدف الصراع المسلح ضد أعداء الوطن ، ويجب أن يبقى مستعداً أبداً من الناحية التكتيكية لمثل هذا الصراع. أما إذا لم يكن كذلك، فإنه سيضطر إلى استكمال تدريبه أثناء القتال، بعد أن يتعرض للخسائر الكبيرة».

ولهذا قام جوكوف بتنفيذ عدد كبير من البيانات العملية والدروس النموذجية في أصول تعليم الاستطلاع، وتنظيم المعركة، وتنسيق التعاون، مع استخدام الوسائط التقنيه في الصراع المسلح.

ولما كانت التمارين المشتركة (المناورات) هي الاختبار النهائي لتدريب القطعة التكتيكي، فقد أصبح التقليد المتبع منذ سنة ١٩٢٥ ـ في منطقة روسيا البيضاء العسكرية ـ هو إجراء المناورات سنوياً بعد انتهاء المعسكر التدريبي، وقد اشتركت الفرقة السابعة للخيالة في هذه المناورات، وكان فوج جوكوف باستمرار يحتل المرتبة المتفوقة في كثير من التمارين.

كان جوكوف، مثله كمثل قدامى الجنود، يعرف أن المحارب

المجرّب، القوي البنية، هو وحده القادر على احتمال كره القتال، وأعباء المعركة، وأن نجاح القطعة بمجموعها رهن بمستوى تدريب كل فرد فيها. ففي الحرب، تقتضي الظروف القيام بمسيرات طويلة سريعة، وتنقلات صعبة، والفتح من الحركة بتراتيب القتال لمهاجمة العدو باندفاع، ومطاردته بعد المعركة حتى تدميره تدميراً كاملاً في أي وقت، سواء في الليل أو في النهار، ومهما كان الطقس، وعلى الطرق أو خارجها. وإذا لم تكن نهاية الموقعة ناجحة، فمن المهم التملص من المعركة، والقيام بإعادة التنظيم من جديد، ولا يمكن أن تقوم بذلك كله إلا قطعة مدربة ومؤهلة جسدياً، وإلا فإنها ستتعرض للإنهاك بسرعة وستتأخر دائماً في كل مكان، وستعاني من الخسائر الكبيرة، بل ربما راحت ضحية نقص استعدادها وتأهبها. ولهذا فلا غرابة إن وجّه جوكوف جل اهتمامه للتربية البدنية.

كان قادة الجيش، وكبار المسؤولين، يقومون بزيارات تفقدية ما بين فترة وأخرى لقطعات الجيش وقواته، وقد حظي فوج جوكوف بعدد من هذه الزيارات التي تم فيها اختبار درجة الاستعداد القتالي للفوج، وتجهيزاته، وتسلحه، وما هو مخزون فيه من الذخائر الاحتياطية والتموين، مع تفقد مهاجع الجنود وإطعامهم، وقد أفاد جوكوف من هذه الزيارات لمعالجة نقاط الضعف التي كانت تظهر له ولدعم النجاحات.

أرسل جوكوف إلى موسكو في نهاية سنة ١٩٢٩، لاتباع دورة خاصة بإعداد عناصر القيادة العليا. وتم إنزال هذه العناصر في فندق نادي الضباط المركزي للجيش. وكانت الدروس

والمحاضرات تلقى في بناء مفوضية الشعب لشؤون الدفاع (وزارة الدفاع) في شارع فرونزة، حيث نظمت قاعات وغرف للدراسة. وقد جرت الدروس في دورات القيادة العليا على مستوى رفيع للغاية، حيث بذل جهد كبير لمعالجة النظريات العسكرية. وظهرت روح الإبداع، إذ قام الطلاب بمعالجة الكثير من أهم المواضيع التكتيكية وإدارة الأعمال القتالية على مستوى العمليات، مع الاطلاع على نماذج الأسلحة الحديثة والأعتدة القتالية المطورة.

صدر الأمر بعدئذ بتعيين جوكوف قائداً للواء الخيالة الثاني من الفرقة السابعة (سامارا) وذلك في شهر أيار ـ مايو ـ ١٩٣٠.

لقد تولى جوكوف قيادة الفوج ٣٩ لمدة طويلة، وكانت رابطة (أخوة القطعة) بينه وبين أفراد هذا الفوج قد جعلته ـ في نظره على الأقل ـ أفضل تدريباً في شؤون القتال، وأكثر تنظيماً. وها هو الآن وقد أصبح قائداً للواء يضم فوجه إلى جانب الفوج ٤٠، فبات لزاماً عليه أن يتخلى عن جعل الفوج ٣٩ نموذجاً يجب الاقتداء به، والسير على نهجه، مع إعطاء الفوج ٤٠ مزيداً من الاهتمام والعناية. فحاول أن يكشف ما هو جيد لدى هذا الفوج، وتعرض حتى للتفاصيل الصغيرة ليجعل منها مثالاً لبقية القطعات، ونظم الكثير من الدروس والبيانات العملية المختلفة للفوجين معاً، في مواضيع التدريب التعبوي ـ التكتيكي ـ وتدريب الرمي والفروسية. وسرعان ما أعطت هذه الجهود ثمارها اليانعة، وأصبح اللواء الثاني هو لواء الطليعة في فرقة الخيالة السابعة (سمارا)، مما

أشاع الغبطة في قلوب الجميع.

كانت قيادة اللواء تجربة جديدة ومثيرة في حياة جوكوف العسكرية، أفاد منها كثيراً، حيث أتيحت له فرصة تطبيق الثروة النظرية التي يمتلكها، بالإضافة إلى حصوله على معلومات جديدة، وتدريب عملياتي ـ تكتيكي عبر اشتراكه بمناورات المنطقة ومشاريع الفرق والفيالق، وتوافر له إدراك عميق للدور القيادي والتنظيمي في إدارة التشكيلات المقاتلة. وبدهي أن جوكوف لم يحصل على ذلك بسهولة، فقد اقترف أثناء عمله كثيراً من الأخطاء، ولكن من هو الذي لا يخطىء؟ أليس هو الذي يعمل بما يشار عليه من قيادته، بدون أن يبدي في عمله أية بداهة مبدعة؟ إن من يعمل يخطىء ومن لا يعمل لا يخطىء، والمهم في الأمر هو سرعة ملاحظة الأخطاء ومعالجتها وتلافي نتائجها، وهذا ما كان يفعله جوكوف باستمرار. وكثيراً ما تعرض جوكوف للانتقاد واللوم بسبب صراحته المطلقة، في حين كان جوكوف يرى أن الصراحة التامة هي صفة أساسية ملازمة للقائد. ولقد كان جوكوف ـ أيضاً ـ صارماً حتى التطرف، لا يصبر على مخالفات مرؤوسيه، ولا يحتمل إهمالهم أو تقصيرهم، وكثيراً ما انتابه هياج الغضب لدى إطلاعه على سلوك مميز بسوء الخلق، أو ضعف الضمير في العمل، في حين كان القادة الآخرون لا يتوقفون عند مثل هذه الانحرافات.

٥ ـ العمل القيادي

مضى على جوكوف في قيادة اللواء الثاني أكثر من عامين، عندما

علم أن القيادة تفكر بنقله إلى منصب (معاون مفتش الخيالة في الجيش). وكان منصب التفتيش يعتبر يومها من المناصب الرفيعة، غير أن جوكوف لم يشعر بالسعادة لسماع مثل هذا النبأ. لقد اعتاد الحياة في الفرقة، وخدم فيها طويلاً حتى بات يشعر بأنها جزء من وجوده، ويفخر بأنه عضو في هذه الأسرة المتحابة (أسرة فرقة الخيالة السابعة ـ سامارا). غير أن الأمر قد تقرر، ولم يعد له خيار آخر، وليس عليه إلا أن يستعد للسفر إلى موسكو. ولم يكن متاعه بالكثير: معطفه، وبعض الملابس الداخلية، بالإضافة إلى ثياب زوجته وابنته (إيرا) والتي ضمتها جميعاً حقيبة سفر واحدة. وبينما كان جوكوف يستعد للسفر، اتصل به ـ هاتفياً ـ قائد الفرقة، وقال له: «تلقيت أمراً من موسكو بتعيينك وفي وظيفتك الجديدة، فكم تحتاج من الوقت لجمع حوائجك؟».

وأجابه جوكوف: «ساعتين لا أكثر».

فقال له قائد الفرقة معقباً: «لا، لن ندعك تغادرنا هكذا، فأنت عضو في الفرقة السابعة، وسنودعك حسب الأصول، وهذه أيضاً رغبة قيادة اللواء الثاني».

أقيم حفل غذاء بعد بضعة أيام ضم جميع قادة الفرقة وقادة اللواء الثاني. وألقيت في الحفل كلمات مؤثرة، صادرة عن قلوب نقية. وغادر جوكوف المعسكر وهو شديد التأثر. وكان لا بد له من التوقف عند بيته في مدينة (مينسك)، لقد عاش هنا ثماني سنوات هي أحلى سنوات العمر، وها هو الآن يغادرها هو وزوجته وابنته ـ

ذات العامين - وركب القطار، ووصل في مساء ذلك اليوم، مع نهاية سنة ١٩٣٠، إلى موسكو.

توجه جوكوف في اليوم التالي إلى مقر عمله الجديد، وتقدم إلى رئيسه (س. م. بوديوني) ثم بدأ بممارسة واجباته، وقد عهد إليه بمهمة الاضطلاع بمسائل التدريب القتالي للخيالة، نظراً لخبرته في هذا المضمار. وكانت مفتشية الخيالة تعمل بتعاون وثيق مع إدارة التدريب القتالي في الجيش. فكان من أعمال التفتيش وضع برامج تدريب القيادة وهيئة الأركان، وإعداد المشاريع الميدانية، وإجراء الدورات والدروس المتنوعة لتبادل الخبرات الجيدة في التدريب القتالي للقوات. ولهذا فقد انصرف جوكوف لوضع الأنظمة والمراجع الضرورية لصنوف القوات ومصالحها المختلفة. وكان مضمون الأنظمة في الجيش، موضع اهتمام كبير وجدي، فاشتملت على أحدث منجزات العلم العسكري، المستندة على المستوى العصري للعتاد. وكانت هذه في أساسها أنظمة مؤقتة للخدمة الداخلية، وخدمة الموقع والانضباط والرمي ونظام خدمة الحرس وأنظمة قتال الخيالة والمدفعية والقوى المدرعة. **وكان الخط الأساسي لهذه الأنظمة يتركز على عمل (الفرقة والفيلق) والذي يعتبر أن الحرب القادمة ستكون حرب أسلحة مشتركة يعتمد النجاح فيها على تعاون جميع صنوف القوات. وقد تضمن النظام كيفية استخدام الدبابات، وتنظيم الدفاع المضاد للدبابات والدفاع الجوي والدفاع ضد الأسلحة الكيميائية واستخدام الطيران والوحدات الهندسية. كما وضع جوكوف مجموعة من الأنظمة**

الجديدة، منها النظام المؤقت الخاص بتمويه القوات، ونظام قتال القوى الجوية، ونظام استخدام الهاتف واللاسلكي (البرق) ونظام زرع الألغام تحت الماء، وكسحها وغير ذلك.

استطاع جوكوف بالتعاون مع رفاقه في مفتشية الخيالة، إنجاز أعمال ضخمة شملت إعادة تنظيم قطعات الخيالة وتشكيلاتها وتسليحها[1] وأساليب خوضها للقتال. وبذلك حصلت الخيالة في تسليحها على وسائط فنية ونارية، أتاحت إدخال تبديلات كبيرة في تنظيمها، وأساليب خوضها للمعركة، وأضحت الآن قادرة على شق الطريق أمامها بنيران وسائطها الخاصة وضربات دباباتها من أجل سحق العدو. واستخلصت أنظمة القتال الجديدة، وبعض التوجيهات الكتابية، من القواعد الأساسية الخاصة بالعملية العميقة والمعركة العميقة. وكانت الأسس التي استندت إليها نظرية العملية الهجومية العميقة تلك المنجزات التي وصلها فن الحرب. وقد تميزت هذه العملية على وجه الإجمال باستخدام الدبابات والطيران والمدفعية والإنزالات الجوية استخداماً كثيفاً، تقوم على

---

(١) تقرر في سنة ١٩٣١، أن يكون تشكيل الفرقة مؤلفاً من أربعة أفواج خيالة وفوج آلي ـ ميكانيكي ـ وفوج مدفعية. وأن تتألف أفواج الخيالة من أربع كوكبات ـ سرايا ـ تسليحهم السيوف، وكوكبة رشاشات وبطارية مدفعية وفصائل مدفعية مضادة للطائرات، وإشارة ومهندسين ـ نقابين ـ وكيمياء، ووحدات إدارية مناسبة. وأن يضم تشكيل كل فوج من أفواج مدفعية الفرقة كتيبة مدفعية قذافة (هاوتزر) من عيار ١٢٢ مم، وكتيبة مدافع ٧٦ مم، وتجهيز الفوج الآلي ـ الميكانيكي بدبابات من طراز (ب. ت ـ ٥).

خوض أعمال القتال بجيوش حديثة مجهزة فنياً. وينحصر جوهر العملية العميقة في فصم جبهة العدو بضربة واحدة على عمقه التكتيكي كله ـ كمهمة أولى ـ ثم زج القوات الميكانيكية على الفور في الخرق، لتقوم بالتعاون مع الطيران بالهجوم على عمق دفاع العدو كله ـ على مستوى العمليات ـ حتى تدمير تجميعه الضارب كله أيضاً ـ كمهمة ثانية، أو واجب ثان ـ.

ولقد روعي في ذلك كله، أن الحرب القادمة ستكون على وجه العموم حرب جيوش تعد بالملايين على مساحات كبيرة من الأرض. أما نجاح العملية العميقة فيؤمنه الطيران والمدفعية بالتأثير على عمق دفاع العدو بأسره، مع الأعمال الحاسمة التي تقوم بها قوات على جوانب العدو ومؤخراته لتطويقه وتدميره.

مضت سنتان تقريباً على جوكوف في عمله، عندما استدعاه مفتش الخيالة (بوديوني) وأعلمه أنه رشحه لاستلام قيادة (فرقة الخيالة الرابعة ـ المسماة ك . ي . فوروشيلوف) وسأله عما إذا كان العمل في روسيا البيضاء يلائمه، فأجاب جوكوف، بأن تعيينه في منصب قائد لمثل هذه الفرقة الشهيرة هو شرف خاص يعتز به، وأنه يعرف روسيا البيضاء معرفة جيدة من الناحية العسكرية لأنه سبق له أن خدم فيها لمدة عشر سنوات.

ومضت بضعة أيام على هذا الحديث، عندما تقدم إلى (بوديوني) مودعاً وقد تسلم أمر تعيينه. وقال له (بوديوني) وهو يودعه:

«لقد كانت فرقة الخيالة الرابعة دائماً من أفضل الفرق في صفوف الخيالة. ويجب أن تظل كذلك».

وجاء يوم الرحيل (من سنة ١٩٣٣) وركب جوكوف وزوجته وابنته القطار عائدين مرة أخرى إلى تلك المناطق التي عرفوها، وعاشوا بها، في روسيا البيضاء.

لقد أحب جوكوف هذا الإقليم، بطبيعته الغنية، وغاباته الساحرة وبحيراته الجميلة، وأنهاره المتدفقة. ولقد عرف الإقليم من تخومه الشمالية حتى تخومه الجنوبية خلال رحلاته للصيد البري أو لاصطياد السمك، وها هي يد القدر تعيده من جديد إلى حيث يحب.

ما إن وصل جوكوف إلى مقر فرقته (في سلوتسك) حتى انطلق للتعرف على هيئة أركان الفرقة ثم قام بجولة على وحدات الفرقة بهدف التعرف على درجة استعدادها القتالي، ومعرفة مشكلاتها، وبحث أوضاعها وحالتها المعنوية. وعندما انتهى جوكوف من جولته أدرك السبب الذي حمل القيادة على اختياره هو بالذات لقيادة هذه الفرقة بالذات أيضاً.

لقد كانت (فرقة الخيالة الرابعة ـ سمارا ـ) مفخرة الجيش الروسي. وحملت اسم مفوض الشعب للدفاع (وزير الدفاع) فوروشيلوف، كما تولى قيادتها (بوديوني). وكان هذان القائدان يفخران بهذه الفرقة التي كانت نواة جيش الفرسان الأول الأسطوري. ثم بلغهما تدني مستوى الفرقة بعد أن انتقلت من

منطقة لينينغراد إلى (سلوتسك)، وها هو جوكوف يلمس بنفسه ما وصلت إليه الفرقة من السوء. فقد أهمل التدريب إهمالاً كاد يكون تاماً بسبب انصراف وحدات الفرقة لتأمين متطلباتها الحياتية من بناء للمساكن وتنظيم للثكنات وتشييد للمهاجع وتأمين للمطاعم والندوات، وإقامة الإسطبلات الضرورية للخيول، إلخ . . . وتبع ذلك بالضرورة تدهور في الروح المعنوية، وجهل بالوسائط القتالية الجديدة، وكان هذا الوضع أكثر من أن يحتمل. ولكي يظهر جوكوف مدى الضعف الذي وصلته وحدات الفرقة، أصدر أمره باستنفار (الفوج الرابع ميكانيكي)[١] فكشف ذلك عن أخطاء وعيوب كثيرة، لا سيما في قيادة المركبات على أرض غير معروفة وفي الرمي.

جمع جوكوف كافة القادة في الفرقة، وناقشهم في الموقف

---

(١) جدير بالذكر أن الإتحاد السوفييتي كان قد شكل منذ سنة ١٩٢٩ (أول فوج ميكانيكي للتجربة) واشترك هذا الفوج في مشاريع جميع الجيوش في منطقة روسيا البيضاء. وكان نجاحه حافزاً لتحويل هذا الفوج إلى لواء ميكانيكي (سنة ١٩٣٠). ثم شكل أول فيلق ميكانيكي في العالم بالاعتماد على هذا اللواء (سنة ١٩٣٢) وكان هذا الفيلق يضم لواءين ميكانيكيين ولواء مشاة ورشاشات وكتيبة مدفعية مضادة للطائرات مستقلة. وكان الفيلق يملك ما يزيد على ٥٠٠ دبابة و٢٠٠ سيارة. وتبع ذلك تشكيل أربع فيالق ميكانيكية وستة ألوية ميكانيكية مستقلة والعدد ذاته من أفواج الدبابات و١٥ فوجاً ميكانيكياً في فرق الخيالة، وما يزيد على ثمانين كتيبة وسرية دبابات في فرق المشاة. وقد أتاح إنشاء هذه التشكيلات الميكانيكية الأولى وتجربتها عملياً (منذ سنة ١٩٣٦) فرصة إقامة قاعدة جديدة لتطوير نظرية استخدام القوات الميكانيكية فيما بعد لدى الإتحاد السوفييتي. (مذكرات وآراء ـ جوكوف ـ ص ١٢٩).

المتدهور، وحدد النهج الصحيح للخروج من المأزق. فوجه الاهتمام في مجال التدريب القتالي بصورة رئيسة نحو قواعد التدريب للمستويات القيادية كافة. وأخذ على عاتقه إجراء سلسلة من البيانات العملية الخاصة بالتدريب التعبوي ـ التكتيكي ـ. وكلف الفوج ٢١ بإجراء بيانات عملية لتدريب الرمي، كما كلف الفوج ١٩ بتنفيذ بيانات مماثلة لتدريب الخيالة، بالإضافة إلى بيانات عن النظام المنضم والتربية البدنية. وكلف الفوج ٢٣ بإعداد دروس نموذجية، منهجية، في أصول تدريب القادة الصغار وإعدادهم. وكلف أيضاً فوج الخيالة والفوج الميكانيكي الرابع بإجراء دروس التعاون بين المدفعية والقطعات المدرعة والخيالة في ظروف المعركة الهجومية. وكان على جوكوف القيام بأعمال تنظيمية ومنهجية كبيرة جداً، لأن النتائج الإيجابية لا يمكن توقعها إلا بعد أن تنفذ البيانات على أرفع المستويات، وتترك انطباعاً عميقاً وتأثيراً قوياً في نفوس المشاركين فيها والمشاهدين لها. ووجه جوكوف جهده إلى هوايته المحببة وهي التدريب التعبوي ـ التكتيكي من أجل رفع الكفاءة الفردية لقادة المستويات المتوسطة والعالية، إذ كان مقتنعاً بعد التجربة، وبعد التطبيق العملي الذي مارسه سنوات طويلة، **بأن القادة المثقفين تعبوياً ـ تكتيكياً ـ هم وحدهم القادرين على إعداد قطعة مقاتلة جيدة التدريب في زمن السلم وعلى تحقيق أعمال ناجحة في زمن الحرب بأقل الضحايا.**

لقد اكتسبت قوات الخيالة قدرة كبيرة للاضطلاع بالأعمال القتالية، الهجومية منها والدفاعية، وذلك بفضل ما عززت به من

الوسائط المدرعة والمدفعية القذافة (الهاوتزر) والرشاشات إلخ . . بالإضافة إلى إمكان دعمها بالطيران. غير أن هذا التعزيز خلق مشكلة في الوقت ذاته ، وهي مشكلة فهم العتاد الجديد، والقدرة على استخدامه بشكل صحيح . وزاد من خطورة الموقف النقص في المستوى الثقافي، لا في وسط الجنود وحدهم وإنما في وسط الضباط أيضاً. ووقعت نتيجة لذلك أخطاء كثيرة، وارتكبت أخطاء فنية فادحة، وكان لا بد من إعادة التنظيم للقوات القديمة، ومراعاة الاختصاص في التوزيع الجديد، مع المحافظة على درجة الاستعداد القتالي . ورافق ذلك إثارة اهتمام العناصر جميعها بالوسائط القتالية الجديدة ، وشن دعاية واسعة للتوجه نحو معرفة التقنيات العسكرية ، إلى جانب التوسع الكبير في الدورات التدريبية وإلقاء المحاضرات وإقامة المباريات والمسابقات، وباتت اللوحات الفنية ووسائط التدريب تحتل مكانتها على الجدران وفي كل مكان .

وبدأت الجهود في إعطاء ثمارها بسرعة ، عبر المشاريع المشتركة والتمارين الثنائية للقوات (مناورات ذات جانبين للعدو والصديق) . وتركز اهتمام جوكوف خلال هذه الفترة، بشكل خاص، على تدريب القطعات وقادتها لاكتساب المهارة الضرورية في تحديد الهدف والمهمة في الظروف المعقدة. فكان يحيط فكرة كل مشروع بالكتمان الشديد، ثم يستنفر الفوج ـ أو الأفواج ـ المكلفة بالتنفيذ ويحدد لها منطقة حشدها. وتسلم قيادة الفوج في هذه المنطقة الموقف التعبوي ـ التكتيكي ـ وأمر القتال الذي ينص على القيام بمسير شاق عبر المناطق الصعبة، التي تغطيها المستنقعات أو

الغابات، وغالباً ما يتم اختيار المحور عبر منطقة تحتاج إلى أعمال كبيرة لتنظيفه وشق الطرق فيه، وبناء الجسور والعبارات من الوسائط المرتجلة. ولم تكن الوحدات تعطى في مثل هذه الحالات أية وسائط هندسية، والهدف من ذلك هو تعليم القيادات على كافة المستويات البحث عن المخرج للمأزق الحرج الذي تواجهه بإمكاناتها الخاصة وبالوسائط المتوافرة لها.

وكانت هذه المشاريع منهكة جداً من الناحية الجسدية، وكثيراً ما كان ينهار الجنود من الإعياء والتعب، حيث يعيشون أياماً متتالية بدون نوم أو طعام طبيعي. ومقابل ذلك، فإنه من الصعب وصف تلك الغبطة التي كانت تملأ مشاعر الجنود وقادتهم لدى تمكنهم من تنفيذ المهمة الصعبة، وبلوغ الهدف الموضوع لها، فإذا ما وجدوا مرة أخرى في موقف صعب، فإنه لن يتطرق إليهم الشك أبداً بإمكان تحقيق ما هو مطلوب منهم. وبالإضافة إلى ذلك فقد كان القادة وضباط هيئة الأركان والأفراد يكتسبون خبرات عملية للخروج بنجاح من أي مأزق.

وإذا كان جوكوف قد استطاع تقديم جهده وخبراته لمرؤوسيه، فإنه قد أفاد وفي الوقت ذاته من قيادته لفرقة الخيالة الرابعة ـ سمارا ـ **(التي باتت تحمل الآن اسم فرقة الدون الرابعة للخيالة).** فقد أتيحت له فرصة الاشتراك في مناورات المنطقة مرات عديدة، واكتسب خبرة ثمينة جداً على المستوى التكتيكي وعلى مستوى العمليات. ونظرت القيادة العليا بتقدير كبير للجهد الذي بذله جوكوف وفرقته، فمنح جوكوف أرفع وسام (وسام لينين) كما منح

علم فرقته هذا الوسام. ونال عدد كبير من ضباط الفرقة وأفرادها الأوسمة التي يستحقونها (سنة ١٩٣٥).

واستمرت بعد ذلك التمارين (المناورات) وكان من أبـرزها في سنة ١٩٣٦ مناورة عبور (نهر بيريزنيا) بـالدبـابات. وقـد أشرف مفـوض الشعب للدفاع فـوروشيلوف (وزير الـدفـاع) عـلى هـذه المناورة. وقد استهلها فوروشيلوف بالحديث مـع قادة الفـرق عن ميـزات العتاد الجـديد، فسـأل أحدهم: «مـا رأيك أيهـا الصديق القديم بالدبابات؟ هل ستخذلنا؟ أليس الجواد أولى بالثقة؟».

وأجاب قائد الفرقة: «كلا، إننا لن ننسى حالياً الجواد والسيف والرمح، وأعتقد أنه لم يحن بعد أوان دفن الخيالة، فما زال بإمكانها تقديم خدمات للوطن، ولكننا نولي الدبابات اهتماماً كبيراً، فهي صنف حركي جديد من صنوف القوات».

وعاد فوروشيلوف فطرح السؤال ذاته على قائد آخر، فأجابـه: «كـلا، لن ننسى حـاليـاً الجـواد، وإنني سـأكـون قـائـد فـوج آلي - ميكـانيكي - سيء ولا أصلح لشيء، إذا كنت أشـك في مستقبـل العتاد المدرع. وفي رأيي أنه يجب الإقدام بجرأة على تشكيل قوات ميكانيكية، لا سيما وأن تشكيلات الدبابات لا زالت قليلة عندنا».

لقد عكس هذا النقاش، ما كان ينتاب القادة من الشك، بشأن السـلاح واستخدام خصـائصه وميـزاته، ولقـد جاءت التجـارب المتتالية، وخاصة مناورة عبور نهر بيريزنيـا (النهر الـذي أهلك فيه نابليون عام ١٨١٢ بقية جيشـه المنسحب من روسيا) لتؤكـد أهمية

هذا السلاح المدرع. وقد كان الشك أمراً طبيعياً، وهو ظاهرة ملازمة لاستقبال كل جديد، غير أن عقلية جوكوف المتفتحة، واستعداده لاستقبال كل جديد، وإخضاعه للتجربة، إلى أن تتبين خصائصه وميزاته، قد أسهم إلى حد كبير في تطوير القدرات الحركية للقوات، والإفادة من التقنيات الحديثة حتى أبعد الحدود. فلا غرابة إن حظي جوكوف باحترام قادته ومرؤوسيه على حد سواء، رغم كل ما كان يتصف به من القسوة (أو حتى الغلظة أحياناً) في تعامله مع الآخرين.

بقي جوكوف قائداً للفرقة أكثر من أربع سنوات، وسيطرت عليه طوال هذه الفترة فكرة واحدة هي أن يجعل من الفرقة التي يتولى قيادتها أفضل الفرق في الجيش، والأولى بينها، وقد بذل لبلوغ هذه الفكرة، وتحقيقها، جهوداً مضنية إلى أن تم له ما أراد.

وبدأت سنة ١٩٣٧ بداية طيبة بالنسبة لجوكوف، فقد صدر الأمر بتعيينه قائداً للفيلق الثالث خيالة. ولكن هذه البداية الطيبة لم تكن طيبة بالنسبة للجيش، فقد وصلت حملة الإرهاب التي قادها ستالين حتى ذروة عنفها وقسوتها، وامتدت إلى الجيش فاقتطفت خيرة كفاءاته القيادية، ووقف جوكوف مستنكراً. وعبر عن موقفه بقوله: «إنه أمر مضاد للطبيعة، ولا يتفق إطلاقاً مع جوهر النظام القائم، ولا مع الموقف الراهن في البلاد. لقد تم اعتقال عسكريين عرفوا بكفاءتهم وإخلاصهم، وهو أمر لا يمكن إنكار تأثيره في تطوير قواتنا المسلحة».

ومضت فترة سبعة أشهر، في قيادة جوكوف للفيلق الثالث، عندما عرضت عليه قيادة (**الفيلق القوزاقي السادس**). ووافق جوكوف على العرض دون تردد. فقد كان الفيلق السادس يتفوق على الفيلق الثالث من حيث مستوى تدريبه ومن حيث حالته العامة، والأهم من ذلك وجود (**فرقة الدون القوزاقية الرابعة**) في قوامه وهي الفرقة التي تولى جوكوف قيادتها مدة أربع سنوات كاملة، ومن الطبيعي أن تشد هذه الفرقة جوكوف بروابط عاطفية خاصة.

لقد كان على جوكوف في قيادته للفيلق السادس، أن يضطلع بعمل كبير على مستوى العمليات، وذلك بمعالجة مسألة استخدام الخيالة في القتال ضمن إطار جيش الخيالة الميكانيكي. وكانت هذه المسألة من المسائل المعقدة جداً في تلك الفترة، والتي كانت تحتاج إلى حلٍ جذري. وكان من رأي جوكوف بأن جيش الخيالة الميكانيكي المكون من ٣ ـ ٤ فرق خيالة و٢ ـ ٣ ألوية دبابات وفرقة مشاة محمولة، يستطيع أن يضطلع بتنفيذ أضخم واجبات العمليات، ضمن تنظيم الجبهة، وبالتعاون مع الطيران القاذف والمقاتل، وبعد ذلك مع قطعات الإنزال الجوي (المظليين)، وهو أمر يساعد على تحقيق الفكرة الاستراتيجية بنجاح. ورسخ في ذهن جوكوف: «بأن المستقبل سيكون للدبابات والتشكيلات الميكانيكية بالدرجة الأولى. ولهذا فقد بات لزاماً دراسة مسائل التعاون مع القوات المدرعة بصورة تفصيلية، وكذلك بالنسبة لتنظيم الدفاع

المضـاد للدبابـات، سواء في المعـركـة التكتيكيـة أو عـلى مستـوى العمليات».

مضى جوكوف لقراءة مصادر تاريخ الحروب الماضية، والمؤلفات الكـلاسيكية عن فن الحـرب، والنشـرات العسكـريـة المختلفـة. وحـاول خلال ذلـك الوصـول إلى استنتاجـات محددة عن طبيعـة الحرب العصرية، والعمليات، والمواقع الحديثة. وقد أفاد كثيراً من اضـطلاعـه شخصيـاً بـوضـع الـواجبـات التكتيكيـة وواجبـات العمليات، خلال ممارسته للقيادة وتنفيذه لمشاريع القيـادة وهيئات الأركان ومشاريع القوات وغيـرها عـلى مستوى الفـرقة، ثم عـلى مستوى الفيلق.

كان جوكوف يشعر بعد كل مشروع من هذه المشاريع باكتساب معرفة وخبرة جديـدتين، وكـان هذا ضـرورياً جـداً، لا من أجل تقدمه الشخصي فحسب، بل من أجل تطوير كفاءة قادة القـوات التي أنيط به عبء قيادتها. وكان التقليد السائـد هو أن يقـدم كل درس أو مشروع للقطعـة أو لهيئة الأركـان أو لمجموعـة الضباط، فائدة ملموسة للمشتركين بـه. ذلك أنـه إذا لم يحصل أحـد خلال الدرس على شيء ما جديد، ولم يستمد شيئاً من المعرفة المتوافرة في جعبة رئيسه الأقدم، فإن هذا الدرس هو مأخذ على ضعف ضمير القائد وتأكيد على عدم كفاءته. والمعروف في كثير من الجيـوش أن هناك عدداً قليلاً من القادة الذين لا تتوافر لهم من المعرفة بأكثر مما هو متوافر لمرؤوسيهم، ولم يكن جوكوف يرضى لنفسه أن يكون من هؤلاء. وبذلك سـار التدريب في سنـة ١٩٣٨ على أفضـل وجه،

وحصلت قطعات (الفيلق القوزاقي السادس) على نتائج جيدة في نهاية العام.

عرض على جوكوف منصب جديد في نهاية سنة ١٩٣٨، وهو منصب (نائب قوات منطقة روسيا البيضاء العسكرية). وكانت واجباته في زمن السلم تتلخص في الإشراف على التدريب القتالي لقطعات الخيالة في المنطقة، وألوية الدبابات المستقلة المعينة في خطة التنظيم والتعبئة للعمل المشترك مع الخيالة. أما في حالة الحرب فإن واجبه هو: قيادة مجموعة الخيالة الآلية ـ الميكانيكية ـ المؤلفة من ٤ ـ ٥ فرق خيالة و٣ ـ ٤ ألوية دبابات مستقلة وقطعات تعزيز أخرى. ولم يكن جوكوف يرغب في ترك فيلقه بعد أن تعود على العمل فيه، غير أن الطموح لقيادة جحفل كبير في العمليات كان حافزاً لا يقاوم، فوافق على التعيين.

٦ ـ تجربة الحرب في (خالخين غول)

ودع جوكوف قادة الفرق، وقطعات الفيلق القوزاقي السادس، وسافر إلى (سمولنسك)[1] حيث كان مقر هيئة أركان منطقة روسيا البيضاء العسكرية. وما أن وصل إلى عمله الجديد، حتى شرع على الفور بوضع مشروع لتدريب القادة (لعبة حرب) اشترك فيه قادة تشكيلات الخيالة وبعض قادة تشكيلات الدبابات في المنطقة،

---

(١) سمولنسك: **(SMOLENSK)** مدينة في الاتحاد السوفييتي (روسيا) تقع على نهر الدنيبر: **(DNIEPER)**.

ورؤساء هيئات الأركان وضباط العمليات. وما كاد هذا المشروع يصل حتى نهايته (**في الأول من حزيران ـ يونيو ـ ١٩٣٩**) حتى تلقى جوكوف إعلاماً من القيادة في موسكو، للذهاب فوراً من أجل مقابلة مفوض الشعب للدفاع (وزير الدفاع).

وسافر جوكوف في صباح اليوم التالي، وتوجه إلى مقر القيادة فور وصوله إلى موسكو، حيث قابل فوروشيلوف، الذي قابله بحرارة، ثم قال له: «لقد هاجمت القوات اليابانية فجأة حدود الدولة الصديقة منغوليا[1] التي عقدت مع الحكومة السوفييتية معاهدة ١٢ آذار ـ مارس ـ ١٩٣٩، وهذه المعاهدة تلزمنا بحمايتها من جميع الاعتداءات الخارجية، وها هي خارطة منطقة الاعتداء، مع الموقف يوم ٣٠ أيار ـ مايو ـ». واقترب جوكوف من الخارطة، فيما

---

(١) منغوليا: **(MONGOLIE)** مسطح صحراوي مقفر في آسيا الوسطى، تحيط به كتل الجبل العالية مثل جبال هين نغان **HINH-NGAN** والتاي **ALTAI** وتيين شان **TIEN-CHAN** ونان شان **NAN-CHAN**. ويمكن التمييز من الناحية السياسية بين منغوليا الخارجية التي أصبحت معروفة باسم جمهورية منغوليا الشعبية، وهي دولة استقلت سنة ١٩٢١ وأكدت استقلالها باستفتاء سنة ١٩٤٥ واعترفت الصين بها سنة ١٩٤٦، مساحتها (١,٦٢١,٠٠٠) كيلومتر مربع وعاصمتها اولان ـ باتور: **(OULAN-BATOR)**. وهناك منغوليا الداخلية والتي تقع على الحدود الخارجية للصين، وقد شكلت بدورها دولة مستقلة سنة ١٩٤٧.
وقد كانت منغوليا بقسميها الخارجي والداخلي هي الموطن الذي ضم المغول (التتار) والذين أسسوا امبراطوريتهم العظمى أيام جنكيز خان (١٢٠٦ ـ ١٢٧ م). وتجددت قوتها في عهد تيمور الأعرج تيمورلنك (١٥٠٥ ـ ١٥٣٠ م) وبلغت ذروتها في عهد أوران زيب (١٦٥٩ ـ ١٧٠٧ م) ثم تمزقت وذهبت عظمتها.

تابع مفوض الشعب لشؤون الدفاع فوروشيلوف، شرح الموقف: «هنا ولمدة طويلة قام اليابانيون بغارات استفزازية خفيفة على قوات الحدود المنغولية، وهنا قامت القوات اليابانية بمهاجمة حدود منغوليا بقوات حامية خايلار، واعتدت على قطعات الحدود المنغولية التي تغطي قطاعات من أرض (شرق نهر خالخين ـ غول). وإني أعتقد أننا مقبلون على مغامرة عسكرية جديدة... وفي جميع الأحوال فإن هذا العمل لن ينتهي، وتستطيع أن تستقل الطائرة إلى هناك على الفور، وعليك أن تأخذ على عاتقك أي عمل بما في ذلك قيادة القوات إذا ما تطلب الأمر». وأجاب جوكوف: «**إني مستعد لركوب الطائرة والسفر فوراً**». فقال له فوروشيلوف: «حسناً، ستكون الطائرة جاهزة في المطار المركزي في الساعة ١٦,٠٠، إذهب وقابل نائب رئيس هيئة الأركان العامة، وتسلم منه الوثائق والمعلومات اللازمة، وسيكون في الطائرة تحت تصرفك مجموعة صغيرة من الضباط الأخصائيين. إلى اللقاء وأتمنى لك النجاح».

حلقت طائرة جوكوف بعد ذلك بقليل، واتجهت إلى منغوليا، وتوقفت للمرة الأخيرة قبل اجتيازها حدود البلاد في مطار (شيت)، حيث عرف جوكوف آخر تطورات الموقف، وعلم بقيام الطيران الياباني بالتوغل عميقاً في حدود جمهورية منغوليا الشعبية، وقيامها بمطاردة الآليات السوفييتية وقذفها من الجو. وأخيراً، وصل جوكوف إلى (تامتساك ـ بولاك) في صباح يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ حيث مقر هيئة أركان الفيلق السوفييتي الخاص ٥٧.

تبين لجوكوف لدى دراسته للموقف مع قائد الفيلق ٥٧ وهيئة

أركانه، أنهم لم يدرسوا الموقف دراسة كافية، وأنهم يجهلون كل شيء. وسأل جوكوف قائد الفيلق:

«**هل تعتقدون أنه بالمستطاع قيادة القوات على بعد مسافة ١٢٠ كيلومتراً في ميدان المعركة؟**».

وأجاب قائد الفيلق: «إننا هنا بعيدون حقاً، ولكن منطقة الاشتباكات غير مجهزة من وجهة العمليات، فليس هناك في الأمام ولو كيلومتر واحد من الخطوط السلكية البرقية، وليس هناك أيضاً مقر قيادة مجهز، ولا يوجد مهابط للطائرات».

وسأل جوكوف: «ما العمل إذن لتأمين ذلك كله؟».

وأجاب قائد الفيلق: «أفكر بإرسال أعتدة للبدء بتجهيز مقر للقيادة».

لم يكن الموقف يحتمل التمهل أو الانتظار، وتبين لجوكوف أنه ما من قائد من قادة الفيلق جشم نفسه عناء زيارة منطقة المعارك، فاقترح على قائد الفيلق التوجه فوراً إلى المواقع الأمامية لمعرفة الموقف بوضوح ودقة. لكن قائد الفيلق تشبث بمكتبه، وزعم أنه لا يستطيع مغادرته خشية أن تتصل القيادة به هاتفياً من موسكو. فمضى جوكوف، وقام باستطلاعه الشخصي فتعرف على الأرض في منطقة العمليات، ودرس الموقف مع قادة وحدات الفيلق ٥٧ ومع قادة الجيش المنغولي، فعرف طبيعة الأحداث الجارية وأبعادها، وقيّم قدرة القوات اليابانية بصورة صحيحة، وتبين له أن من أهم الأخطاء المرتكبة عدم تنظيم استطلاع دقيق لقوة العدو ومواقعه

وتحركاته. غير أن الجميع كانوا متفقين على أن هذا النزاع غير محدود، وأن اليابانيين لن يتوقفوا عن ممارسة أعمالهم العدوانية ضد أقطار الشرق الأقصى التابعة لروسيا، وضد منغوليا، ولا بد من توقع أعمال أكثر اتساعاً في وقت قريب.

عندما أعاد جوكوف تقدير الموقف بصورته الشاملة، تبين له أنه من المحال على قوات الفيلق ٥٧ والقوات المنغولية، القضاء على المغامرة العسكرية اليابانية، لا سيما إذا ما قامت القوات اليابانية بأعمال قتالية نشطة في مناطق أخرى.

ولما عاد جوكوف إلى مقر قيادة الفيلق، رفع تقريره إلى مفوض الشعب للدفاع، وعرض فيه بصورة مختصرة خطة عمل القوات السوفييتية والقوات المنغولية، والتي تلخصت بالتالي: «**التمسك بقوة برأس جسر على الشاطىء الشرقي لنهر خالخين ـ غول، وتحضير ضربة معاكسة في الوقت ذاته من العمق**».

وتلقى جوكوف في اليوم التالي الموافقة على اقتراحاته، وصدر في اليوم ذاته أمر بتنحية قائد الفيلق ٥٧ وتعيين جوكوف لقيادة هذا الفيلق، فأرسل جوكوف طلباً إلى مفوض الشعب للدفاع من أجل دعم القوات الجوية، وإرسال ثلاث فرق مشاة ولواء مدرع على الأقل، إلى منطقة الأعمال القتالية، وتعزيز المدفعية تعزيزاً كافياً، وجاء رد القيادة في اليوم التالي بالموافقة على الطلب، وبدأت قوات الدعم بالوصول تباعاً.

تركز الصراع خلال المرحلة التالية على الاشتباكات الجوية،

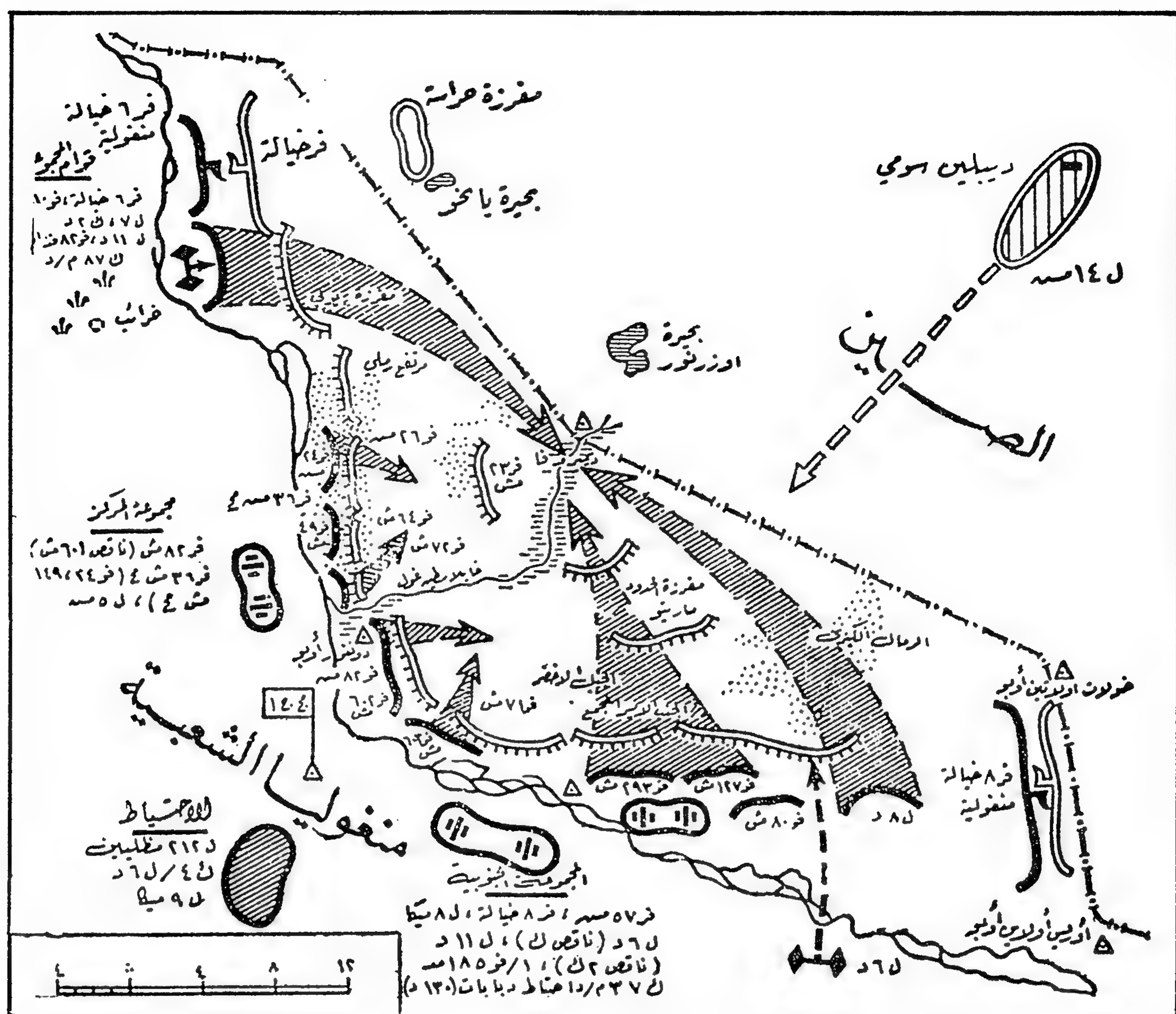
فوقع في يوم ٢٢ حزيران ـ يونيو ـ اشتباك عنيف بين الطائرات السوفييتية (٩٥) طائرة، والطائرات اليابانية (١٢٠) طائرة، ووقع اشتباك ثان يوم ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ حيث قام الطيران الياباني بتوجيه ضربة كثيفة للقوات البرية، لكنه تلقى رداً عنيفاً أرغمه على الانسحاب من المعركة بشكل فوضوي.

وجاء الاشتباك العنيف الثالث يوم ٢٦ حزيران ـ يونيو ـ حيث زجت القيادة اليابانية بستين طائرة، قادها أفضل الطيارين، واشتبكت مع الطائرات السوفييتية فوق بحيرة (بويهيرنور) في منطقة (منغول ريبا)، وكانت نتيجة الاشتباكات ما بين ٢٢ و٢٩ حزيران ـ يونيو ـ خسارة ٦٤ طائرة.

ثم استمرت المعارك الجوية حتى يوم ١ تموز ـ يوليو ـ، ولم يكن تصعيد نشاط الطيران الياباني إلا مقدمة هدفها تدمير الطيران السوفييتي، والحصول على التفوق الجوي، للقيام بعملية هجومية كبيرة، إذ كان اليابانيون قد عملوا طوال شهر حزيران ـ يونيو ـ على حشد قواتهم في منطقة (خالخين ـ غول)، وجهزوها للقيام بعملية أعطوها اسم (المرحلة الثانية من حادثة نامونخانسك) والتي كان هدفها:

١ ـ تطويق تجميع القوات الروسية والمنغولية وتدميرها بكاملها، والتمركز شرق نهر خالخين غول.

٢ ـ عبور نهر خالخين غول والوصول إلى الشاطىء الغربي للنهر لتدمير القوات الاحتياطية (السوفييتية).



قرار قائد مجموعة الجيوش أثناء تنفيذ العملية الهجومية في آب ١٩٣٩

٣ ـ احتلال رأس جسر إلى الغرب من نهر خالخين غول وتوسيعه لتطوير العمليات.

وقد أرسل اليابانيون قوات من منطقة (خايلار) لدعم جيشهم السادس من أجل تنفيذ هذه العملية.

كانت القيادة اليابانية قد حددت منتصف شهر تموز ـ يوليو ـ موعداً لإنهاء كافة الأعمال القتالية في منغوليا، وكانت على ثقة تامة بالنصر، حتى أنها دعت المراسلين الصحافيين الأجانب والملحقين

العسكريين وبينهم الملحقين العسكريين لألمانيا وإيطاليا، لمشاهدة الأعمال القتالية الناجحة.

كان كبير خبراء الجيش المنغولي (العقيد. إ . م . آفونين) يصعد جبل (باين تساغان) قبل بزوغ فجر يوم ٣ تموز ـ يوليو ـ لتفقد دفاع فرقة الفرسان المنغولية السادسة، عندما اكتشف أن القوات اليابانية هناك قد عبرت نهر خالخين ـ غول سراً، تحت جنح ظلمة الليل، وهاجمت وحدات فرقة الفرسان المنغولية السادسة، واحتلت قبيل الفجر جبل (باين تساغان) مستفيدة من تفوقها، وتمركزت دفاعياً في قطاع من الأرض، مما اضطر فرقة الفرسان المنغولية السادسة للانسحاب نحو الشمال الغربي من قطاع جبل باين ـ تساغان.

كان جوكوف قد أنهى إعادة تنظيم الفيلق الخامس (الذي بات يحمل اسم مجموعة الجيش الأول) فلما علم بالموقف الجديد قرر التحرك بسرعة، فأصدر أمره إلى اللواء المدرع الحادي عشر بالهجوم من الحركة على الاتجاه العام لجبل باين ـ تساغان، وأصدر في الوقت ذاته الأمر إلى لواء المشاة الرابع والعشرين والمدعم بكتيبة مدفعية للهجوم على اليابانيين بالتعاون مع اللواء المدرع الحادي عشر، وخصص اللواء السابع مشاة لتوجيه الضربة من الجنوب، واستدعى كتيبة المدرعات التابعة لفرقة المشاة المنغولية الثامنة للعمل في الاحتياط.

وصل جوكوف وقيادته إلى جبل باين تساغان صباح يوم ٣ تموز ـ يوليو ـ، وأصدر أمره إلى كتيبة المدفعية الثقيلة ـ من الفوج ١٨٥ ـ بإرسال مفرزة رصد واستطلاع إلى جبل باين تساغان، وفتح النار

على التجميع الياباني ، كما أصدر أمره في الوقت ذاته الى المدفعية المتربصة خلف نهر خالخين غول (والمكلفة بدعم اللواء التاسع الميكانيكي) بتوجيه نيرانها ضد القوات اليابانية في جبل باين تساغان، كما أقلع الطيران الروسي كله بعد إنذاره.

ووصلت المجموعات الأولى من الطيران السوفييتي القاذف والمقاتل في الساعة السابعة صباحاً، وأخذت في قصف القوات اليابانية. وكان هدف جوكوف من تكثيف الضربة النارية هو تجميد القوات اليابانية وحرمانها من الدعم، إلى أن تتمكن القوات الاحتياطية من الوصول لتوجيه الضربة المعاكسة. ولهذا فقد أصدر أمره بقصف المعابر على نهر خالخين غول بنيران الطيران والمدفعية، وبصورة مستمرة، من أجل إعاقة القوات اليابانية من العبور والتجمع في الجبال.

ثم بدأت الوحدات المتقدمة من لواء المدرعات الحادي عشر بالوصول إلى ميدان المعركة تباعاً وذلك اعتباراً من الساعة التاسعة صباحاً. وكانت نسبة القوى في منطقة باين تساغان كالتالي:

«حشدت القوات اليابانية في منطقة جبل باين تساغان أكثر من ١٠ آلاف مقاتل في حين لم يتجاوز عدد أفراد القوات السوفييتية ألف مقاتل. وكان مع القوات اليابانية حوالي ١٠٠ مدفع بالإضافة إلى ستين مدفعاً مضاداً للدبابات، بينما لم يكن لدى القوات السوفييتية سوى ٥٠ مدفعاً أو أكثر بقليل، بالإضافة إلى مدفعية الدعم المتربصة على الشاطىء الشرقي من نهر خالخين غول، إلا أن

القوات السوفييتية كانت متفوقة بالقوى المدرعة، حيث كان اللواء المدرع ١١ يمتلك ١٥٠ دبابة، كما كان لدى لواء المشاة السابع ١٥٤ آلية مدرعة. وكانت الكتيبة المدرعة المنغولية الثامنة مسلحة بمدافع ٤٥ ملم، وكانت هذه تقاتل إلى جانب القوات السوفييتية».

كانت المدرعات هي القوة الأساسية التي يمتلكها جوكوف، ولذلك قرر استخدامها للقيام بالهجوم من الحركة لتدمير القوات اليابانية التي عبرت النهر فقط، وعدم السماح لها بالتثبت بالأرض وتنظيم الدفاع المضاد للدبابات. هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية، فقد بات من المحال تأخير الضربة المعاكسة أو التمهل في توجيهها، ذلك لأن اليابانيين اكتشفوا وجود الدبابات السوفييتية، فاتخذوا بسرعة تدابير الدفاع، وبدأوا بضرب أرتال الدبابات التي لا يمكن اخفاؤها أو تمويهها نظراً لطبيعة الأرض المنبسطة والخالية من الأشجار والمستوية حتى مسافة مائة كيلومتراً.

انطلقت القوات المدرعة للهجوم في الساعة ١٠,٤٠ من يوم ٣ تموز - يوليو - ١٩٣٩، بعد توجيه ضربة نارية كثيفة بنيران المدفعية وبنيران الطائرات التي اشتركت كلها في المعركة، فحولت ميدان القتال إلى جحيم لا يطاق، وهو ما عبر عنه أحد الجنود اليابانيين الذين عاشوا تجربة هذا اليوم، فكتب في مذكراته: «**هاجمتنا عشرات الدبابات بصورة مباغتة، فأحدثت ارتباكاً عظيماً. وفزعت الخيول فارتفع صوت صهيلها، وانطلقت تجر معها مقدمات عربات الأسلحة، كما تطايرت الآليات في كل اتجاه. وقد دمرت لنا طائرتان في الجو، وتدهورت الروح المعنوية لدى جميع الأفراد،**

وأخذت تتردد على ألسنة الجنود كلمات الرعب، مثل ـ مخيف ـ و ـ محزن ـ و ـ هبطت الروح المعنوية ـ وإنه أمر مرعب».

استمرت المعارك الضارية طوال يوم ٤ تموز ـ يوليو ـ وليله، ثم أخذت مقاومة اليابانيين بالانهيار اعتباراً من الساعة ٣,٠٠ في فجر يوم ٥ تموز ـ يوليو ـ وبدأت قواتهم بالانسحاب نحو المعبر الذي كانت وحدات المهندسين الروسية قد دمرته. فقذف الضباط اليابانيون بأنفسهم في اليم وهم بكامل أعتدتهم، وغرقوا تحت أنظار رجال الدبابات السوفييتية. أما القوات اليابانية الباقية، والتي كانت تحتل جبل باين تساغان فقد أبيدت إبادة تامة، وغطي جبل باين تساغان بألف جثة وبأعداد كبيرة من الخيول ـ النافقة ـ وبعدد كبير من المدافع المعطلة والمدمرة، ومدافع الهاون والرشاشات والآليات. كما دمر في المعارك الجوية في تلك الأيام ٤٥ طائرة يابانية منها ٢٠ طائرة انقضاض.

اقتصر نشاط اليابانيين بعد هذه الموقعة على أعمال الاستطلاع القتالي، ولكن قام أحد ألوية المشاة في يوم ١٢ آب ـ أغسطس ـ بهجوم على لواء الفرسان المنغولي ٢٢ الذي كان يحتل يومها مرتفع الرمال الكبير في القطاع الجنوبي من الجبهة. وفيما عدا ذلك فقد تركز جهد اليابانيين على إقامة تنظيم دفاعي قوي في الجبهة الممتدة على الشاطىء الشرقي لنهر خالخين غول. فقاموا بحشد الوسائط الدفاعية، ونقلوا الأخشاب، وشيدوا الملاجىء، وعملوا خلال ذلك على تكثيف نشاط الطيران الذي وقع عليه العبء الأول في القتال بحيث أنه تعرض للخسائر الفادحة بين ٢٣ تموز ـ يوليو ـ و٤

آب ـ أغسطس ـ ، فبلغ مجموع ما أسقط له من الطائرات في هـذه الفترة ١١٦ طائرة، الأمر الذي أرغمه على قصر نشاطه بعدئذ على الطلعات الاستطلاعية، مع توجيه بعض الضربات الجوية على المعبر المركزي، ومواقع المدفعية، والمناطق الخلفية.

أخذ جوكوف بعد انتصاره في المرحلة الأولى، بالإعداد لتنفيذ هجوم كبير هدفه تدمير بقية القوات اليابانية، وطلب إلى القيادة دعم (مجموعة الجيش الأول) بسرعة، واستجابت القيادة لطلبه فدعمته بالقوى والوسائط المادية والفنية من الاتحاد السوفييتي، كما نقلت أيضاً فرقتا مشاة ولواء مدرع وفوجا مدفعية ووحدات أخرى. وتمت تقوية الطيران القاذف والمقاتل.

تم التحضير للعملية الهجومية في ظروف معقدة للغاية، ذلك لأنها تطلبت عملية نقل كبيرة ما بين قاعدة التموين والخطوط المتقدمة في نهر خالخين غول، حيث كانت المسافة ٦٥٠ كيلومتراً يجب السير فيها على طريق ترابي. وقد شملت المواد المنقولة: «١٨ ألف طن ذخيرة مدفعية و١٥ ألف طن وقود وزيوت متنوعة و١٤ ألف طن محروقات وذخيرة طيران و٨ آلاف طن مواد غذائية وحمولات اخرى». وكان نقل هذه الحمولات التي بلغ وزنها ٤٥ ألف طن يتطلب ٣٥٠٠ سيارة نقل و١٤٠٠ سيارة صهريج، في حين لم يكن لدى الجيش الأول أكثر من ١٧٢٤ سيارة نقل و٩١٢ سيارة صهريج. وتلقى الجيش بعد يوم ١٤ آب ـ أغسطس ـ من الاتحاد السوفييتي ١٢٥٠ سيارة نقل و٣٧٥ سيارة صهريج، وبقي النقص ٥٧٦ سيارة نقل و١١٣ سيارة صهريج. ووقع عبء النقل

على السائقين الذين اضطروا للعمل في الحر المضني ولمدة خمسة أيام متتالية كانوا يقطعون فيها ١٢٠٠ ـ ١٣٠٠ كيلومتر في اليوم. وقدمت قيادة منطقة ما وراء البايكال مساعدة ضخمة في مجال تنظيم المؤخرة والمساعدة في عملية النقل.

كان جوكوف يعتبر أن تحقيق المباغتة التعبوية ـ التكتيكية ـ والمباغتة على مستوى العمليات، هي العنصر الفعال لضمان النجاح، لأن المباغتة هي التي تضع اليابانيين أمام موقف يمنعهم من تجنب الضربة المدمرة الموجهة إليهم، وتحرمهم من فرصة القيام بمناورة معاكسة. وقد وضع جوكوف في اعتباره حرمان الفرق اليابانية من التشكيلات المدرعة الجيدة والقوات الآلية ـ الميكانيكية ـ، مما جعلها عاجزة عن نقل قواتها بسرعة من القطاعات الثانوية ومن العمق ضد القوات السوفييتية الضاربة التي ستعمل على تطويق الجيش الياباني السادس.

وحرصاً على تحقيق المباغتة، فقد تم وضع خطة عمليات خداعية، تضمنت:

١ ـ إجراء تحركات وتحشدات سرية للقوات القادمة من الاتحاد السوفييتي للدعم.

٢ ـ إعادة تجميع القوى والوسائط المتمركزة في الدفاع وراء نهر خالخين غول بصورة سرية.

٣ ـ تأمين سرية عبور القوات والاحتياطات المادية لنهر خالخين غول.

٤ ـ استطلاع مناطق انطلاق الهجوم والقطيعات وإتجاهات عمل القوات.

٥ ـ تحديد المهام، والواجبات، لجميع أنواع القوات المشتركة في العملية القادمة وإحاطتها بالتكتم الشديد.

٦ ـ إكمال أعمال الاستطلاع في جميع أنواع القوات والصنوف بالسر والخفاء.

٧ ـ بث معلومات كاذبة لخداع اليابانيين وتضليلهم.

كان الهدف من تنفيذ هذه التدابير هو خلق انطباع لدى اليابانيين بعدم وجود أي نوع من تدابير الاستعداد القتالي المتسم بالطابع الهجومي من جانب القوات السوفييتية، وأن تظهر هذه القوات وكأنها تقوم بأعمالها الواسعة لدعم الدفاع، والدفاع فقط. وتقرر من أجل ذلك إجراء التحركات والتحشدات وإعادة التجمع ليلاً فقط، عندما تكون أعمال الاستطلاع الجوي الياباني في حالة غياب كامل، وعندما تكون المراقبة بالنظر محدودة. وحظّر على القوات حتى ١٧ ـ ١٨ آب، أغسطس، التحرك إلى المناطق التي يفترض أن تنطلق منها الضربات للوصول إلى مجنبات القوات اليابانية ومؤخراتها، وفرض على العناصر القيادية القيام باستطلاع الأرض وهي بلباس الجنود، وأن تستخدم لذلك آليات النقل فقط.

وكان من المعروف أن اليابانيين يقومون ـ بالتجسس اللاسلكي، ويسرقون المحادثات الهاتفية، ولهذا تم وضع خطة

مضـادة كـاملة لاستخـدام الـلاسلكي والاتصـالات الهـاتفيـة، واقتصرت المحادثات على مواضيع الدفاع فقط وإجراءات تحضيره، من أجل حملة الخريف والشتاء. كما تقرر القيام بالخداع اللاسلكي وذلـك بتبادل البـرقيات المزيفة بـرموز سهلة الحـل. كذلـك فقد صدرت آلاف المناشير ومذكرات الجنود في الدفاع، وتم إيصال هذه المنشورات والمذكرات لليابانيين، لإعـطائهم فكرة عن إتجاه عمل القوات السوفييتية ـ المنغولية.

قرر جوكوف حشد المجموعات الضـاربة الجـانبية ووضعهـا في قواعد الانـطلاق للهجوم خـلال ليل ١٩ ـ ٢٠ آب ـ أغسـطس ـ على أن تنتشر القوات جميعها في الأدغال الممتـدة على طـول النهر، والاختفاء في الملاجىء التي كـانت قد أعـدت لذلـك، وتم إخفاء المـدفعية، ومـدفعية الهـاون، ووسـائط الجـر، والأعتـدة الأخـرى بشبكات التمويـه التي تم صنعها محلياً وبالـوسائط اليـدوية. كـما انتقلت وحدات الدبابات إلى قواعد انـطلاق الهجوم بمجمـوعات صغيرة، ومن إتجاهات مختلفة، وذلـك قبل بـدء التمهيد المـدفعي والجوي مباشرة. كذلك تم تمويه التحركات الليلية بتدخل الطيران ورمايات المدافع ومدافع الهـاون والرشـاشات والأسلحـة الفرديـة ـ البـواريد ـ والتي نفـذتها القـطعات وفق مخـطط صارم يتـوافق مـع التحـركات. كـذلك استخـدمت الأجهـزة الصـوتيـة التي تصـدر ضجيجاً مزيفاً لتمثيل تحركات الآليات وطلعات الطيران وتحركات الدبابات، وذلك للتمويه على التحركات الحقيقية.

وجدير بالذكر أنه تم تعويد اليابانيين على الضجيج المزيف قبل

١٥ يوماً من بـدء تحركـات المجموعـات الضاربـة المعينة. واعتبـر اليـابانيـون في بدايـة الأمر أن هـذا الضجيج هـو أعمال حقيقيـة للقوات، فأخـذوا بتوجيـه رمايـاتهم على المنـاطق التي يصدر منهـا الضجيج، ومن ثم اعتادوا على هذا العمل، فأصبحوا لا يعيرونه أي إهتمام. وأفادت القوات السوفييتية من ذلك لإعادة التجميع، والقيام بالحشد الحقيقي بصورة مأمونة.

بقي هنـاك خوف من أن تتسـرب أيـة معلومـات عن العمليـة الهجومية وذلك رغم جميع التـدابير المتخـذة. ولهذا قـام جوكـوف ورئيس هيئـة أركـانـه ورئيس فـرع العمليـات وعنـاصر القيـادة الضرورية بوضع خطة الهجوم. وترك لقادة مختلف الصنوف معالجة المواضيع الخاصة بهم على أن يتم التصديق عليها من قبل جوكوف. واستخدمت آلة كـاتبة واحـدة لطبـع خطة العمليـة وأوامر القتـال ووثائق العمليات، ثم بدأ تعريف عنـاصر القيادة في المجمـوعات المختلفة بواجباتهم على التتابع وبحسب اقتراب المواعيـد، إعتباراً من اليـوم الرابـع قبل بـدء الهجوم (ي ـ ٤) وبـذلك فـإن ضباط الصف والجنود لم يبلغوا بـأمر القتـال إلا قبل ٣ سـاعات من بـدء الهجوم.

بدأت القوات الروسية ـ المنغولية هجومها العام يوم ٢٠ آب ـ أغسطس ـ ١٩٣٩، وكان ذلك اليوم هو يوم الأحد، وكان الطقس هادئاً وحاراً. وظهر أن القيادة اليابانية قـد اقتنعت بعدم احتمـال قيام القوات الروسية ـ المنغولية بأعمال هجـومية، فمنحت قسـماً

كبيراً من ضباطها إجازات لقضائها بعيداً عن خطوط القتال.

فتحت المدفعية الروسية نيرانها بصورة مباغتة في الساعة ٥,٤٥، وقد تركز القصف على مدفعية اليابانيين ورشاشاتهم المضادة للطائرات. وقامت الطائرات بالقصف أيضاً على هذه الأهداف، وحلقت ١٥٠ طائرة قاذفة و١٠٠ طائرة مقاتلة فوق منطقة خالخين غول ووجهت ضرباتها القوية ضد القوات اليابانية، ثم بدأت المدفعية في القصفة الأخيرة في الساعة ٨,١٥، حيث عملت الوسائط النارية بتوجيه ضربة كثيفة، وبكافة الأسلحة، وبأعلى معدل ممكن. وكان ذلك تمهيداً للهجوم الذي بدأ في الساعة ٨,٣٠، وقد ظهرت نتائج القصف الشديد والمركز في الشلل الذي نزل بالقوات اليابانية والتي لم تتمكن من مقاومة الهجوم. وأثناء ذلك بدأ اللواء المدرع السادس بعبور نهر خالخين غول، ولم يتمكن من إكمال عبور قواته حتى نهاية النهار. لقد بوغت اليابانيون، غير أن ذهول المباغتة انتهى بانتهاء اليوم الأول، وظهر ذلك واضحاً في القتال العنيد الذي جرى في اليومين التاليين (٢١ و٢٢ آب ـ أغسطس ـ) حيث أظهر اليابانيون إرادة صلبة ومقاومة ضارية لم تكن تتوقعها القوات السوفييتية ـ المنغولية.

واستمر الصراع المرير على أرض المعركة (حتى يوم ٢٦ آب ـ أغسطس ـ) حيث تمكنت قوات الهجوم في هذا اليوم من تطويق الجيش الياباني السادس بكامله، ثم أخذت في تجزئته وتدميره على التتابع حتى يوم ٣٠ آب ـ أغسطس ـ ١٩٣٩، حيث تم القضاء

على آخر فلول هذا الجيش الممزقة. ويومها قام رئيس دولة منغوليا (خ، تشوي باكسان) بزيارة القوات المحاربة، وهنأها بانتصارها، وقدم لها الهدايا المناسبة.

ترددت أصداء هذا الانتصار بقوة في العالم كله، فكتب مفوض الشعب للدفاع (فوروشيلوف) أمراً صدر يوم ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٣٩ جاء فيه:

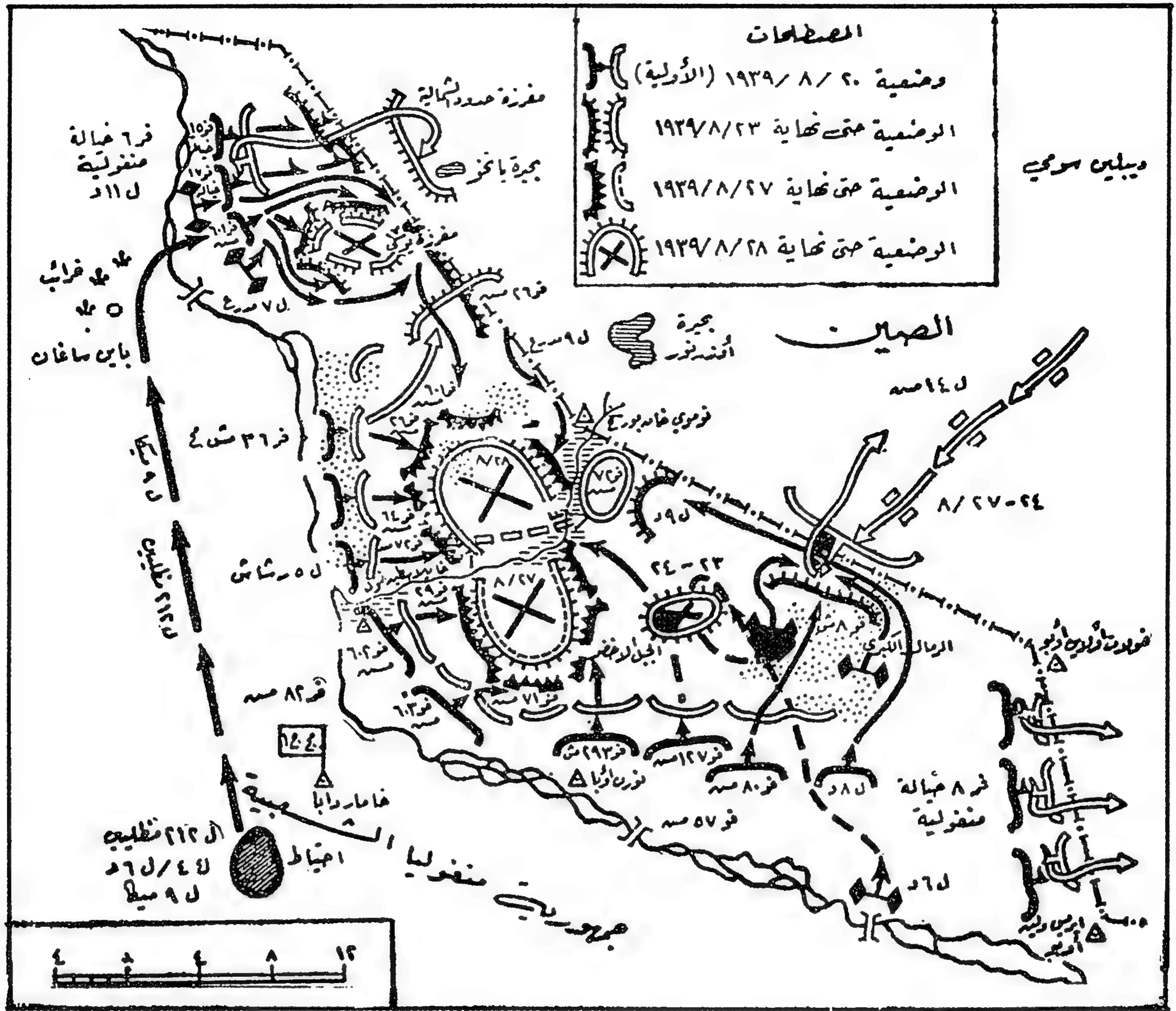
«لقد استحق المقاتلون والقادة الذين اشتركوا في معارك منطقة خالخين غول شكر الوطن وتقديره، لجرأتهم وبطولتهم وتنفيذهم الدقيق للأوامر».

وأقيم على أرض المعركة نصب تذكاري لقتلى المعركة، حمل الكلمات التالية:

«المجد الخالد للأبطال جنود الجيش السوفييتي ومقاتلي الجيش الثوري الشعبي المنغولي، الذين سقطوا في المعارك ضد المحتلين اليابانيين في منطقة نهر خالخين ـ غول، من أجل حرية الشعب المنغولي المحب للسلام وللاستقلال، ومن أجل السلم وأمن الشعوب ضد العدوان الامبريالي».

لم يكن جوكوف يعرف شيئاً عن عاصمة منغوليا (اولان ـ باتور). فجاء للتعرف عليها مع قادته وهيئة أركانه، ووصلها في نهاية شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٣٩.

تلقى جوكوف أمراً من موسكو في أوائل أيار ـ مايو ـ ١٩٤٠



الأعمال القتالية على نهر خلخين غول (من ٢٠ لغاية ٣١ آب ١٩٣٩)

بالعودة، والتقدم إلى وزارة الدفاع لتعيينه في منصب جديد. وعندما وصل إلى موسكو، علم أنه قد صدر مرسوم حكومي بمنح العناصر القيادية العليا رتب الجنرالات. ومنح جوكوف وثلاثة من رفاقه رتبة جنرال جيش (فريق أول).

لم يكن جوكوف قد قابل ستالين حتى ذلك التاريخ، أو تعرف عليه عن قرب، ولكن ما إن مضت بضعة أيام على عودته إلى موسكو، حتى استقبله ستالين، وهنأه على انتصاره ثم جلس

يتحدث إليه، وسأله عن تقييمه للجيش الياباني، وعن كفاءة القوات السوفييتية ودرجة استعدادها القتالي وقدرتها، وإمكانات الأسلحة الحديثة، وكفاءة القادة الذين عملوا مع جوكوف، وما لقيه من الصعوبات في تنفيذه للأعمال القتالية وقيادتها. وأجاب جوكوف على كافة الأسئلة بدقته المعهودة وصراحته المعروفة، فلما فرغ من حديثه، **قال له ستالين**: «**الآن، وقد أصبحت لديك خبرة قتالية، استلم منطقة كييف، واستخدم خبرتك في تدريب القوات**».

كان جوكوف خلال إقامته في عاصمة منغوليا، يتابع أحداث الحرب على جبهة الغرب، وقد استثاره انتصار ألمانيا النازية على القوات البلجيكية والفرنسية والإنكليزية والهولاندية. وها هو الآن يتولى قيادة منطقة كييف، وهي من المناطق التي تمثل خط الصدام الأول في مواجهة الغرب، وأراد الإفادة من مناسبة اجتماعه بستالين، فسأله: «كيف يمكن فهم الطابع السلبي للحرب على جبهة الغرب؟ ثم ما هي احتمالات تطور الأعمال القتالية في المستقبل؟».

وابتسم ستالين ساخراً وهو يجيب: «إن الحكومة الفرنسية برئاسة دالادييه، وحكومة إنكلترا برئاسة تشمبرلن، لا تريدان الدخول في حرب حقيقية ضد ألمانيا. إنهم يأملون بتدمير هتلر في حرب ضد الاتحاد السوفييتي. لقد امتنعوا في سنة ١٩٣٩ عن إقامة حلف معنا ضد الهتلرية - النازية -. إنهم لا يريدون تكبيل أيدي هتلر في عدوانه على الاتحاد السوفييتي، ولن يتحقق شيء من ذلك، وهم

الذين سيدفعون ثمن قصر بصرهم السياسي».

خرج جوكوف من مقابلته لستالين، وعاد مهتاجاً إلى (فندق موسكو) ولم يتمكن من النوم رغم ما ناله من التعب. لقد كان يرزح تحت تأثير هذا الحديث الهام مع ستالين، كما كان يرزح تحت أعباء التفكير في عمله الجديد.

لقد أخذت الدنيا في فتح مصاريع أبوابها للفريق الأول جوكوف، وتدعوه لأخذ قسطه من المجد والشهرة، لقاء ما بذله من جهد وعناء، وما تعرض له من قسوة ومعاناة، ولقد عرف طول الطريق الذي اجتازه حتى الآن، فماذا ينتظره بعد؟

٧ - على طريق الحرب

كانت منطقة كييف العسكرية، تحتل مرتبة متقدمة، ومكانة مرموقة، في أنظار القوات المسلحة السوفييتية وقياداتها، فقد تعاقب على قيادة هذه المنطقة عدد من كبار القادة، وبرهنت قواتها باستمرار على كفاءتها القتالية العالية - عبر المناورات والمشاريع التدريبية، فكان تعيين جوكوف لقيادة هذه المنطقة هو شرف لا يطمح لبلوغه إلا قلة من القادة، غير أن هذا الشرف كان يتطلب البذل والعطاء من أجل المحافظة عليه، ولم يكن جوكوف في الحقيقة يحتاج لمثل هذا الحافز حتى يندفع بأقصى طاقته للبذل والعطاء.

ولهذا، فما أن تسلم عمله حتى بدأ بجولة استطلاعية للتعرف على ضباط المنطقة جميعاً، ومعرفة إمكاناتهم وقدراتهم ومستواهم

الثقافي. ثم قام بجولة على أوكرانيا للغاية ذاتها. وتابع خلال شهر حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٠ زياراته للقطعات والتشكيلات. ثم أعقب ذلك بتنفيذ مشروع قيادة وأركان ميداني كبير، بهدف اختبار كفاءة هيئة أركان المنطقة.

وتبين لجوكوف من خلال المشروع أنه قد وصل إلى قيادة الجيوش وهيئات أركانها وتشكيلاتها المقاتلة، ضباط وقادة أحداث، وتتوافر لهم الكفاءة القيادية، إلا أنهم بحاجة للتدريب سواء على المستوى التكتيكي أو على مستوى العمليات، ذلك لأنهم حصلوا حديثاً على رتب رفيعة ومراكز قيادية عالية، ولهذا فقد ركز جوكوف جهده لتأهيل العناصر القيادية في المنطقة.

خضعت قوات منطقة كييف العسكرية لتدريب قتالي عنيف طوال فصل صيف عام ١٩٤٠ وفصل خريفه، تم خلاله تمثل الخبرة التكتيكية التي حصل عليها الجيش في حربه مع فنلندا، وفي معاركه مع اليابانيين في منطقة خالخين غول، بالإضافة إلى الدروس المستخلصة من الأعمال القتالية التي خاضتها قوات ألمانيا النازية ضد عدد من الدول الأوروبية.

حضر إلى منطقة كييف مفوض الشعب للدفاع ـ وزير الدفاع ـ (تيموشنكو)[١] وذلك في شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٠. وقام

---

(١) تيموشنكو ـ TIMOCHINKO, SEMYON KONSTANTINOVITCH قائد سوفييتي كبير (١٨٩٥ ـ ١٩٧٣) من مواليد تورمانكا بمقاطعة بسارابيا، دخل الجيش عام ١٩١٥، وانضم إلى قوات الثورة سنة ١٩١٧، وأصبح عضواً في =

بتنفيذ مشاريع اختبار بحضور القيادات العسكرية العليا، وكانت هـذه المشاريـع تعليمية وحـركيـة حتى أبعـد الحـدود، فقـد كـان (تيموشنكو) ماهراً في التدريب القتالي للمحاربين، ويحب العمل في تدريب التشكيلات والوحدات. فلما تم تعيينـه في منصب مفوض الشعب للدفاع، سار في تدريب القوات القتالي شوطـاً بعيداً عـلى طريق إعداد القـوات للحرب. وركـز جهده بصـورة خاصـة على الاستطلاع القتالي، وعلى استخدام الأرض للأعمال القتالية سواء في حالات الهجوم أو في حالات الدفاع.

تلقى جوكوف إعـلاماً من هيئـة الأركان العـامة في نهايـة شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٠، أشار إلى أنـه سيجري إجتمـاع للقيادة العليا للجيش في موسكو في شهر كانون الأول ـ ديسمبر ـ وأصبح

= الحزب الشيوعي سنة ١٩١٩. كان حظه من العلم والثقافـة قليلاً بسبب نشـأته الفقيرة التي لم تتح له فرصة التعلم، فمضى في حياة الجيش وهو يبذل كـل جهد مستـطاع للتعلم والتعليم. وقد بـرز خلال الحـرب الأهلية. وقـاد مجموعـة من الأعمال القتالية الناجحـة. وقاد الحـرب ضد بـولندا سنـة ١٩٣٩، فمنح رتبـة ماريشال ووسام لينين ولقب بطل الاتحاد السوفييتي. وما لبث أن عـين (مفوض الشعب للدفاع ـ وزير الدفاع ـ في ٨ أيار ـ مايو ـ ١٩٤٠) وتولى في الحرب الوطنية العظمى قيادة عمليات ناجحة سنة (١٩٤٠) وفي سمولنسك وروستوف (١٩٤١) وفي خاركوف (١٩٤٢) ثم اعفي من قيادة القوات (١٩٤٣ ـ ١٩٤٤) وتركت له مهمة تنسيق التعاون بين الجيوش في أوكرانيا والقرم. وقام بتنظيم قوات ماوتسي تونغ (١٩٤٥ ـ ١٩٤٧) ثم تولى قيادة منطقة مينسك (١٩٥٥ ـ ١٩٦٠) ثم نائباً عن جمهـورية كـازاخستان في مجلس السـوفييت الأعلى (١٩٦٢) واعتـزل الحيـاة العامة (سنة ١٩٦٦) حتى وفاته (سنة ١٩٧٣).

على جوكوف تبعاً لذلك تقديم بحث عن (**طبيعة العمليات الهجومية الحديثة**)، بالإضافة إلى تقديم مشروع استراتيجي - عملياتي كبير، يمثل فيه جوكوف دور (**الطرف الأزرق - والذي يمثل العدو أو الغرب**) وقد طلب مفوض الشعب للدفاع (تيموشنكو) رفع مشروع التقرير في أول تشرين الثاني - نوفمبر -.

بذل جوكوف جهداً كبيراً طوال شهر كامل حتى أنجز تقريره، ورفعه إلى مفوض الشعب في الوقت المحدد، وتلقى بعد أسبوعين إعلاماً بموافقة القيادة على ما تضمنه التقرير. وبات لزاماً على جوكوف الاستعداد لإلقائه في اجتماع القيادة الذي عقد في موعده (نهاية كانون الأول - ديسمبر -) وحضره قادة المناطق والجيوش وأعضاء المجلس العسكري ورؤساء هيئات الأركان في المناطق والجيوش، ومدراء جميع الأكاديميات العسكرية والأساتذة والدكاترة في العلوم العسكرية والمفتش العام لصنوف القوات، ومدراء الإدارات المركزية، والعناصر القيادية في الأركان العامة.

وألقيت في هذا الحشد مجموعة من الأبحاث والمحاضرات، ألقاها قائد سلاح الطيران وقائد القوات البحرية وقائد منطقة روسيا البيضاء العسكرية (الفريق د. غ. بافلوف) الذي كان بحثه عن (استخدام التشكيلات الميكانيكية في المعركة الهجومية الحديثة) هذا بالإضافة إلى محاضرات أخرى عن (طبيعة العمليات الدفاعية الحديثة) و(مسائل التدريب القتالي). وقوبل تقرير جوكوف (طبيعة العملية الهجومية الحديثة) بصورة جيدة.

كان من المقرر إجراء (**لعبة عسكرية**) كبيرة بعد الانتهاء من الاجتماع، ولكن ستالين وجه الدعوة بصورة مباغتة لهيئة القيادة، فلما دخل القادة ـ وبينهم جوكوف ـ استقبلهم ستالين بجفاء، ولم ينهض عن مقعده، وسلم بإحناء الرأس. ثم بدأ حديثه بتوجيه ملاحظة إلى (تيموشنكو) بسبب إنهائه الاجتماع قبل أن يطلع على آرائه بشأن المحاضرة الختامية، وأجاب تيموشنكو بأنه كان قد أرسل مشروع خطابه إلى ستالين، وافترض أنه قد اطلع عليه، وأنه ليس لديه ملاحظات بشأنه. وسأل ستالين بعدها:

ـ «متى تبدأ عندكم اللعبة العسكرية؟».

ـ «غداً صباحاً». هذا ما أجاب به تيموشنكو. فاستأنف ستالين حديثه:

ـ «حسناً، نفذها، ولكن لا تصرف القادة. من يمثل الجانب الأزرق ومن يمثل الجانب الأحمر؟».

ـ أجاب تيموشنكو: «يمثل جوكوف الزرق ـ الغربيين ـ ويمثل بافلوف الحمر ـ الشرقيين».

بدأت اللعبة العسكرية الكبيرة في صباح اليوم التالي. واستند الموقف الاستراتيجي للأحداث المتوقعة على أساس ما قد يقع على الحدود الغربية في حال قيام الألمان بهجوم على الاتحاد السوفييتي. وقام مفوض الشعب للدفاع (تيموشنكو) ومعه رئيس هيئة الأركان العامة (ك. أ. ميريتسكوف) بإدارة لعبة الحرب، وتمثيل دور الاتجاه الاستراتيجي الجنوبي ـ الغربي ـ. وكان الجانب الأزرق هو الجانب

المهاجم، وهو الذي مثله جوكوف، أما الجانب الأحمر فكان هو الجانب المدافع ومثله بافلوف. وكانت اللعبة تهدف أساساً التحقق من واقعية المبادىء الأساسية لخطة التغطية، ولأعمال القوات في المرحلة الابتدائية من الحرب.

استطاع جوكوف مجابهة كافة الافتراضات، ونجح في اختراق المواقع المتقدمة والتوغل عميقاً. وجرت مناقشة في أعقاب انتهاء (لعبة الحرب). وتم تحليل المواقف، وطرح ستالين وجهات نظره وانتقاداته. وعندما جاء دور (جوكوف) للإدلاء برأيه في أسباب نجاحه، قال:

«إن الخطوط المحصنة في غرب روسيا البيضاء قد نظمت على مسافة قريبة جداً من الحدود. وأرى أن تخطيط هذه المناطق لا يحقق أية فائدة، لا سيما وأن منطقة بروز (بيلاستوك) المتقدمة، تتيح الفرصة أمام المهاجم لضرب مؤخرة تجميع القوات الحمراء (السوفييتية) عند (بيلاستوك) سواء من منطقة بريست أو من منطقة سوفالك. وبالإضافة إلى ذلك، فإن القوات الدفاعية ـ السوفييتية ـ لا تستطيع الصمود طويلاً بسبب قلة عمق المناطق المحصنة، إذ أن هذه التحصينات تقع بكاملها تحت رحمة نيران المدفعية المعادية. وأعتقد أنه من الضروري إقامة المناطق المحصنة بعمق أكبر».

شعر بافلوف أن هذا الانتقاد موجه إليه شخصياً باعتباره قائد منطقة روسيا البيضاء العسكرية، فقال محتداً:

«وهل أقيمت المناطق المحصنة في أوكرانيا بشكل صحيح؟».

وأجاب جوكوف: «أنا لم أختر المناطق المحصنة في أوكرانيا، ولكنني أظن أنه يجب إقامتها أيضاً هناك، بعيداً عن الحدود، وبصورة عميقة».

وعندما لاحظ جوكوف أن البحث قد تحول إلى مجادلة، انسحب من النقاش، وانتهى المؤتمر.

تم استدعاء جوكوف في اليوم التالي لمقابلة ستالين الذي بادره بقوله:

«اهنئك، لقد قرر المكتب السياسي إعفاء رئيس هيئة الأركان العامة ـ ميريتسكوف ـ من منصبه، وتعيينك مكانه».

لقد كان جوكوف يتوقع كل شيء، إلا أن يصدر قرار بتعيينه رئيساً لهيئة الأركان، فارتبك، ولم يعرف ما يقوله، فسكت برهة، ثم جاءه النطق، فقال.

«لم أعمل مطلقاً في هيئات الأركان، كنت دائماً في الوحدات والتشكيلات، ولا أستطيع أن أكون رئيساً لهيئة الأركان».

فأجاب ستالين: «قرر المكتب السياسي تعيينك».

ولما كان جوكوف يعلم أن الاعتراضات جميعاً ستكون بدون جدوى، فإنه شكر ستالين على ثقته، وقال:

«إذا لم تحصل مني على رئيس هيئة أركان جيد، فسأطلب إعادتي إلى القوات».

ـ إذن اتفقنا، هذا ما قاله ستالين، ثم عقب على ذلك: سيصدر غداً المرسوم عن اللجنة المركزية.

وصل جوكوف بعد ٤ ساعات إلى مكتب مفوض الشعب للدفاع (تيموشنكو)، الذي استقبله مبتسماً، وقال له:

«اعلم أنك امتنعت عن قبول منصب رئيس هيئة الأركان العامة. لقد اتصل بي ستالين منذ قليل، وأبلغني ذلك. سافر الآن إلى المنطقة، وعد بسرعة إلى موسكو».

وسافر جوكوف في مساء اليوم ذاته إلى (كييف)، وأقام بها أياماً. لقد عرف أوكرانيا، وخدم فيها طويلاً، وأحبها، وها هو يغادرها وشعور الأسف يتملكه. يا لهذه الحياة؟ كلما أقام في بلد وأحب العيش فيها، جاءت الظروف لتنتزعه منها. إنه ثمن النجاح. ووصل يوم ٣١ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤١ إلى موسكو.

استلم جوكوف عمله في رئاسة هيئة الأركان، وطبول الحرب تدق بعنف في كل مكان من الكرة الأرضية، لقد اجتاحت حمى الحرب أقاليم العالم، فبات لزاماً على رجال الحرب، بالدرجة الأولى، الإعداد لمجابهة الأحداث المتطورة بسرعة مذهلة، والاستعداد لها.

وكان العمل جديداً على جوكوف، فانصرف بكل جهده لاستيعاب نهج العمل وكثيراً ما اضطر للنوم في مكتبه بعد عناء عمل يومي بمعدل ١٦ ساعة، ورغم ذلك فقد كان جوكوف يشعر

أن الوقت يضغط عليه بكل ثقله، فلا يسمح له بالسير لأبعد ما يستطيعه في مجال الإلمام بجميع المسائل التي تفرضها عليه طبيعة عمله، وحدود مسؤوليته. وقد شملت الواجبات الحربية لنائب مفوض الشعب للدفاع ـ رئيس الأركان العامة ـ الفريق جوكوف ـ عشية الحرب الوطنية العظمى ما يلي:

«إدارة الاشارة، وإدارة التموين بالوقود، وإدارة الدفاع الجوي، وكلية الأركان العليا، وكلية فرونزه».

ولم تكن مسؤوليات القادة في هيئة الأركان أقل من ذلك، وكان تنظيم العمل وتنسيق التعاون في هيئة الأركان متكاملاً، إلا أن ثقل الأعباء ترك كل واحد منهم غارقاً في عمله. وهكذا مضى شهر شباط ـ فبراير ـ ١٩٤١، وجوكوف لما يكد ينجز، ما أراد أن ينجزه، إلا أنه اضطر في نهاية هذا الشهر تخصيص وقت لمعالجة أكثر المسائل ضرورة وإلحاحاً، فعمل مع مفوض الشعب للدفاع ـ تيموشنكو ـ من أجل معالجة قضية إنشاء خط التحصينات على امتداد الحدود الدولية للاتحاد السوفييتي (مع الغرب)، مع معالجة حالة الخطوط الحديدية والطرق الرئيسة والترابية ووسائط الاشارة.

وكان لا بد لجوكوف من خوض صراع حقيقي، لدفع مشاريع التطوير نحو الانجاز، في حدود الزمن المتاح وفي حدود الإمكانات المتوافرة. وتبين لجوكوف خلال دراسته للأوضاع في ربيع سنة ١٩٤١، أن هناك ثمة أخطاء في صلب عمل جهاز الأركان العامة ذاته، وأبرزها حرمان هيئة الأركان العامة، ومفوضية الشعب

للدفـاع، وقادة أنـواع القوات المسلحـة، والصنوف، من مقـرات للقيـادة يمكن استخدامهـا في حالـة الحرب لضمـان السيطرة عـلى القوات المسلحة وإبلاغها أوامر القيادة العامة وتوجيهاتها، واستلام التقارير من هذه القوات وتحليلها.

وهكذا لم تستغل سنوات ما قبل الحرب لإنشاء مقرات قيادية، حتى إذا انـدلعت نار الحـرب، اضـطرت القيـادة العـامـة وهيئـة الأركـان، وقيادات صنـوف الأسلحـة وأركـانها جميعـاً، وكـذلـك الإدارات المركزية، إلى قيادة القوات من مكاتبها المخصصة للعمل في أيـام السلم، مما جـر عليها عـواقب وخيمة أثـرت على انتـظام عملها، وقد بدأت الحرب، ولما تتقرر بعد المسائل المتعلقة بأجهزة هيئة القيادة العليا، وبالقيادة العامة: «مثل بنيتها ووظائف أفرادها وتمركزها وجهاز التأمين للوسـائط الماديـة والفنية». بـالإضافـة إلى ذلك، ففي السنوات الخمس التي سبقت الحـرب تم تغيير أربعـة رؤساء لهيئة الأركان العامة، ولا ريب أن هذا التبديل في القيادة لم يتح للقادة فرصة الإحاطة بمسائل الدفاع عن البلاد إحاطة كاملة، ودراسة متطلبات الحرب المقبلة دراسة عميقة وشاملة.

استـطاعت جهود جـوكوف أن تحقق بعض ثمـارها، عـلى كل حال، فقد أمكن حتى بـداية الحـرب إنشاء مـا يقارب من ٢٥٠٠ منشـأة من الإسمنت المسلح، منها ألف منشـأة مجهـزة للمـدفعيـة والباقي للرشاشات، وبذلك تم دعم الدفـاع جزئيـاً على الحـدود الغربية.

وأثناء ذلك كان جوكوف يتابع أعمال التحصين، ويرسل التوجيه بعد الآخر لحث القادة على إنجاز الأعمال المطلوبة منهم، وهذا ما يؤكده مضمون التوجيه التالي الصادر في ١٤ نيسان - أبريل - ١٩٤١ تحت رقم ١ . و. آ/٥٨٤٨٣٨ وفيه:

«على الرغم من التوجيهات الكثيرة الصادرة عن الأركان العامة للجيش الأحمر، فإن تركيب الأسلحة في المناطق المحصنة، ووضع المنعات في حالة الاستعداد القتالي، لا زال يجري بصورة بطيئة جداً، الأمر الذي لا يجوز التغاضي عنه. لذا فإن مفوض الشعب للدفاع يأمر بما يلي:

١ - تركب الأسلحة المخصصة للمناطق المحصنة والمتوافرة في المنطقة العسكرية، جميعاً، وعلى الفور، في المنشآت القتالية، وتوضع هذه المنشآت في حالة الاستعداد القتالي.

٢ - عند عدم توافر الأسلحة الخاصة، تركب مؤقتاً في كوى - فتحات - المنعات، بعد إجراء التعديل الضروري فيها، المدافع الرشاشة وهي على الحوامل الميدانية، مع تركيب المدافع كلما أمكن ذلك.

٣ - يتم وضع المنشآت بدرجة الاستعداد القتالي، حتى لو لم تتوافر كافة التجهيزات الأساسية، على أن تركب لها أبواب معدنية وشبكية بصورة حتمية.

٤ - تنظم الصيانة الضرورية للمنشآت، كما تنظم صيانة الأسلحة الموجودة فيها.

٥ ـ يطلب إلى مدير الإنشاءات الدفاعية للجيش الأحمر، إرسال التوصيات الفنية إلى المناطق العسكرية فيما يتعلق بتركيب الأسلحة المؤقتة في المنشآت الخرسانية.

نوافي بالاجراءات المتخذة قبل ١٩٤١/٤/٢٥ إلى هيئة الأركان العامة للجيش الأحمر.

رئيس هيئة الأركان العامة. فريق أول. غ. جوكوف.

كان على جوكوف بالإضافة إلى ذلك متابعة ما تقوم به الهيئات الأخرى في مجال الإعداد للحرب (مراكز التعبئة، الصناعات الحربية، حشد القوى الاحتياطية، تحرك الجيوش نحو الجبهة، إعداد الشعب إلخ...) مع الاشتراك في اجتماعات القيادة السياسية ـ برئاسة ستالين ـ، وكذلك متابعة تطورات الموقف على جبهة الغرب، حيث كانت نذر الحرب تقترب بشكل حاد من الحدود، وتصاعد التوتر إلى درجة خطيرة، مما دفع ـ تيموشنكو وجوكوف ـ للطلب من ستالين يوم ١٣ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤١، بإصدار الأمر إلى قوات المناطق العسكرية المتاخمة للحدود بالاستعداد للقتال، ونشر الأنساق الأولى بحسب خطة التغطية. لكن ستالين طلب التريث، وأثناء ذلك كان جوكوف وجهاز هيئة الأركان، يعمل بمعدل تسعة عشر ساعة يومياً.

أخيراً، اتصل رئيس هيئة أركان منطقة كييف العسكرية بجوكوف، مساء يوم ٢١ حزيران، وأعلمه أن المعلومات المتوافرة له تؤكد أن القوات الألمانية تتحرك إلى قواعد انطلاق الهجوم الذي

سيبدأ صباح ٢٢ حزيران ـ يونيو ـ. فاتصل جوكوف بمفوض الشعب ـ تيموشنكو ـ وبستالين، وأعلمهما، فرد عليه ستالين:

«احضر أنت ومفوض الشعب إلى الكريملين».

تأبط جوكوف مشروع توجيه للقوات، وانطلق مع مفوض الشعب إلى الكريملين، وتم الاتفاق في الطريق على بذل كل جهد ممكن لإقناع ستالين والحصول على موافقته بوضع القوات في حالة الاستعداد القتالي، مهما كلف الأمر.

كان ستالين وحده، والقلق باد على وجهه، عندما استقبل تيموشنكو وجوكوف، وبعد فترة دخل غرفة ستالين أعضاء المكتب السياسي. ولدى طرح الموضوع، طلب تيموشنكو إصدار توجيه إلى القوات لاستنفار قوات المناطق العسكرية المتاخمة للحدود، ووضعها في حالة الاستعداد القتالي الكامل. وتقدم جوكوف، فقرأ مشروع التوجيه الذي كان قد أعده، وقال ستالين:

«لم يحن أوان إعطاء مثل هذا التوجيه، فقد تنجح المساعي المبذولة لحل المسألة بالطريقة السلمية، ينبغي إعطاء توجيه مختصر يذكر فيه أن الهجوم قد يبدأ بأعمال استفزازية من القطعات الألمانية. يجب على قوات الحدود عدم التورط تجاه أية تحرشات حتى لا نخلق مضاعفات».

وأسرع جوكوف إلى الغرفة المجاورة، فأجرى التعديلات التي طلبها ستالين وعاد فقدمه إلى ستالين الذي قرأه بنفسه مرة بعد مرة، وأدخل عليه بعض التعديلات. وجاء نص التوجيه كالتالي:

«إلى المجالس العسكرية لمنطقة لينينغراد العسكرية، ومنطقة البلطيق العسكرية والمنطقة العسكرية الغربية، ومنطقة كييف العسكرية، ومنطقة أوديسا العسكرية».

نسخة إلى مفوض الشعب للأسطول البحري الحربي.

١ ـ يحتمل قيام الألمان بشن هجوم مباغت خلال ليل ٢٢ ـ ١٩٤١/٦/٢٣ على جبهات منطقة لينينغراد العسكرية ومنطقة البلطيق العسكرية والمنطقة الغربية العسكرية ومنطقة كييف العسكرية ومنطقة أوديسا العسكرية. ويمكن أن يبدأ الهجوم بأعمال استفزازية.

٢ ـ مهمة قواتنا هي عدم التورط في أية أعمال استفزازية من شأنها أن تجر وراءها مضاعفات خطيرة. وعلى القوات في الوقت ذاته أن تقف على أهبة الاستعداد القتالي الكامل لمواجهة الضربة المباغتة المحتملة من جانب الألمان أو حلفائهم، وذلك في جميع مناطق لينينغراد والبلطيق والغربية وكييف وأوديسا.

٣ ـ نأمر بما يلي:

آ ـ يتم احتلال النقاط النارية للمناطق المحصنة على الحدود الدولية سراً في ليل ١٩٤١/٦/٢٢.

ب ـ ينتشر الطيران جميعه على المطارات الميدانية، مع طيران القوات أيضاً، ويموه تمويهاً دقيقاً وذلك قبل فجر ١٩٤١/٦/٢٢.

ج ـ توضع كافة القطعات في حالة الاستعداد القتالي، وتبقى القوات منتشرة ومموهة.

د ـ يوضع الدفاع الجوي في حالة الاستعداد القتالي، ولا ينطبق ذلك على وحدات الدعم الإضافية. تتخذ كافة التدابير لتعتيم المدن والمنشآت.

هـ ـ لا تتخذ أية تدابير أخرى بدون تعليمات لاحقة.

١٩٤١/٦/٢١ تيموشنكو ـ جوكوف

أمكن الانتهاء من إبلاغ هذا التعميم لقادة المناطق في الساعة ٢٤,٣٠ من فجر يوم ٢٢ حزيران ـ يونيو ـ وعاد جوكوف مع تيموشنكو إلى مفوضية الشعب للدفاع، دون أن يجري بينهما أي حديث. لقد كان كل من القائدين رازحاً تحت أعباء تفكيره، وكان بحاجة للخلوة مع نفسه حتى يعيد تقويم الموقف والإجراءات المتخذة.

لقد كان جوكوف وهو غارق بأفكاره ـ أو مع أفكاره سيان في ذلك ـ يشعر بأنه فعل كل ما يستطيعه لمواجهة خطر الحرب الزاحف نحو بلاده، التي باتت على درجة كافية من الاستعداد. فقد تم تنفيذ عدد من التدابير التنظيمية الضخمة ذات الصيغة التعبوية ـ العملياتية، وأمكن دعم المناطق العسكرية قدر المستطاع، وأخيراً أمكن الحصول على موافقة ستالين لإصدار التوجيه الخاص لوضع قوات المناطق العسكرية المتاخمة للحدود في وضع الاستعداد القتالي.

ولكن، ومقابل ذلك، فقد تنتقل القوات الألمانية للهجوم في صباح الغد، وهناك كثير من التدابير التي لم تستكمل بعد، مما يجعل الصراع معقداً جداً لا سيما مع عدو مجرب وقوي، كما قد يتأخر وصول التوجيه الصادر عن هيئة الأركان العامة، إلى القوات، وها قد مضى وقت طويل على هبوط الظلام. فماذا يحمل هذا الفجر القريب؟

ووصل جوكوف، وهبط من السيارة، بعد أن اتفق مع تيموشنكو على أن يوافيه في مكتبه بعد عشر دقائق. ومضى لتفقد العمل في هيئة الأركان العامة، فقد تم استنفار جميع العاملين في مفوضية الشعب للدفاع وفي هيئة الأركان العامة، وطلب إليهم البقاء جميعاً في مراكزهم طوال ليل ٢٢ حزيران ـ يونيو ـ. وعلم جوكوف أن مراكز الحدود قد أبلغت عن تزايد الضجيج قرب الحدود، ومع منتصف الليل، اتصل قائد منطقة كييف بجوكوف ـ على قناة التردد العالي ـ وأبلغه أن المعلومات قد توافرت لديه بأن الألمان سينطلقون في هجومهم في الساعة ٤,٠٠ صباحاً. وتوجه جوكوف إلى مكتب تيموشنكو، وأخذ في مناقشة الموقف معه. ولكن حدث في الساعة ٣,١٧، أن اتصل قائد أسطول البحر الأسود ـ على قناة التردد العالي أيضاً ـ وأبلغ جوكوف ما يلي:

«أبلغ جهاز الرصد الجوي والدفاع والإشارة التابع للأسطول، عن اقتراب أعداد كبيرة من الطائرات المجهولة من جهة البحر. الأسطول بحالة الاستعداد الكامل. ننتظر توجيهاتكم».

اتصل رئيس هيئة أركان المنطقة الغربية بجوكوف في الساعة ٣,٣٠، وأبلغه بأن الطيران الألماني قام بالإغارة على مدن روسيا البيضاء. وما هي إلا ثلاث دقائق - بعد ذلك - حتى اتصل رئيس هيئة أركان كييف وأبلغ عن وقوع إغارة على مدن أوكرانيا. وفي الساعة ٣,٤٠، اتصل قائد منطقة البلطيق، وأبلغ عن قيام الطيران الألماني بالإغارة على مدينة كاوناس وسواها من مدن البلطيق.

إنها الحرب، وليست مجرد استفزازات أو تحرشات، واتصل جوكوف بالكريملين بناء على أمر تيموشنكو فرد ستالين، وطلب إلى جوكوف أن يحضر مع تيموشنكو إلى الكريملين. وأثناء ذلك، أبلغت المناطق كافة عن بدء اشتباكها بالقوات البرية الألمانية.

دارت معارك ضارية مع القوات البرية الألمانية على امتداد الحدود الغربية، وتحولت منطقة البلطيق والمنطقة الغربية ومنطقة كييف يوم ٢٢ حزيران - يونيو - ١٩٤١ إلى جبهات حملت أسماء الجبهة الشمالية الغربية، والجبهة الغربية، والجبهة الجنوبية الغربية. ونشأ عن القصف الجوي الألماني، وانقطاع الاتصالات مع الجبهة، واشتداد حدة المعارك البرية، وضع غامض ومعقد، **فاتصل ستالين بجوكوف في الساعة** ١٣,٠٠ من يوم ٢٢ حزيران - يونيو - ١٩٤١، وقال له:

«لا يمتلك قادة جبهاتنا خبرة كافية في قيادة أعمال القوات، ويبدو أنهم مرتبكون. وقد قرر المكتب السياسي إرسالك إلى الجبهة الجنوبية الغربية، ممثلاً ومندوباً عن هيئة القيادة العامة. .

وما عليك إلا أن تتوجه جـواً إلى كييف، على الفـور، ومن هناك تنطلق مع خروتشوف إلى أركان الجبهة في تيرنوبول».

واتصل جوكوف بعائلته مودعاً. وبعد ٤٠ دقيقة كان محلقـاً في الجو. وفي هذه اللحظة شعر بوخزة الجوع، وتذكر أنه لم يذق طعاماً طوال نهار الأمس. وأنجده الطيارون فقدموا له بعض الشطائر مع الشاي.

٨ ـ الأيام العصيبة

وصـل جـوكـوف إلى كييف عنـد الغـروب، فقـابله نيكيتـا خروتشوف، وقال له إن الطيران إلى أبعد من ذلك لم يعـد أميناً، لأن الطائرات الألمانية تطارد طائرات النقل، فاستقل وخـروتشوف سيارة وصلت بهما إلى (تيرنوبول) حيث مقر الفريق كيربونوس قائد الجبهة الجنوبية الغربية. واتصل جوكوف من هناك بمكتبه في هيئة الأركان فعلم بأن أمراً قد صدر عن القيادة العليا ينص على (انتقال كافة القوات للهجوم العام بهدف تدمير العدو على أهم الاتجاهات، والوصول إلى أرض العـدو». واعترض جـوكوف عـلى هذا الأمـر بقوله:

«لكننا لا نعرف بعد أين العدو، وبأية قوة يوجه ضرباته بشكل دقيق، ومن الأفضـل الانتظار حتى الصبـاح ريثـما ينجـلي المـوقف ونعرف ماذا يجري على الجبهة، وعندها نتخذ القرار المناسب».

ولكن اعتـراض جوكـوف لم يكن له أي تـأثير، فقـد تم اتخـاذ

القرار، ولم يعد باستطاعته إلاَّ أن يضع عليه توقيعه ويشرف على تنفيذه. ومضى في تعاونه مع قيادة الجبهة الجنوبية الغربية، فاتخذ معها القرارات الضرورية لتوجيه الهجمات المضادة، وأدى ذلك إلى تصعيد حدة الصراع، ولم تتمكن القوات السوفييتية من تدمير القوات الألمانية تدميراً كاملاً أو إيقاف هجومها، إلا أنها تمكنت من إيقاف التجميع الضارب الألماني الذي كان يندفع نحو عاصمة أوكرانيا. وأصبحت القوات الألمانية منهكة القوى. وكان عرض جبهة الخرق قد وصل إلى أربعين كيلومتراً بعد ثلاثة أيام من بداية الحرب (مساء يوم ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤١).

استمر جوكوف بمتابعة دوره في تنظيم التعاون بين القوى المشتركة على مسرح العمليات، وبينها وبين القوى الجوية، مع مساعدة القيادات على اتخاذ القرارات المناسبة، ومعالجة نقاط الضعف، والانتقال ما بين قيادات الجيوش والفيالق لمعرفة الأوضاع بدقة. كما كان يتابع الموقف على بقية الجبهات عبر اتصالاته بهيئة الأركان فعرف أن الموقف يتدهور بشكل خطير على كافة الجبهات، لا سيما على جبهة البلطيق وجبهة روسيا البيضاء.

كانت الجبهة السوفييتية تمتد على مسافة ٢١٠٠ كيلومتر على مناطق البلطيق والغربية وكييف واوديسا، وقد حشدت فيها ١٤٩ فرقة، فكان نصيب الفرقة في الدفاع هو ١٤ كيلومتراً تقريباً. ومقابل ذلك، زجت القيادة الألمانية ١٥٣ فرقة دفعة واحدة، في مجموعات جيوش الشمال والوسط والجنوب، ومعها ٣٧١٢ دبابة ومدفع اقتحام، وقد دعمتها ٤٩٥٠ طائرة قتال. وقد خصص من

هذه القوات ٢٩ فرقة ضد منطقة البلطيق، و٥٠ فرقة منها ١٥ فرقة مدرعة ضد المنطقة الغربية و٣٤ فرقة منها ٩ فرق مدرعة وآلية ضد منطقة كييف و١٢ فرقة ضد منطقة أوديسا، بالإضافة إلى ٢٨ فرقة في الاحتياط كانت تتحرك على الاتجاهات الاستراتيجية الأساسية. وكانت هذه المقارنة مثيرة للتشاؤم. فقد كان الألمان يتفوقون على بعض الاتجاهات بمعدل ستة إلى واحد. فكيف يمكن مجابهة الموقف؟. (الدفاع الصلب، والاستنزاف) على كافة الجبهات، هذا ما فكر به جوكوف.

وشرع على الفور بزج القوى المتوافرة على أهم الاتجاهات الرئيسة، وتوجيه الصراع المرير في الظروف غير المتكافئة. ولم تعد القضية بالنسبة لجوكوف هي قضية اكتساب قطعة من الأرض أو خسارتها، كما لم تعد قضية البحث عن نصر حاسم وسريع، وإنما هي قضية التدمير المستمر لما يمكن تدميره من قوات العدو.

اتصل ستالين بجوكوف على قناة التردد العالي يوم ٢٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤١ ـ في تيرنوبول ـ وقال له:

«لقد أصبح الموقف صعباً على الجبهة الغربية، ووصل العدو إلى مينسك. ولا أدري ماذا يحدث هناك. فهل لك أن تطير حالاً إلى موسكو».

وأجاب جوكوف: «سأنهي بحث بعض المسائل هنا بشأن الأعمال المقبلة، وأتوجه إلى المطار».

وانصرف جوكوف لبحث الموقف مع قائد المنطقة ـ الجبهة ـ ومع كبار القادة، ثم توجه إلى المطار في ساعة متأخرة من مساء ٢٦

حزيران ـ يونيو ـ ولما وصل إلى موسكو، توجه إلى الكريملين، فوجد ستالين في مكتبه ومعه مفوض الشعب لشؤون الدفاع تيموشنكو، ونائب جوكوف في هيئة الأركان ـ فاتوتين ـ والشحوب باد على وجوههم، وعيونهم حمراء، فاستنتج جوكوف أنهم لم يناموا طوال الأيام الماضية، وأومأ ستالين برأسه إيماءة التحية رداً على تحية جوكوف عندما استقبله. وقال:

«فكروا جميعاً، وقولوا لي ماذا يمكن فعله في موقفنا هذا؟» وألقى على الطاولة بخارطة الجبهة الغربية. فقال جوكوف:

«إننا نحتاج إلى أربعين دقيقة للتفكير».

فأجاب ستالين: «حسناً، سأستمع إليكم بعد أربعين دقيقة».

وخرج القادة الثلاثة إلى الغرفة المجاورة، وشرعوا في مناقشة الموقف على ضوء الإمكانات المتوافرة. لقد زجت القيادة الألمانية بثقل قواتها على محور التقدم إلى موسكو. وكانت هناك بقايا الجيشين الثالث والعاشر وهي تخوض صراعاً عنيفاً إلى الغرب من مينسك، بعد أن طوقتها القوات الألمانية. وبات الموقف يتطلب إنشاء دفاع عميق على الطرق المؤدية إلى موسكو، وإنهاك القوات الألمانية، بتشكيل جبهات متتالية، حتى إذا ما تم إيقاف الألمان أمام أحد الخطوط، أمكن إعداد هجوم مضاد قوي بقوات يمكن إحضارها من الشرق الأقصى، ومن التشكيلات الجديدة التي يتم تنظيمها. وتم تحديد الخطوط الدفاعية المتتالية على هذا الأساس وحددت القوات والتشكيلات المكلفة بالدفاع عن هذه الخطوط. وتم تقديم الخطة إلى ستالين فوافق عليها.

وجلس جوكوف خلف الطابعة اللاسلكية ـ البودو ـ في الساعة ١٠,٠٥ من صباح يوم ٢٧ حزيران ـ يونيو ـ وتحدث إلى رئيس هيئة أركان الجبهة الغربية ، وقال له :

«استمع إلى الأمر الصادر عن هيئة القيادة، مهمتك :

أولاً : المسارعة فوراً إلى تفتيش القطعات جميعاً، والاتصال بقادتها، وإبلاغهم حقيقة الموقف، ووضعية العدو، ووضعية قواتنا، والأماكن التي وصلتها قوات العدو الميكانيكية المتقدمة بشكل مفصل، وإرشادهم إلى قواعد الإمداد والوقود والذخيرة والأرزاق والعلف حتى تتمون قطعاتنا منها بكل ما يلزمها للمعركة، وإسناد مهمة واضحة للقوات، هل تقاتل أم تتحشد في الغابات، وفي الحالة الثانية على أية طرق، وبأي تجميع تتحشد.

ثانياً : الاستيضاح عن القطعات التي يجب إمدادها بالوقود والذخيرة بالطائرات حتى لا نخسر العتاد الثمين ولا سيما الدبابات والمدفعية الثقيلة.

ثالثاً : سحب القوات المتبقية على ثلاثة محاور:

ـ المحور الأول باتجاه دوكتشيتس وبولوتسك، وتجميعها خلف المنطقتين المحصنتين ليبيل وبولوتسك.

ـ المحور الثاني باتجاه مينسك وتجميعها خلف منطقة مينسك المحصنة.

ـ المحور الثالث ـ غابات غلوسك وإلى بوبرويسك.

رابعاً : ضع باعتبارك أن النسق الأول الميكانيكي للعدو قد ابتعد كثيراً عن مشاته. وهنا تكمن نواحي الضعف لدى العدو، سواء بالنسبة إلى نسق الدبابات الذي ابتعد عن المشاة، أو بالنسبة للمشاة ذاتها التي باتت تتحرك بدون دبابات. فاذا ما استطاع القادة الذين تحت إمرتك أن يسيطروا على قطعاتهم، لا سيما المدرعة منها، فقد تستطيع توجيه ضربة حاسمة تحطم بها النسق الأول للعدو، ثم تحطم مشاته المحرومة من دعم الدبابات. ومن أجل ذلك، نظم أولاً ضربة قوية ضد مؤخرة النسق الأول الميكانيكي للعدو المندفع نحو مينسك ونحو بوبرويسك، وبعد ذلك يمكن الالتفاف بنجاح على المشاة المعادية. ومن شأن هذه الأعمال الجريئة أن تضمن المجد والسؤدد لقوات المنطقة العسكرية الغربية. وسيتحقق نجاح كبير إذا أمكن لك تنظيم الانقضاض في الليل على القوات الميكانيكية.

خامساً : سحب الخيالة إلى غابات بينسك، والمبادرة للانطلاق من بينسك ولونينتس لشن أجرأ الهجمات وأوسعها ضد مؤخرات القطعات المعادية وعلى القطعات ذاتها. وزع مجموعات الخيالة الصغيرة على الطرق كافة، وأسند قيادتها إلى قادة يتصفون بالشجاعة والاخلاص.

* * *

قد يكون هذا التوجيه كافياً لإبراز دور جوكوف في تلك الأيام العصيبة، فهو أبداً على معرفة بكافة القوى المنتشرة على ساحات

العملية المتباعدة، وهو يتابع ساعة بساعة تطورات الموقف، ويعطي لكل موقف الحلول المناسبة والصحيحة، ثم هو بعد ذلك يعطي زخماً معنوياً قوياً للقادة على مسارح العمليات، ويضعهم أمام مسؤولياتهم. ولقد كانت لجوكوف مواقفه المماثلة في كل يوم، عبر اتصالاته مع قادة الجبهات والفرق، وكانت اتصالاته الشخصية ذات تأثير لا يوصف.

استطاعت القوات الألمانية الدخول إلى (مينسك) مساء يوم ٢٨ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤١ رغم المقاومة الضارية، والقتال العنيد، الذي أبدته القوات السوفييتية للدفاع عن هذه المدينة الهامة ولكن القتال لم يتوقف، فقد تم زج قوات جديدة، واستمر الصراع المرير حول (مينسك). وعلى إثر ذلك تم تعيين مفوض الشعب (س. ك. تيموشنكو) لقيادة الجبهة الغربية.

مضت على بداية اجتياح القوات الألمانية للاتحاد السوفييتي ثلاثة أسابيع، استطاعت خلالها التوغل لمسافة ٥٠٠ ـ ٦٠٠ كيلومتر في عمق البلاد، واستولت على مناطق اقتصادية، وأهداف استراتيجية هامة، ولكنها خسرت مقابل ذلك حوالي ١٠٠ ألف شخص وأكثر من ألف طائرة وما يزيد على ١٥٠٠ دبابة (أي ٥٠ بالمائة من مجموع الدبابات التي زجتها ضد الاتحاد السوفييتي في بداية الحرب). وتكبدت القوات السوفييتية خسائر فادحة، ومال ميزان القوى بشكل خطير لمصلحة الألمان. وأمام هذا الموقف قررت القيادة السوفييتية الانتقال إلى الدفاع على امتداد الجبهة الاستراتيجية، فلا القوى ولا الوسائط كانت متوافرة للقيام بعمليات هجومية كبرى،

وكان من أهم أهداف الدفاع الاستراتيجي:

أولاً: تأخير القوات الألمانية على الخطوط الدفاعية لأطول وقت ممكن حتى تتاح الفرصة لنقل قوات من عمق البلاد، وتشكيل احتياطات جديدة، ودفعها ونشرها على أهم الاتجاهات.

ثانياً: إنزال أفدح الخسائر بالألمان وإنهاك قواتهم واستنزافها لتعديل ميزان القوى.

ثالثاً: إتخاذ التدابير لإخلاء السكان، والأهداف الصناعية إلى عمق البلاد، وكسب الوقت من أجل تحويل الصناعة إلى المجهود الحربي.

رابعاً: حشد أقصى ما يمكن حشده من القوى والوسائط، والانتقال إلى الهجوم المعاكس العام.

دارت أقسى المعارك وأشدها ضراوة وعنفاً للدفاع (سمولنسك). وخسرت القوات الألمانية ٢٥٠ ألف مقاتل بين ضابط وجندي. ولكن القوات الألمانية نجحت في اختراق الدفاعات، وبات تقدمها يهدد مدينة لينينغراد تهديداً خطيراً. ولكن الدفاع البطولي عن سمولنسك سمح للقيادة بإعادة تنظيم دفاعاتها على محاور موسكو، ولينينغراد. وكان دور (تيموشنكو) خلال تلك الفترة العصيبة، ذا أثر كبير في تنظيم الدفاع، وإدارة الحرب.

تم استدعاء جوكوف وتيموشنكو في نهاية شهر تموز ـ يوليو ـ

١٩٤١ لحضور اجتماع أعضاء المكتب السياسي، في منزله القريب (الداشا). ولما حضر القائدان، ودخلا على ستالين، بادرهما بقوله:

«خلاصة المسألة، أن المكتب السياسي قد ناقش أعمال تيموشنكو، وقرر إعفاءه من منصبه وهناك اقتراح بتعيين جوكوف لهذا المنصب» ثم وجه حديثه إلى جوكوف: «ما قولك أنت؟»، فيما كان ينتقل ببصره بين جوكوف وتيموشنكو. وصمت تيموشنكو غير أن جوكوف أجاب:

«الرفيق ستالين، إن تبديل الجبهات بصورة متكررة له تأثير ضار في سير العمليات. إذ يجب على قادة الجبهات الجدد أن يقوموا بأشق الأعمال بدون أن تتكون لديهم صورة صادقة عن الأحداث، ولم يمض على تيموشنكو في قيادة الجبهة أكثر من أربعة أسابيع، وقد استطاع أن يتعرف على القوات في موقعة سمولنسك تعرفاً جيداً، وأن يرى مقدرتها، ولم يدخر وسعاً، ولم يهمل شيئاً كان باستطاعته أن يفعله وهو في منصبه هذا، إلا فعله، وقد أوقف العدو في منطقة سمولنسك لمدة شهر كامل. وأعتقد أياً كان في مكانه، ما كان ليفعل أكثر مما فعله، وإن القوات تثق بقيادة تيموشنكو، وهذا هو الأساس، وأعتبر أن اعفاءه الآن من قيادة الجبهة ليس إنصافاً بحقه وليس مفيداً».

تشاغل ستالين بإشعال الغليون، ثم التفت إلى سائر أعضاء المكتب السياسي، وقال:

«ما قولكم بالموافقة على رأي جوكوف؟».

ودوى صوت في القاعة: «إنك على حق أيها الرفيق ستالين، قد

يعـدل تيموشنكـو الأوضاع». وانسحب تيمـوشنكـو وجـوكـوف، وتوجها كل إلى جبهته.

تابعت القوات الألمانية هجومها عـلى اتجاه لينينغـراد، وحققت انتصـارات ضخمة، إلا أنها لم تتمكن من الـوصـول إلى مشـارف لينينغـراد القريبـة. أما عـلى جبهة أوكـرانيا، فقـد حـاول الألمـان الوصول إلى اجتياحها بأسرع ما يمكن حتى يحرموا الاتحاد السوفييتي من أضخم قـواعده الصنـاعية والـزراعيـة، وليعـززوا اقتصـادهم بخدمات كريفوروجيه وما يتوافر فيها من مواد أولية، بالإضافة إلى فحم الـدون ومنغنيز نيكـوبول وقمـح أوكرانيـا. كـما أن اجتيـاح أوكرانيا يضمن للقوات الألمانية القدرة لـلانطلاق نحـو موسكـو. ولهذا فقد ركزوا جهدهم وأمكن لهم الوصول إلى الدنيبر، واختراقه نحو دينبر وبتروفسك وأوديسـا، مما أدى إلى تعقيـدات كبيرة عـلى الاتجاه الجنوبي الغربي بكامله.

وقد عكف جوكوف على دراسة هذا الوضع وتبين له بأن الألمان سيحاولون تحـطيم الجبهة المـركزيـة للوصول بـأسرع مـا يمكن إلى جانب الجبهة الجنوبية الغربية ومؤخرتها. وعلى هذا فـإن هجومهم على موسكو لن يبدأ إلا بعد أن يتم لهم إزالة الخـطر الذي يتهـدد مجنبتهم من ناحية الجبهة المركزية السـوفييتية وإلا بعـد أن يتم لهم دعم تجميع قواتهم على الاتجاه الشمالي الغربي، مما يدفعهم لبـذل أقصى جهد ممكن للاستيلاء على لينينغراد بأسرع ما يمكن، لتـأمين الاتصال بالقوات الفنلندية.

وأعاد جوكوف الموازنة بين كافة الاحتمالات، فتأكدت له حقيقة

استنتاجاته، وصحتها، فقرر رفعها فوراً إلى القائد الأعلى ـ ستالين ـ لاتخاذ التدابير المضادة. واتصل بستالين يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤١، وطلب مقابلته لأمر مستعجل. وتأبط خريطة الموقف الاستراتيجي، وخريطة تجميع القوات الألمانية، مع النشرة الخاصة بحالة القوات السوفييتية والاحتياطات المادية والفنية في الجبهات والمركز، وانطلق إلى غرفة ستالين ـ في الكريملين ـ ماراً بغرفة الاستقبال، حيث كان يجلس مدير مكتبه الذي استوقف جوكوف بقوله:

«اجلس، عليك أن تنتظر ممثل هيئة مفوضية الجيش ميخليس».

دعي جوكوف بعد عشر دقائق لمقابلة ستالين الذي بادره بقوله:

«هلم هات ما عندك!».

وبسط جوكوف خرائطه على الطاولة، وشرح الموقف مبتدئاً من الاتجاه الشمالي الغربي، ومنتهياً بالاتجاه الجنوبي الغربي. وذكر أرقام الخسائر حسب الجبهات، ومسيرة عملية تشكيل الاحتياطات وأوضح تمركز القوات الألمانية بالتفصيل، وتحدث عن تجميعها، وعرض طبيعة عملياتها الاستراتيجية المحتملة. واستمع ستالين إلى جوكوف باهتمام كبير. وانحنى قليلاً ليمعن النظر في الخرائط وفي الكتابات الدقيقة عليها. غير أن ميخليس تدخل بصورة جانبية وسأل جوكوف:

«ولكن من أين لك أن تعرف كيف ستعمل القوات الألمانية؟».

وأجابه جوكوف:

«إنني لست عالماً بالخطط التي ستعمل بموجبها القوات الألمانية، إنما بعد تحليل الموقف، يتبين أنها لا يمكن أن تعمل بغير هذه الطريقة، وأن تنبؤاتنا مبنية على تحليل حالة القوات الألمانية وأوضاعها، وبالدرجة الأولى التجميعات المدرعة والميكانيكية التي لها الدور القيادي في عملياتها الاستراتيجية». وقال ستالين:

«تابع كلامك». فاستأنف جوكوف حديثه:

«لن يتمكن الألمان من خوض عملية هجومية على اتجاه موسكو خلال الأيام القريبة، بسبب الخسائر الكبيرة التي نزلت بقواتهم، وليس لديهم احتياطات استراتيجية قوية لتأمين الجناحين الأيمن والأيسر لمجموعة جيوش الوسط، ولن يستطيع الألمان بدء عملياتهم على اتجاه لينينغراد ما لم تتوافر لهم قوات دعم إضافية. وفي أوكرانيا يمكن أن تدور المواقع الرئيسة في مكان ما من منطقة (دنيبر - بتروفسك) حيث وصل إلى هناك التجميع الرئيسي من القوات المدرعة الألمانية التابعة لمجموعة جيوش الوسط. وإذن، فان أضعف قطاع في جبهتنا، وأخطره، هو قطاع الجبهة المركزية. لا سيما وأن الجيوش التي تغطي الاتجاهات المؤدية إلى (أوينتتس وغومل) هي جيوش قليلة العدد، ضعيفة التسلح، ويمكن أن يفيد الألمان من هذا المكان الضعيف لتوجيه ضربة إلى جنب قوات الجبهة الجنوبية الغربية وإلى مؤخرتها».

وسأل ستالين: «ماذا تقترح؟».

وأجاب جوكوف: «تعزيز الجبهة المركزية قبل كل شيء، بما لا يقل عن ثلاثة جيوش تدعمها المدفعية، جيش واحد من أصل

قوات الاتجاه الغربي، وجيش ثان من أصل قوة الجبهة الجنوبية الغربية، وجيش ثالث من احتياط القيادة العليا، مع وضع قائد خبير ونشيط على رأس قيادة الجبهة، واقترح الجنرال (فاتوتين) على وجه التحديد».

واعترض ستالين بقوله: «هل هذا يعني بأنك ترى أنه من الممكن إضعاف إتجاه موسكو؟».

ورد جوكوف: «كلا، لا أرى ذلك، فخلال ١٢ ـ ١٥ يوماً يكون باستطاعتنا إحضار ما لا يقل عن ثمانية فرق كاملة العدد والتسلح من الشرق الأقصى، ومنها فرقة مدرعة واحدة. وهذه المجموعة ليس من شأنها إضعاف اتجاه موسكو، بل على النقيض زيادة قوته».

وهنا أيضاً تدخل ميخليس مقاطعاً وقال بلهجة ساخرة: «والشرق الأقصى هل نسلمه لليابانيين؟».

ولم يأبه جوكوف لهذا الاعتراض فتابع حديثه: «من الضروري سحب الجبهة الجنوبية الغربية جميعها إلى ما وراء نهر الدنيبر، وحشد الاحتياطات خلف نقاط الفصل بين الجبهتين المركزية والجنوبية الغربية، بما لا يقل عن خمس فرق معززة».

وسأل ستالين: «وماذا عن كييف؟».

كان جوكوف يعرف عن يقين ما تعنيه عبارة (تسليم كييف) بالنسبة للمواطنين السوفييت، وبالنسبة لستالين بالذات، ولكنه لم يستسلم لعواطفه، وباعتبار أنه قائد عسكري مسؤول، فقد كان

من واجبه اقتراح القرار الوحيد الممكن، لمواجهة الموقف الخطير المائل أمامه، فقال:

«ينبغي تسليم كييف، ويلزمنا أسبوع لتنظيم ضربة معاكسة في الجبهة الغربية من أجل إزالة قوس ـ ييلنا ـ فقد يفيد العدو من رأس الجسر هذا لضرب موسكو».

واحتد ستالين فقال: «أية ضربة معاكسة بعد ذلك، ما هذا الهراء، كيف تجرؤ بتسليم كييف للعدو؟».

ولم يتمكن جوكوف من كتم انفعاله، فأجاب:

«إذا كنت ترى أن رئيس هيئة الأركان العامة يتكلم هراء، فلا عمل له إذن هنا، وأرجو إعفائي من منصب رئيس هيئة الأركان العامة، وإرسالي إلى الجبهة، فقد أكون هناك أكثر فائدة لوطني».

وهنا قال ستالين: «هدىء من روعك، ومع ذلك، فإذا طرحت المسألة بهذا الشكل، فإننا نستطيع أن نتدبر أمورنا بدونك».

فقال جوكوف معقباً: «إن لدي وجهة نظري الخاصة بشأن الموقف، وطريقة إدارة الحرب، ويجدر بي أن أعرضها كما أفكر أنا، وكما تفكر به هيئة الأركان».

وقال له ستالين: «إذهب للعمل، ونحن سنتشاور في الأمر ثم نستدعيك».

لملم جوكوف خرائطه وأوراقه، وخرج من الغرفة والغيظ يملأ

صدره، وبعد أربعين دقيقة استدعاه ستالين، فلما دخل عليه بادره بقوله:

«لقد تدارسنا الأمر، وقررنا إعفاءك من منصب رئيس هيئة الأركان العامة، وسيعين ب. م. شابوشنيكوف رئيساً لهيئة الأركان العامة، حقاً إن صحته ليست على ما يرام، ولكن لا بأس سنساعده ما أمكننا ذلك».

وسأل جوكوف: «إلى أين تأمرني أن أذهب».

فسأله ستالين: «إلى أين تفضل؟».

وأجاب جوكوف: «انني على استعداد للقيام بأي عمل. أستطيع أن أقود فرقة، فيلقاً، جيشاً، جبهة».

فقال له ستالين: «هون عليك، هون عليك، إنك كنت قد تكلمت عن تنظيم ضربة معاكسة على ييلنا. إذن تولج هذا الأمر. سنعينك قائداً للجبهة الاحتياطية، متى تستطيع أن تذهب؟».

وأجاب جوكوف: «بعد ساعة».

وقال ستالين: «حسناً، ولكن ليس قبل أن تشرب الشاي معنا».

«ليس للتمهيد المدفعي، أو القصف الجوي أية قيمة،
إلا إذا نفّذا بدقة على الأهداف،
وليس على مساحات من الأرض أو على أهداف مفترضة»

- جوكوف -

الفصل الثاني

١ ـ التحوّل الحاسم (ييلنا ولينينغراد).
٢ ـ الدفاع عن موسكو.
٣ ـ على جبهة ستالينغراد.
٤ ـ انتصارات متتالية (في عام الانتصارات).
٥ ـ تحرير أوكرانيا وروسيا البيضاء.
٦ ـ البدء باجتياح ألمانيا.
٧ ـ يوم الثأر.
٨ ـ قصة جوكوف أم هي قصة الحرب؟

١ ـ التحوّل الحاسم (يلنا ولينينغراد)

وقف جوكوف أمام مصيره، لطالما أضنى نفسه حتى وصل إلى ما وصل إليه، ولطالما وصل الليل بالنهار في العمل الجاد الدؤوب حتى بلغ ما بلغه، ولقد اجتاز عبر مسيرته الشّاقة عقبات كأداء، وصعوبات شاقّة، توقف أمامها كثيرون، واجتازها هو بعلمه وعمله، وها هو الآن أمام اختيار صعب، وامتحان عسير، ذلك أن ستالين لم يكن يرحم من يفشل في تلك الأيام العسيرة، وقد تكون نهايته أمام محكمة عسكرية، تضع حداً لا لطموحاته فحسب، بل لحياته أيضاً. فقد كان لزاماً تقديم الضحايا باستمرار، لتغطية كل فشل، فهل سيكون جوكوف أحد هذه الضحايا؟ ولكن ما هي النتيجة المقابلة لو استطاع جوكوف تحقيق النجاح في تنفيذ مخططه؟ إن المجد عندها سيفتح أبوابه الرحبة على مصاريعها. يا له من ثمن: النصر أو القبر. إنه تحوّل حاسم بحق. فليمض جوكوف لمواجهة قدره، وليتقدم لمقابلة مصيره.

ما كاد جوكوف يفرغ من شرب الشاي مع ستالين، حتى مضى مستعجلاً نحو مقر هيئة أركان الجبهة الاحتياطية في (غجاتسك)، فلما وصلها توقف فيها لفترة قصيرة درس خلالها الموقف على مختلف

القطاعات، ثم توجه إلى منطقة يبلنا، فوصلها في وقت متأخر، من مساء اليوم ذاته (٢٩ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤١)، فاستقبله قائد الجيش ٢٤ ـ الجنرال راكوتين ـ وقادة صنوف القوّات، وضباط هيئة أركان هذا الجيش. وتبينّ لجوكوف لدى دراسته الموقف مع هؤلاء القادة، أن مستواهم ضعيف في مجالي التكتيك والعمليات.

وفي صباح اليوم التالي، توجه جوكوف إلى منطقة يبلنا للاستطلاع، حيث كانت تدور هناك معارك عنيفة بنيران المدفعية. وبعد تقدير الموقف، اقتنع جوكوف بأن القوات الألمانية قد أقامت هناك دفاعاً جيّداً، وأنّه من الواضح أنها ستقاتل بعناد. فعلى الحد الأمامي للدفاع، وفي عمقه، طمر الألمان دباباتهم ومدافع الاقتحام لديهم، فحولت قوس يبلنا إلى منطقة محصنة. أما على جانب القوات السوفييتية، فقد تبين لجوكوف أن هذه القوات لم تكشف الجهاز الناري الألماني بكامله، فكانت رماياتها بالمدفعية تصب على نقاط فرضية، وليس على أهداف حقيقية، وكذلك فإنه لم تكن قوات الجيش ٢٤ كافية لشن الضربة المضادة. وبذلك استنتج أنه بحاجة لفترة ١٠ ـ ١٢ يوماً، ريثما يتم له حشد فرقتين حتى ثلاث فرق، مع قطعات المدفعية، بالإضافة إلى ما تحتاجه الدراسة العميقة، لتنظيم الدفاع الألماني. وعلى هذا فقد كان من المحال شن الهجوم المضاد، قبل النصف الثاني من شهر آب ـ أغسطس ـ ١٩٤١، على أن تستمر القوات بأعمالها القتالية النشطة، لإنهاك القوات الألمانية المواجهة لها، ودراسة تنظيمه الدفاعي، وإجراء عملية إعادة تجميع القوى، والوسائط، استعداداً للمعركة الحاسمة.

وما أن أقبل منتصف شهر آب ـ أغسطس ـ حتى توافرت لجوكوف المعلومات الكافية، عن التنظيم الدفاعي الألماني، ووسائطه النارية، وتنظيمه الهندسي. كما علم جوكوف عن طريق استجواب الأسرى، أن قائد الجيش الألماني في ييلنا ـ غودريان ـ قد أصدر أمراً خاصاً، جاء فيه:

«لقد قطعنا مسافة كبيرة، وعلينا أن نستقدم الاحتياط، وعند ذلك، نتابع التقدم إلى الأمام».

وباتت العملية بالنسبة لجوكوف، هي عملية صراع مع الوقت. وقد استثمر هذا الوقت حتى أبعد الحدود، من أجل وضع مخططه التفصيلي، للعملية الهجومية، والتي شملت التحديد الدقيق لواجبات المدفعية وأهدافها، وواجبات القوات الجوية، وكذلك واجبات التشكيلات، والوحدات المشتركة في العملية. وعندما فرغ جوكوف من استعداده، تلقى من القيادة العليا برقية (يوم ١٩ آب ـ أغسطس ـ) جاء فيها:

«نعتبر توقعاتك بشأن التقدم المحتمل للعدو، على اتجاه تشيرنيغوف ـ كونوتوب ـ بريلوك، هي توقعات صحيحة. إن تقدم العدو، يعني التفافه حول تجميع كييف، من الضفة الشرقية لنهر الدنيبر، وتطويق الجيشين، الثالث والحادي والعشرين. ومع توقع مثل هذا الاحتمال الكريه، والبعيد الوقوع، ومن أجل مجابهته، تم تشكيل جبهة، بقيادة بريمنكو، كذلك أتخذت تدابير أخرى، سنعلمك عنها، ببرقية خاصة، نتمنى إيقاف تقدم العدو. ستالين. شابوشنيكوف».

لقد جاءت هذه البرقية بلسماً لجرح جوكوف، فقد كانت بمثابة اعتذار من ستالين عن موقفه، يوم طرح جوكوف توقعاته، وكانت في الوقت ذاته، تعزيزاً لصحة توقعاته. لقد كسب جوكوف حتى الآن نصف الجولة، وبات لزاماً عليه، أن يكسب النصف الثاني، على أرض المعركة.

انطلق جوكوف لقيادة هجومه، في اليوم التالي (يوم ٢٠ آب ـ أغسطس ـ). ودارت معارك ضارية، وعنيفة، على كافة قطاعات الجبهة. واستمرت المعارك في الليل والنهار. وأخذ نتوء ييلنا في التضيق تدريجياً، في حين كانت القوات السوفييتية، تتابع إحكام الطوق، حول القوات الألمانية التي أخذت بالانهيار، ثم أخذت في التراجع، والانسحاب، خوفاً من الحصار، مستفيدة من ظلمة الليل، مخلّفة وراءها أعداداً ضخمة من القتلى، والأسلحة الثقيلة، والدبابات. ودخلت القوات السوفييتية، مدينة ييلنا يوم ٦ أيلول ـ سبتمبر ـ. وخسر الألمان على أرض جبهة ييلنا، بعد سبعة عشر يوماً من القتال العنيف، ما بين ٤٥ و٤٧ ألف مقاتل، بين قتيل وجريح، علاوة على كميات ضخمة، من الرشاشات، والمدفعية.

لقد زال الخطر من قوس ييلنا، ووصلت القوات السوفييتية في مطاردتها للقوات الألمانية، حتى نهر (ستريانا) يوم ٧ أيلول ـ سبتمبر ـ، وأصدر أوامره في اليوم التالي، لتطوير الهجوم. وفي **هذا اليوم ذاته، (يوم ٨ أيلول ـ سبتمبر ـ) تلقى جوكوف، أمراً**

بالحضور إلى الكريملين، لمقابلة ستالين. فلما حضر، استقبله بحفاوة، وبادره بقوله:

«كان الأمر حسناً في منطقة ييلنا، وكنت آنذاك محقّاً في تصوراتك، ولكن إلى أين تفكر بالذهاب الآن؟».

ورد جوكوف على الفور: «إلى الجبهة».

وعقب ستالين: «إلى أي جبهة؟».

فقال جوكوف: «إلى حيث ترى ذلك ضرورياً».

فقال ستالين: «إذن اذهب إلى لينينغراد، فهي في وضع حرج للغاية. وإذا احتل الألمان لينينغراد، واتصلوا بالفنلنديين، فمن الممكن أن يلتفوا على موسكو، من الشمال الشرقي، وعند ذلك، سيزداد الموقف سوءاً».

صمت ستالين قليلاً، ثم استأنف حديثه: «لقد ساءت الأمور، على الإتجاه الجنوبي الغربي، ولقد قررنا تبديل قادة هذا الاتجاه، فمن تقترح إرساله إلى هناك؟».

وأجاب جوكوف: «لقد حصل الماريشال تيموشنكو في الفترة الأخيرة، على خبرة عالية في تنظيم الأعمال القتالية، وهو يعرف أوكرانيا جيداً، لذلك، فأنا أشير بإرساله».

وعقّب ستالين على ذلك، بقوله:

«إنك على حق. ولكن من نضع مكان تيموشنكو على الجبهة الغربية؟».

أجاب جوكوف: «الجنرال كونييف».

ووافق ستالين على الفور، وأصدر أمره باستدعاء الماريشال تيموشنكو، كما أصدر أمراً مماثلاً، بتسليم قائد الجيش التاسع عشر ـ الجنرال كونييف ـ قيادة الجبهة الغربية.

كان جوكوف على وشك الاستئذان للإنصراف، عندما باغته ستالين بسؤاله: «كيف تقدر أنت، خطط العدو المقبلة؟».

وأجاب جوكوف: «إن أخطر قطاع بالنسبة إلينا، في الوقت الحاضر، بالإضافة إلى لينتغراد، هو قطاع الجبهة الجنوبية الغربية. وأعتقد أن الموقف قد يسوء جداً، خلال الأيام القريبة، القادمة. فمجموعة جيوش الوسط، الألمانية، التي وصلت، تستطيع أن تطوي الجيش ٢١، وتندفع إلى مؤخرة الجبهة الجنوبية الغربية. إني على ثقة، بأن مجموعة جيوش الجنوب، التي احتلت رأس جسر في منطقة (كريمينتشوغ)، ستقوم بتعاون عملياتي، مع جيش غودريان، مما يهدد الجبهة الجنوبية الغربية بخطر كبير، وإني أقترح، للمرة الثانية، أن تُسحب على الفور، كل مجموعة كييف إلى الضفة الشرقية لنهر الدنيبر، وتشكيل إحتياطات منها، في مكان ما، في منطقة كونوتوب».

وسأل ستالين: «ولكن ماذا عن كييف؟».

وعاد جوكوف للقول: «مهما كان الأمر شاقاً، علينا أن نتخلى عن كييف، وليس أمامنا أي مخرج آخر».

اتصل ستالين على الفور، بقيادة الجبهة الجنوبية الغربية، (شابوشنيكوف ـ وخروتشوف)، فعلم أن قيادة هذه الجبهة، قررت البقاء في مواقعها، وعدم الانسحاب اعتماداً منها، على ما ظهر لها، من تنظيم دفاعي، حسبته متيناً وقوياً، مخالفة بذلك رأي جوكوف. ولم يكن باستطاعة ستالين، إلا الموافقة على هذا القرار. وكان لزاماً على قيادة هذه الجبهة دفع الثمن غالياً، بعد ذلك بقليل، نتيجة سوء تقديرها للموقف. ولم يبق أمام جوكوف، إلا التوجه لجبهته. وعندما ودّع ستالين، قال له ستالين:

«خذ هذه الرسالة إلى فوروشيلوف، أما الأمر بتعيينك، فسيصدر فيما بعد، وعندما تصل إلى لينينغراد». وكان نص الرسالة:

«سلّم قيادة الجبهة إلى جوكوف، واحضر أنت، على الفور إلى موسكو».

كانت لينينغراد، قد باتت مطوقة، ومعزولة عن أي اتصال بالأراضي السوفييتية، وبقي الوصول إليها، محدداً بالجو، أو عن طريق بحيرة لادوغا. فعاشت لذلك أياماً عصيبة، وبلغ موقف القوات، والسكان، مبلغاً لا يُطاق احتماله.

وفي هذا الجو، استقل جوكوف الطائرة من مطار موسكو، يوم ٩ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤١، ووصل إلى مطار لينينغراد بعد أن كادت طائرته تصطدم بالطائرات الألمانية، وما كاد يهبط إلى الأرض حتى استقل سيارة لتنقله إلى مقر هيئة أركان الجبهة في (سمولني).

وهناك استوقفه الحرس وطلب منه إذن الدخول، ولكن جوكوف لم يكن يحمل مثل هـذا الإذن . ورغم أنه عـرّف الحرس بنفسـه فقد اضطر للتوقف لمدة ربع ساعة إلى أن سمح له بـالدخـول إلى مقر هيئة الأركان، حيث كان المجلس العسكري للجبهة يعقد في تلك الساعة اجتماعاً حضره قادة صنوف الأسلحة ورؤساء أركانهم وقائد أسطول البلطيق ومدراء المؤسسات الحكومية في المدينـة . وتقرر في هذا الاجتماع، بتوجيه جوكوف، «الدفاع عن لينينغـراد حتى آخر رجل، وعدم الإنسحاب أو التراجع ولو خطوة واحدة» .

استلم جـوكوف قيـادة الجبهـة في يـوم ١٠ أيلول ـ سبتمبـر ـ فقضى ليل ١٠ ـ ١١ أيلول في دراسة المـوقف على كـافّة قـطاعات الجبهة، مع دراسة القوى، وتقرر في نهاية الاجتماع :

١ ـ سحب قسم من المدافع المضادة للطائرات من الدفاع الجـوي عن المـدينة، ووضعهـا للرمي المباشر لتعـزيز الـدفاع المضـاد للدبابات على أخطر قطاعات الدفاع عن لينينغراد .

٢ ـ تركيز نيران مدفعية السفن بكاملها لدعم قوات الجيش ٤٢ في قطاع أورتيسك ومرتفعات بولكوف .

٣ ـ البدء بإنشاء نظام دفـاع هندسي عميق عـلى كافـة الإتجاهـات المعرضة للهجوم، بصورة فورية .

٤ ـ نقل قسم من قوة الجيش ٢٣ من مضيق كاريل لـدعم الجيش ٤٢ المدافع عن منطقة أورتيسك .

٥ ـ البدء بتشكيل ٥ ـ ٦ ألوية مشاة مستقلّة على حساب بحّارة أسطول البلطيق ومن أفراد المنظمات التعليمية في لينينغراد وقوات الأمن خلال مدة لا تزيد على ٦ ـ ٨ أيام.

وقد تم البدء بتنفيذ هذه التدابير على الفور، ومنذ صباح اليوم التالي، حيث لم تعد القوات السوفييتية تقف عند حدود الدفاع، وإنما أخذت في شن هجمات على القوات الألمانية المهاجمة. وكان كل يوم يتم كسبه يزيد من قدرة الدفاع، بقدر ما يضاعف من استنزاف القوات الألمانية التي عجزت عن تدمير تجميع لينينغراد، فأخذت مع نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤١، بتدمير المدينة بإغاراتها الجوية وبنيران المدفعية، واستمر الصراع لمدة ٩٠٠ يوم.

وكان هذا الصمود هو بداية التحول الحاسم. وكان من دواعي الفخر والإعتزاز لجوكوف، أن قام بقيادة جبهة لينينغراد خلال مرحلة اقتراب القوات الألمانية منها، واستطاع أن يشهد التحول الحاسم عندما كان الخطر المميت يحيق بها. وإذا كان جوكوف قد شهد بداية هذا التحول فإنه بالمستطاع تجاوز مسيرة الأحداث، والقفز حتى كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٣ عندما عاد جوكوف ليشهد نهاية الأحداث في لينينغراد، عندما تم تكليفه مع فوروشيلوف لتنسيق أعمال جبهتي ليينغراد وفولخوف، من أجل اختراق الحصار الألماني. وتدمير قوّاته.

تحدث ستالين إلى جوكوف ـ لاسلكياً ـ يوم ٥ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٤١ وقال له:

«ثمة مسألة نريد أن نبحثها معك، ألا يمكنك أن تركب طائرة وتحضر إلى موسكو، إذ أنه بسبب سوء الموقف على الجناح الأيسر للجبهة الاحتياطية في منطقة يوخنوف، فقد أرادت هيئة القيادة العليا أن تبحث معك بعض التدابير الضرورية. . ».

وأجاب جوكوف: «أرجو موافقتكم على أن أطير اليكم صباح الغد ـ ٦ تشرين الأول ـ أكتوبر».

ورد ستالين: «حسناً، غداً نهاراً ننتظرك في موسكو».

لم يتمكن جوكوف في نهار اليوم التالي من مغادرة مقر قيادته بسبب بعض الأحداث الهامة، وأرسل إعلاماً إلى القيادة. وفي مساء اليوم ذاته (٦ تشرين الأول ـ أكتوبر) عاد ستالين للإتصال، وسأل جوكوف:

«كيف الحال عندكم؟». وردّ جوكوف:

«لقد ضعف هجوم الألمان، وبحسب معلومات الأسرى، فقد تعرضت قواتهم خلال معارك شهر أيلول ـ سبتمبر ـ للخسائر الفادحة التي أرغمتهم على الانتقال للدفاع أمام لينينغراد. ويقوم العدو الآن بقصف المدينة بالمدفعية والطيران. وقد كشف استطلاعنا الجوي تحرك أرتال ضخمة من الدبابات والمشاة الميكانيكية المعادية من منطقة لينينغراد إلى الجنوب. ويبدو أنهم ينقلون قوّاتهم إلى اتجاه موسكو». وتوقف جوكوف قبل أن يطرح سؤاله: «هلاّ زالت دعوتي للحضور إلى موسكو قائمة».

وأجاب ستالين: «اترك محلّك رئيس أركان الجبهة، واحضر أنت إلى موسكو».

وركب جوكوف الطائرة صباح يوم ٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٤١، وطار إلى موسكو، وتوجه فوراً إلى الكريملين، فأعلمه رئيس الحرس أن ستالين مريض بالأنفلونزا وأنه يعمل في استراحته القريبة (الداشا) فتوجه جوكوف إليها.

٢ ـ الدفاع عن موسكو

دخل جوكوف على ستالين، وحيّاه، فرد ستالين التحية بإيماءة من رأسه، وأشار إلى خارطة، وقال:

«انظر! لقد نشأ هنا موقف صعب جداً. إنني لا أستطيع أن أحصل من الجبهة الغربية على تقرير واضح عن الوضع الحقيقي للأمور هناك. إننا لا نستطيع أن نتخذ قراراً بدون أن نعرف أين يهاجم وبأي تجميع؟ ثم ما هو وضع قواتنا؟ اذهب فوراً إلى أركان الجبهة الغربية، وابحث الوضع بالتفصيل، ثم اتصل بي من هناك في أي وقت، وسأنتظر».

توجه جوكوف إلى الجبهة، فوصلها ليلاً. ولما دخل هيئة أركان الجبهة، وجد أن القادة قد اجتمعوا في مكتب القائد. وكانت غرفة القائد شبه مظلمة، إلّا من شموع باهتة، وقد جلس حول المائدة القادة الذين كانت مظاهر الإعياء بادية عليهم جميعاً. وأخبرهم جوكوف أنه حضر بتكليف من القائد الأعلى ليبحث الموقف معهم، وليبلغه عنه بالهاتف.

كانت تدافع عن موسكو ثلاث جبهات هي الجبهة الغربية (بقيادة الجنرال كونييف) والجبهة الإحتياطية (بقيادة الماريشال بوديوني) وجبهة بريانسك (بقيادة الجنرال يريمنكو) وقد شملت قوات هذه الجبهات ٨٠٠ ألف مقاتل ومعهم ٧٨٢ دبابة و٦٨٠٨ مدافع و٥٤٥ طائرة. وقد قام الألمان بهجومهم على هذه الجبهات الثلاث في ٣٠ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤١ وتمكنوا من تمزيقها، وتدمير قسم كبير من قوّاتها، وحصار قسم آخر منها، وانسحب الباقون وهم يقاتلون قتالاً تراجعياً نحو خطوط دفاعية جديدة أقرب من سابقتها إلى موسكو.

اتصل جوكوف بستالين في الساعة ٠٢,٣٠ من فجر يوم ٨ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ وقال له: «إن الخطر الأكبر حالياً ينحصر في التغطية الضعيفة على خط موجايسك، وبإمكان القوات المدرعة الألمانية الظهور بصورة مباغتة أمام موسكو، لذلك يجب استقدام قوات للدفاع عن هذا الخط».

وسأل ستالين: «أين هما الجيشان ١٩ و٢٠ ومجموعة بولدين من الجبهة الغربية. وأين هما الجيشان ٢٤ و٣٢ من الجبهة الاحتياطية؟».

ـ أجاب جوكوف: «مطوّقة غرب، وشمال غرب فيازما».

ـ وعاد ستالين للسؤال: «ماذا تنوي أن تفعل؟».

ـ أجاب جوكوف: «سأذهب إلى بوديوني!».

ـ وقال ستالين: «هل تعلم أين هي الآن هيئة أركان بوديوني؟».

ـ فقال جوكوف: «سأبحث عنها في منطقة مالايارو سلافتس».

وأنهى ستالين المكالمة بقوله: «حسناً! اذهب إلى بوديوني، وأعلمني عن الموقف من هناك».

كان الطقس ممطراً، والضباب كثيفاً، والرؤية محدودة، فتوجه جوكوف إلى قرية أبينسكوي التي تبعد عن موسكو مسافة ١٠٥ كم. وعندما وصلها عثر على عاملي لاسلكي يمدان خطاً هاتفياً. فسألهما عن مقر قيادة الجبهة، فعلم منهما أنها انتقلت قبل ساعتين إلى بيوت تقع وسط الغابة في الجبل. فتوجه جوكوف ووصل إلى غرفة ممثل هيئة مفوضية الجيش (ل. س. ميخليس) وكان معه رئيس هيئة أركان الجبهة. وقال ميخليس:

«أنظر بأية حالة نحن هنا. إنني أجمع الآن فلول القوات المتراجعة بدون نظام، وأعمل في نقاط التجمع لإعادة تسليحها، وتشكيل قطعات جديدة منها». وحصل جوكوف على ما توافر من معلومات عن موقف الجبهة الاحتياطية، ثم اتجه إلى (يوخنوف) لاستطلاع الموقف على الأرض بسرعة.

عبر جوكوف نهر (بروتفا) إنه يعرف الأرض في هذه المناطق جيداً، ولطالما سار بها طولاً وعرضاً عندما كان صغيراً. إن قريته (سترلكوفكا) تقع على بعد عشر كيلومترات فقط من مقر قيادة الجبهة الاحتياطية (أبنينسك). وفي هذه القرية أمّه وأخته وأطفالها

الأربعة، فماذا سيكون مصيرهم لو احتلّ الألمان القرية، وعرفوا أنهم أقارب جوكوف؟ لا ريب أنهم سيقدمون على إعدامهم. فماذا لو ذهب لزيارتهم؟ ولكن لا، إن الوقت لا يسمح بذلك، ولكن من الأفضل أن يسرع إلى نقلهم إلى موسكو، وقد فعل ذلك في الوقت المناسب. إذ وصل الألمان بعد أسبوعين إلى القرية، ودمروها في جملة ما دمروه من قرى الاتحاد السوفييتي ومدنه. المهم في الأمر هو أنّ جوكوف لم ينسق مع عاطفته وهو يسير بحثاً عن مقر قيادة الجبهة الاحتياطية، حتى إذا ما وصل إليه، ودخل على (بوديوني) وجده غارقاً وحده وهو يفكر في الموقف البارز أمامه على الخارطة فلما شعر بدخول جوكوف وشاهده أمامه، هبّ لمصافحته بحرارة، وسأله:

« من أين أنت قادم؟».

ونظر جوكوف ملياً وهو يتأمل قسمات بوديوني الذي رسم الإرهاق والسهر علاماته الواضحة على وجهه، ثم قال له:

«جئت من عند كونييف».

وعاد بوديوني للسؤال: «كيف الحال عنده؟ منذ يومين لم يجر بيننا أي اتصال. كنت بالأمس في زيارة لهيئة أركان الجيش ٤٣، وقد تحرّكت خلال غيابي قيادة الجبهة، ولا أدري أين هي الآن».

وأجابه جوكوف: «لقد وجدتها على بعد ١٠٥ كم من موسكو، في الغابة، على يسار جسر الخط الحديدي القائم على نهر بروتفا، وهم ينتظرون قدومك إلى هناك. أما الجبهة الغربية فإن الجزء

الأكبر من قواتها قد وقع في التطويق، مع الأسف».

وقال بوديوني معقّباً: «ليس الوضع عندنا بأفضل، فالجيشان ٢٤ و٢٣ قد عزلا، وكدت أقع نهار الأمس بالأسر بين يوخنوف وفيازما، وكانت تتحرّك باتجاه فيازما أرتال ضخمة من الدبابات والآليات ويبدو أن هدفها تطويق المدينة من الشرق».

وسأل جوكوف: «بيد من يوخنوف الآن؟».

وأجاب بوديوني: «الآن لا أعرف، كان يوجد على نهر أوغرا ما يقارب فوجي مشاة، ولكن بدون مدفعية، وأعتقد أن يوخنوف هي الآن في يد العدوّ».

وعاد جوكوف للسؤال: «ولكن من يغطي الطريق الآن من يوخنوف إلى مالوياروسلافيتس؟».

فأجابه بوديوني: «عندما حضرت إلى هنا لم أصادف إلا ثلاث رجال من الشرطة، فقد غادرت السلطة المحلية المدينة».

وهنا قال جوكوف: «سأذهب أنا إلى منطقة يوخنوف، وتذهب أنت إلى أركان الجبهة لدراسة الموقف، وإطلاع هيئة القيادة العليا على الوضع، وإحاطة القائد الأعلى علماً بمقابلتنا. وقل له إنني ذهبت إلى كالوغا حيث يجب دراسة الموقف هناك بدقة».

وصل جوكوف في سيره إلى بلدة (ميديني) فلم يجد بها أحداً، فتابع سيره بحذر كبير، مع التوقف ما بين فترة وأخرى للمراقبة، حتى لا يجد نفسه في خطوط العدو، وعندما اقترب مسافة ١٢ كم

من يوخنوف، انتصبت أمامه فجأة مجموعة من الجنود المسلحين الذين كانوا يلبسون ثياب رجال المدرعات ـ قلنسواتهم ـ وتقدم أحدهم إلى جوكوف، وقال له:

«ممنوع الذهاب إلى أبعد من ذلك، فمن تكون أنت؟».

وعرّفه جوكوف بنفسه، وسأله: «أين هي قطعتك؟».

وأجابه الجنديّ: «هنا في الغابة وعلى مسافة مائة متر أقيم مقر قيادة اللواء المدرع».

شعر جوكوف بالفرحة، إذ وجد قوة متماسكة. ولما قابل قائد اللواء المدرع الحادي عشر وسأله عن الموقف، أجابه هذا:

«احتل العدو يوخنوف، كما احتلت قواته المتقدمة الجسر على نهر أوغرا. وقد وجهت أنا استطلاعاً إلى كالوغا، ولم يكن العدو قد وصل إلى المدينة. ولكن تجري الآن معركة ضارية في منطقة كالوغا، حيث تعمل فرقة المشاة الخامسة، وبعض القطعات المتراجعة من الجيش ٤٣، ولوائي احتياط القيادة. وأنا هنا لليوم الثاني ولم أتلق أية مهمة».

أصدر جوكوف أمره إلى قائد اللواء المدرع الحادي عشر بقوله: «أرسل ضابط ارتباط إلى أركان الجبهة الاحتياطية في منطقة ـ أوبنينسكويه ـ عبر نهر بروتغا. وأعلم بوديوني بالموقف، وانشر جزءاً من اللواء، ونظم الدفاع بهدف تغطية إتجاه ميديني. وأبلغ الأركان العامة عن طريق أركان الجبهة الاحتياطية عن الأوامر التي تلقيتها

مـني، وأخبـرهم بـأنني ذاهب إلى كـالـوغـا، حيث فـرقــة المشـاة الخامسة».

لم يكد جوكوف يصل إلى كـالوغـا حتى وافاه ضـابط إتصال، وسلمه برقية طلبت إليه الحضور إلى مقر هيئة أركان الجبهة الغربية في يوم ١٠ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ كـراسـنــوفيـدوف. ووصل جوكوف في الموعد المحدد، فاتصل به ستالين، وقال له:

«قررت هيئة القيادة العليا تعيينك قائداً للجبهة الغربية على أن يبقى كونييف نائباً لك. فهل تمانع؟». وأجاب جوكوف: «كـلاّ! كيف لي أن أمـانع؟ إنمـا أرى أن يعيّن كـونييف قائـداً لمجمـوعـة القوات على اتجاه كالينـين. وهذا الإتجـاه بعيد جـداً، وينبغي أن يكون هناك قيادة مساعدة للجبهة».

وأجـابه ستـالين: «حسنـاً، أوافق. وسيكون تحت تصـرّفـك القطعات الباقية من الجبهة الإحتياطيـة والقطعـات الموجـودة على خط موجايسك. أمسك بها سريعاً في قبضتك. وابدأ العمل».

وعقب جوكـوف: «سأعمل على تنفيذ الأمـر، ولكن أرجو أن تدفعوا سريعاً باحتياطات ضخمة، إذ يجب أن نتوقع في المستقبـل القريب تصعيد ضغط الألمان على موسكو».

إتخذ جوكوف التدابير الضرورية لتغطية إتجاه كـالينين، وتـوجه إلى (موجايسك) بعد سـاعتين، وكـان يسمع أثنـاء الطريق هـدير المدافع، وانفجارات قنابل الطائرات، حيث كانت فرقة المشاة ٣٢ تخوض معركة ضارية في (بورودينو). وأدرك جوكـوف على الفـور

ضرورة إقامة دفاع صلب على خط فولوكولامسك ـ موجايسك ـ مالوياروسلافيتس ـ كالوغا، مع زيادة عمق الدفاع وتطويره وتكوين أنساق ثانية، وتنظيم قوات إحتياطية يمكن لها التحرك ـ المناورة ـ لدعم القطاعات الضعيفة من الدفاع أو التي قد تتعرض لهجمات قوية. وكان لا بد من تنظيم استطلاع أرضي وجوي، وتأمين الجبهة مادياً ومعنوياً وفنياً.

وسار العمل في القوات ليلاً ونهاراً، وكان الرجال يسقطون من التعب والإرهاق، غير أنهم قاموا بعمل خارق لإقامة دفاع متين لقوات الجبهة على مشارف موسكو، شعوراً منهم بالمسؤولية الشخصية عن مصير موسكو ومصير الوطن. وبدأت عملية نقل القوات من احتياطات القيادة العليا والجبهات المجاورة إلى خط موجايسك الدفاعي اعتباراً من ليلة ٧ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ، حيث وصل إلى هذا الخط ١٤ فرقة مشاة و١٦ لواء مدرع وأكثر من ٤٠ فوج مدفعية وعدد آخر من القطعات المختلفة. كما أعيد من جديد تشكيل الجيوش ٥ و١٦ و٤٣ و٤٩ في منتصف شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ـ وكانت تلك الجيوش تضم ٩٠ ألف رجل.

لم تكن تلك القوات كافية على كل حال، غير أنه لم يكن بالمستطاع الحصول على أكثر من ذلك، فتم تنظيم الدفاع على أكثر الاتجاهات أهمية وخطورة. وجرت في مؤخرات قوات النسق الأول للجبهة الغربية أعمال هندسية كبيرة لتطوير الدفاع في العمق، وإنشاء مناطق مضادة للدبابات على كافة الإتجاهات المهددة بعمل الدبابات المعادية، كما وضعت احتياطات الجبهة على الاتجاهات

الاساسية. وانتقلت قيادة الجبهة إلى (بيرخوشكوف) وقد مد منها خط تلفوني ـ برقي مع القوات البرية والجوية للجبهة، كما مد منها خط إلى مقر هيئة القيادة العليا.

بذلك عادت إلى الوجود ثانية الجبهة الغربية التي ألقي عليها عبء الدفاع عن موسكو.

كانت القوات التي حاصرتها القوات الألمانية تخوض صراعاً مريراً وقاسياً إلى أن تمكنت من اختراق دائرة الحصار، وقد ساعد صمودها على إعادة تنظيم الجبهة. ثم قام الألمان بهجوم عام يوم ١٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٩٤١، على كل الإتجاهات المؤدية إلى موسكو. وكانت أياماً رهيبة وعصيبة. فقد كان القصف المدفعي والجوي مستمراً.

وفي يوم ٢٠ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ أصدرت لجنة الدولة لشؤون الدفاع أمراً، أعلنت فيه حالة الحصار في موسكو، وفرض على جميع القوات المدافعة عن العاصمة نظام صارم، وكانت أية مخالفة صريحة للإنضباط تقمع فوراً بتدابير حاسمة. وردّ سكان موسكو على أنصار العدو ومثيري الفزع والذعر بين السكان، رداً حاسماً. وتدرب أكثر من مائة ألف من سكان موسكو تدريباً عسكرياً بدون أن ينقطعوا عن العمل أو يتوقفوا عن الانتاج. وقد أدت هجمات الألمان العنيفة إلى تمزيق الجبهة، فأعيد تنظيمها (تحت إسم جبهة كالينين ـ بقيادة الجنرال كونييف). وتعرضت مدينة (تولا) في جبهة بريانسك لضغوط قوية، غير أنها قاومت ببطولة هجمات الألمان

وأوقفتها ، مما أرغم قائد الهجوم الألماني (غودريان) للالتفاف حول تولا ، فاضطر بسبب ذلك إلى توزيع تجميع قواته مما أضعفها .

تم استدعاء جوكوف لمقابلة ستالين في تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٤١ ، وعندما حضر للمقابلة قال له ستالين :

«نريد أن نجري عرضاً عسكرياً في موسكو، بمناسبة عيد الثورة ـ بالإضافة إلى الإجتماع الإحتفالي، فما هو رأيك؟ وهل يسمح لنا موقف الجبهة بإجراء مثل هذا العرض؟» .

وأجاب جوكوف: «لن يبدأ العدو هجوماً كبيراً في الأيام القريبة القادمة، بعد المعارك الكبيرة والخسائر الفادحة التي نزلت به ، وهو مضطر لإعادة تنظيم قواته وتجميعها. وإني أقترح تعزيز الدفاع الجوي ، وجلب طيراننا المقاتل من الجبهات المجاورة لموسكو، لمنع الطيران الألماني من التحليق فوق المدينة» .

وهكذا جرى المهرجان الإحتفالي تخليداً للذكرى الرابعة والعشرين لثورة أكتوبر في محطة مترو (ماياكوفسكي). وفي يوم ٧ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ أقيم العرض العسكري التقليدي في الساحة الحمراء. وكان المقاتلون يمرون من الساحة الحمراء ويسيرون إلى الجبهة مباشرة.

كانت القيادة الألمانية تعيد تنظيم قواتها لاستئناف المرحلة الثانية من الهجوم والتي حملت الاسم الإصطلاحي (تايفون). وشعرت القيادة السوفييتية بذلك، فقرر ستالين توجيه ضربات إجهاضية مسبقة، لكن جوكوف عارضه بسبب ضعف القوى والوسائط

المتوافرة لتنفيذ مثل هذه الضربات، لكن جوكوف اضطر لتنفيذها تحت إصرار ستالين، فكانت نتيجة عملياتها فاشلة، وأدت إلى ضعف القوات المدافعة عن موسكو.

بدأت القوات الألمانية هجومها لتنفيذ المرحلة الثانية من الهجوم على موسكو، يوم ١٥ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ. وشمل الهجوم كافة قطاعات الجبهة (وخاصة جبهة كالينين). ثم طورت القوات الألمانية هجومها، ودارت معارك ضارية خاصة في يومي ١٦ ـ ١٨ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ. وحاول الألمان رغم الخسائر الكبيرة التي نزلت بهم، الوصول إلى موسكو بأي ثمن.

واتصل ستالين بجوكوف وسأله: «هل أنت واثق من أننا سنحافظ على موسكو؟ إنني أسألك هذا وأنا متألم، وأطلب منك أن تجيبني بشرف!».

وأجاب جوكوف: «إننا سنحافظ على موسكو، وسنصمد، وسنتشبث بها، ولكننا بحاجة الآن إلى جيشين و٢٠٠ دبابة على الأقل».

وعقّب ستالين: «حسن جداً أن يكون لك هذه الثقة، إتصل بالأركان العامة واتفق معها على مكان حشد الجيشين الإحتياطيين اللذين طلبتهما. وسيكونان جاهزين في نهاية شهر تشرين الثاني ـ ـ نوفمبر ـ أما الدبابات فلا نستطيع أن نعطيك منها شيئاً».

إستمر الصراع العنيف طوال عشرين يوماً، وفي يوم ٥ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٤١ كان الألمان قد فقدوا في هجومهم على

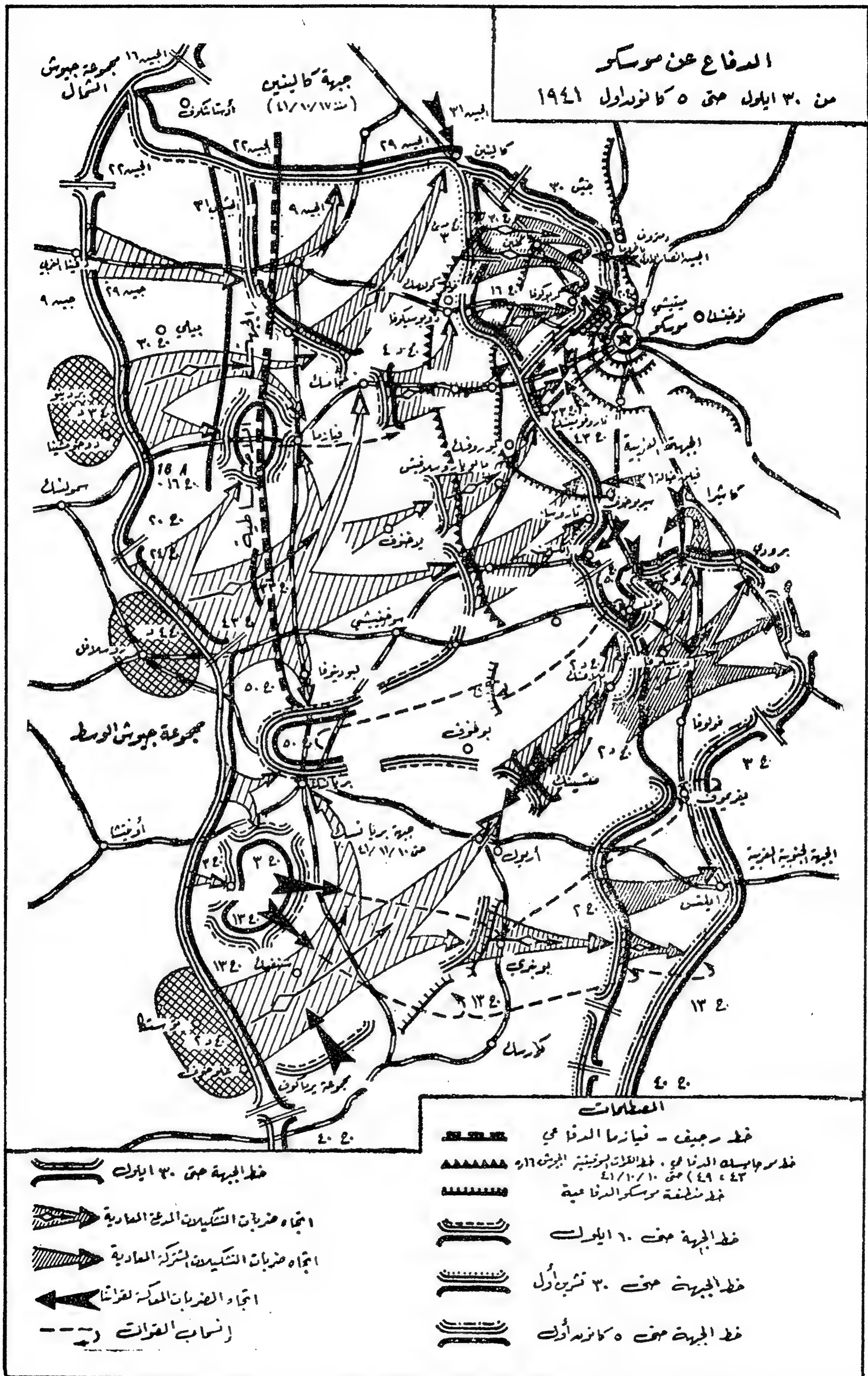
موسكو أكثر من ٥٥ ألف قتيل وجريح، و٨٠٠ دبابة تقريباً، و٣٠٠ مدفع و١٥٠٠ طائرة. وجاءت اللحظة المناسبة للرد، فاقترح جوكوف على ستالين القيام بهجوم مضاد. وسأل ستالين:

«هل أنت واثق من أن العدو قد بلغ حد الأزمة، وليس باستطاعته زج قوات ضاربة جديدة».

وأجاب جوكوف: «لقد أنهك العدو، ولكن قوات الجبهة أيضاً لا تستطيع القضاء على الخطر المحدق بها ما لم يتم دعمها بقوات جيشين إضافيين. وإذا لم نقض الآن على هذا الخطر، فإن العدو قد يستطيع أن يعزز قواته في منطقة موسكو باحتياطات ضخمة على حساب التجميعات الشمالية والجنوبية، وعندها قد يتأزم الوضع مرة أخرى».

وبدأ الإعداد للهجوم المضاد الذي انطلق يوم ٥ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٢، حيث دارت رحى معارك ضارية، واستطاعت القوات السوفييتية بعد عشرة أيام من القتال المرير التقدم مسافة ١٣٠ كم، وقد وصل هجوم الشتاء حتى نهايته في بداية شهر نيسان ـ أبريل ـ ١٩٤٢ حيث اضطرت القوات السوفييتية للتوقف على خطوط دفاعية جديدة تبعد عن موسكو مسافة ١٥٠ ـ ٢٠٠ كيلومتر.

وخسر الألمان في ملحمة موسكو نصف مليون رجل تقريباً و١٣٠٠ دبابة و٢٥٠٠ مدفع وأكثر من ١٥ ألف عربة، وزال الخطر عن موسكو، ولو مؤقتاً على الأقل. قررت القيادة الألمانية على أثر


الدفاع عن موسكو
من ٣٠ ايلول حتى ٥ كانون اول ١٩٤١
جبهة كالينين
مجموعة جيوش الشمال
مجموعة جيوش الوسط
موسكو
المصطلحات
خط رجيف - فيازما الدفاعي
خط موجايسك الدفاعي . خط القوات السوفييتية
خط منطقة موسكو الدفاعية
خط الجبهة حتى ١٠ ايلول
خط الجبهة حتى ٣٠ تشرين أول
خط الجبهة حتى ٥ كانون أول
خط الجبهة حتى ٣٠ ايلول
اتجاه ضربات التشكيلات المدرعة المعادية
اتجاه ضربات التشكيلات المشتركة المعادية
اتجاه الضربات المعاكسة لقواتنا
انسحاب القوات

فشلها في الوصول إلى موسكو، الاستيلاء على المناطق الصناعية والزراعية الغنية من الإتحاد السوفييتي في القرم والقفقاس ، وتوجيه هجمات ثانوية على اتجاه موسكو ولينينغراد ، حتى إذا ما حققوا هدفهم الإستراتيجي الأول، صار باستطاعتهم الهجوم بقوة أكبر على موسكو والإستيلاء على بقية المدن الهامة .

وكان جوكوف يتردد على القيادة العامة لحضور المناقشات بشأن خطط المرحلة التالية . وكان الألمان قد طوروا هجومهم على جبهة القرم ـ في هجوم الصيف ـ وأمكن لهم الإستيلاء على سيباستوبول يوم ٤ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٢ بعد معارك رهيبة وحصار استمر تسعة أشهر ، كما أمكن لهم إجتياح القرم والوصول إلى نهر الدون ، وباتت ستالينغراد مهددة بالإجتياح . وقد بذل جوكوف أقصى ما يستطيعه من جهد لتحصين الدفاع عن ستالينغراد، وتنظيم خطوط متتالية بالعمق لزيادة قوة الدفاع على هذه الجبهة .

٣ ـ على جبهة ستالينغراد

كان جوكوف على الجبهة الغربية (في منطقة بوغورولي) عندما طلب إليه الحضور إلى القيادة فوراً (يوم ٢٧ آب ـ أغسطس ـ ١٩٤٢) . وعندما وصل في مساء هذا اليوم ذاته إلى الكريملين ، بادره ستالين بقوله :

«تسير الأمور سيراً سيئاً في الجنوب ، وقد يحتل الألمان ستالينغراد ، وليس الموقف في شمال القفقاس بالموقف الأفضل . وقد قررت لجنة الدولة لشؤون الدفاع تعيينك نائباً للقائد الأعلى ،

وإرسالك إلى منطقة ستالينغراد. ـ متى يمكنك أن تسافر جوّاً؟».

وأجاب جوكوف: «يلزمني يوم على الأقل لدراسة الموقف. وأستطيع أن أذهب جواً إلى ستالينغراد يوم ٢٩ آب ـ أغسطس ـ».

وعقب ستالين: «حسناً! ولكن ألست جائعاً؟ أرى أن تأكل شيئاً!».

ثم أحضر الشاي وبعض الشطائر. وأثناء تناول الشاي، أطلعه ستالين بإيجاز على الموقف في الساعة ٢٠ من مساء ٢٧ آب ـ أغسطس ـ ومما قاله له:

«قررت القيادة العليا دعم جبهة ستالينغراد بالجيش ٢٤ وبجيش الحرس الأول والجيش ٢٦. وحيال سوء الموقف في ستالينغراد أمرنا بنقل جيش الحرس الأول إلى منطقة لوزوني، وتوجيه ضربة مضادة بهذا الجيش وبقطعات أخرى من جبهة ستالينغراد ضد تجميع القوات الألمانية المتوغلة نحو الفولغا، وتأمين الإتصال بالجيش ٦٦ والجيش ٢٤.. وعليك إتخاذ التدابير اللازمة لتنفيذ هذا الهجوم صباح يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ. . . إننا سنخسر ستالينغراد إذا لم ينجح هذا الهجوم المضاد».

كان واضحاً لجوكوف أن ملحمة ستالينغراد ذات أهمية سياسية عسكرية ضخمة، إذ أنّ سقوط ستالينغراد، سيساعد القيادة الألمانية على فصل جنوب البلاد عن المنطقة المركزية. كما أن ضياع الفولغا سيحرم الإتحاد السوفييتي من المجرى المائي الهام الذي تنقل عليه الإمدادات والتموين من بلاد القفقاس. ولهذا زجت القيادة

العليا في منطقة ستالينغراد بكافة الإمكانات المتوافرة لها.

غادر جوكوف موسكو جواً يوم ٢٩ آب ـ أغسطس ـ. وهبط بعد أربع ساعات في مهبط ميداني بمنطقة (كاميشين) على الفولغا، وتوجه فوراً إلى مقر هيئة أركان جبهة ستالينغراد في (إيفانوفكا). وبعد دراسة الموقف مع القادة، وزيارة للقوات، تبين لجوكوف صعوبة تنفيذ الهجوم المضاد يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ، فأرسل إلى القيادة العليا برقية جاء فيها:

«لا يستطيع الجيش الأول الانتقال إلى الهجوم يوم ٢ أيلول ـ سبتمبر ـ لأن قطعاته لم تصل إلى قواعد الهجوم، ولم يتم له نقل الذخائر والوقود، ولم يتمكن من إجراء التنظيم للمعركة. وقد أجلت الهجوم حتى الساعة ٥,٠٠ من صباح يوم ٣ أيلول ـ سبتمبر ـ حتى يتم الدخول إلى المعركة بشكل منظم، وحتى لا يتعرض للخسائر الكبيرة. كذلك فقد حددت يومي ٥ و٦ أيلول موعداً لهجوم الجيشين ٢٤ و٦٦. ويجري الآن تحديد الواجبات التفصيلية لجميع القادة، وتجري التدابير من أجل التأمين المادي للعملية».

إنطلق جيش الحرس الأول في هجومه صباح يوم ٣ أيلول ـ سبتمبر ـ بعد تمهيد مدفعي. غير أن قواته لم تتقدم على اتجاه ستالينغراد أكثر من بضعة كيلومترات، واستطاعت أن تنزل بالقوات الألمانية خسائر فادحة. وتوقف هجوم هذا الجيش بسبب الهجمات الجوية التي تعرّض لها، وبسبب الهجمات المضادة التي قامت بها المشاة الألمانية ودباباتها.

تلقى جوكوف صباح يوم ٣ أيلول - سبتمبر - برقية حملت توقيع ستالين، وجاء فيها:

«تزايد الموقف على جبهة ستالينغراد سوءاً. فقد وصل العدو حتى مسافة ثلاثة فراسخ من المدينة، ويمكن أن تسقط ستالينغراد اليوم أو غداً إذا لم تقدم مجموعة قوات الشمال مساعدة عاجلة. أطلب من قادة القوات الموجودة شمال المدينة وإلى الشمال الغربي منها أن يوجهوا الضربات على الفور إلى العدو لمساعدة المدافعين عن المدينة. لا يسمح بأي تمهل، فالتمهل الآن يعادل الخيانة. إقذف بكل الطيران لمساعدة ستالينغراد، فالطيران فيها قليل».

إتصل جوكوف على الفور بستالين، وأبلغه أنه يستطيع أن يبدأ هجومه صباح الغد، لكن قوات الجيوش الثلاثة ستكون مضطرة لبدء القتال بدون ذخائر تقريباً، إذ لا يمكن الوصول بالذخائر إلى مرابض المدفعية قبل مساء ٤ أيلول - سبتمبر - بالإضافة إلى أنه من المحال تنظيم تعاون القطعات مع المدفعية والدبابات والطيران قبل هذا الموعد، وبدون هذا التعاون لا يمكن تحقيق أي شيء».

أجاب ستالين: «هل تظن أن العدو سوف ينتظر حتى تنهي استعدادك؟ إنه لأمر مؤكد بأن العدو يستطيع إحتلال ستالينغراد لدى أول هجوم يقوم به إذا لم توجه إليه ضربة فورية من الشمال».

فقال جوكوف: «إنني لا أخالف وجهة النظر هذه، وأرجو الموافقة على بدء الهجوم يوم ٥/٩ كما تقرر سابقاً. أما فيما يتعلق بالطيران فقد أصدرت أمراً بقصف العدو بكافة القوى المتوافرة».

وعقّب ستالين: «حسناً، أوافق، ولكن إذا بدأ العدو هجومه، فهاجمه فوراً، ولا تنتظر الإستعداد النهائي للقوات. إن مهمتك الرئيسة هي تحويل قوى العدو عن ستالينغراد. وإذا نجحت، فالقضاء على الممر الألماني الذي يفصل بين جبهات ستالينغراد والجبهة الجنوبية الشرقية».

إنطلق هجوم الجيوش الثلاثة الأول و٢٤ و٦٦ مع أول ضوء يوم ٥ أيلول - سبتمبر - بعد تمهيد مدفعي قصير وغير دقيق. واصطدمت قوات الهجوم بمقاومة الألمان المنظمة والقوية، ودارت معارك ضارية، ولكن الهجوم لم يحرز أي تقدم.

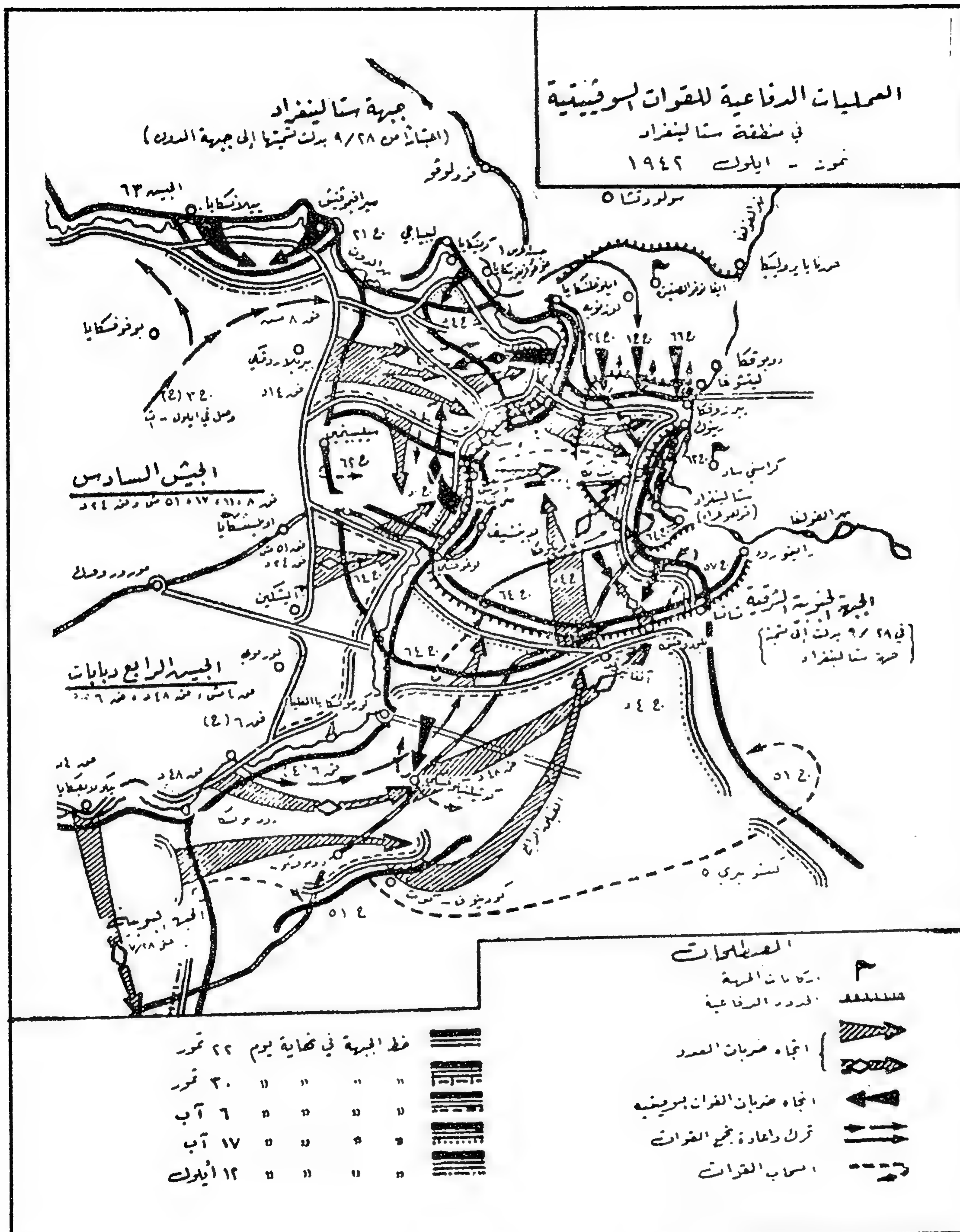
وفي اليوم التالي أعيدت المحاولة مع تركيز أكبر في نيران التمهيد المدفعي، لكن نصيب الهجوم من النجاح لم يكن أفضل من نصيبه في اليوم السابق، فقد عمل الألمان على نقل قوات كبيرة من ستالينغراد ومن القطاعات الأخرى لمواجهة الهجوم المضاد. وبذلك نجح الهجوم في تحقيق أحد أهدافه وهو تخفيف الضغط عن ستالينغراد، ولكنه لم يحقق الهدف الثاني وهو الوصول إلى ستالينغراد للإتصال بالقوات المدافعة عنها. وظهر لجوكوف أنه ما لم يتم زج إحتياطات كبيرة أخرى، وما لم يتم تقديم دعم إضافي بالنيران، فإنه من المحال تحقيق النجاح وتطوير النجاح، فتوجه الى الكريملين يوم ٧ أيلول - سبتمبر - وبعد مناقشة الموقف مع ستالين ومع القيادة، تقدم جوكوف بمقترحاته:

أولاً : متابعة إنهاك العدو بالدفاع القوي.

ثانياً : البدء في التحضير لهجوم عام معاكس وذلك لتوجيه ضربة للعدو في منطقة ستالينغراد، تؤدي إلى تبديل الموقف الإستراتيجي في جنوب البلاد لمصلحة الإتحاد السوفييتي.

ووافق ستالين على المقترحات، واستمرت المعارك الضارية على امتداد جبهة ستالينغراد وفي داخل المدينة ذاتها، حيث كان ينتقل الصراع من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع. وكثيراً ما دار الصراع للإستيلاء على بناء أو شارع أياماً عديدة وهو ينتقل مرّات بين أيدي الطرفين المتصارعين. وكانت أيام ١٣ و١٤ و١٥ أيلول من أقسى الأيام التي عاشتها ستالينغراد فقد قذف الألمان بثقل قواتهم في محاولة لاجتياح المدينة والوصول إلى نهر الفولغا، ولكن المقاومة الضارية أوقفت قوات الهجوم، واستنزفت قدراته، واستمر الصراع المرير بعد ذلك. وكان جوكوف ينتقل ما بين الجبهة والقيادة لمتابعة وضع خطة الهجوم العام وإعداد متطلباتها. وكادت طائرته تتعرض للسقوط أكثر من مرة.

وأثناء ذلك تم تبديل أسماء الجبهات. فأصبحت جبهة ستالينغراد تحمل إسم (جبهة الدون). وأصبحت الجبهة الجنوبية الشرقية تحمل إسم (جبهة ستالينغراد). ولقد وصلت معارك الإستنزاف حتىٰ نهايتها في منتصف شهر تشرين الثاني - نوفمبر - ١٩٤٢، حيث اضطر الألمان للإنتقال للدفاع، وإيقاف جميع أعمالهم الهجومية. وكانوا قد خسروا في معارك ما بين شهر تموز - يوليو - وشهر تشرين الثاني - نوفمبر - على جبهة ستالينغراد وفي منطقة الدون والفولغا أكثر من ٧٠٠ ألف رجل وأكثر من ألف دبابة



العمليات الدفاعية للقوات السوفييتية
في منطقة ستالينغراد
تموز - ايلول ١٩٤٢
جبهة ستالينغراد
الجيش السادس
الجيش الرابع دبابات
الجبهة الجنوبية الشرقية
المصطلحات
ركامات الجبهة
الحدود الدفاعية
اتجاه ضربات العدو
اتجاه ضربات القوات السوفييتية
تحرك واعادة تجميع القوات
انسحاب القوات
خط الجبهة في نهاية يوم ٢٢ تموز
" " " " ٣٠ تموز
" " " " ٦ آب
" " " " ١٧ آب
" " " " ١٢ أيلول

وألفي مدفع وهاون و١٤٠٠ طائرة. وبذلك فإنهم خسروا كل إحتياطيهم من القوى والوسائط في حين كان الإتحاد السوفييتي قد جهز قوات إحتياطية ضخمة لتنفيذ الهجوم المضاد العام (هجوم الشتاء).

لقد نضجت خطة الهجوم التي استمر وضعها أكثر من أربعة أشهر، وتم خلالها بحث موقف القوات الألمانية بصورة دقيقة مع ما تمتلكه من القوى النارية، وحشد لتنفيذ الهجوم ما يحتاجه. وتقرر أن تنطلق جبهة الدون للهجوم يوم ١٩ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ بينما تنطلق جبهة ستالينغراد للهجوم في اليوم التالي (٢٠ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ).

سارت عمليات الهجوم بنجاح، وسط مقاومات ضارية، وأعمال قتالية عنيفة، وقذف الألمان بما هو متوافر لهم من القوات في محاولة لإيقاف الهجوم السوفييتي، ولكن الفشل كان من نصيبهم باستمرار. وفي يوم ٢٣ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ تم تطويق تجميع ستالينغراد الألماني بين نهري الدون والفولغا. وكان جوكوف مع القوات يتابع تطورات الموقف، ويتخذ القرارات المناسبة لمجابهة ردود فعل القيادة الألمانية، لإخراج القوات من دائرة الحصار وإحباط هجماتها المضادة، والعمل على تدمير القوات الواقعة في طوق الحصار وإبادتها، كل ذلك مع العمل المستمر لتطوير الهجوم.

وفي يوم ١٠ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٣، وبعد إنذار القوات الألمانية بالإستسلام ورفضها لهذا الإنذار، استأنفت جبهة الدون

هجومها لتدمير القوات الألمانية المحاصرة، ودارت معارك طاحنة لم تتوقف إلاّ في ٣١ كانون الثاني - يناير - ١٩٤٣، حيث تم تدمير التجمعات الألمانية، وأسر من بقي منها، واستسلم (فون باولوس) قائد الجيش الألماني - السادس -.

وبلغت خسائر الألمان في منطقة الدون والفولغا ما يقارب المليون ونصف المليون من المقاتلين و٣٥٠٠ دبابة ومدفع اقتحام و١٢ ألف مدفع و٣٠٠٠ طائرة تقريباً بالإضافة إلى كميات ضخمة من الأعتدة.

وكانت المرحلة الثانية هي رفع الحصار عن لينينغراد في منطقة بحيرة لادوغا. وقد كلف جوكوف للعمل مع فوروشيلوف من أجل تنسيق التعاون بين جبهتي لينينغراد وفولخوف. وتم تحقيق هذا الهدف في يوم ١٨ كانون الثاني - يناير - ١٩٤٣. ووقف جوكوف على مرتفع يرقب لقاء قوات الجبهتين، والسعادة تملأ جوانحه. لقد عاش حتى يرى بواكير النصر الكبير. لطالما عانى الشعب والجيش من مرارة الهزيمة، وآن له أخيراً أن يستشعر حلاوة النصر. وفي هذا اليوم (١٨ كانون الثاني - يناير - ١٩٤٣) صدر مرسوم عن هيئة مجلس السوفييت الأعلى بمنح جوكوف رتبة مارشال الاتحاد السوفييتي.

٤ - انتصارات متتالية (في عام الانتصارات)

لم تكن انتصارات هجوم الشتاء إلا البداية لتصعيد الصراع المسلح حتى ذروته. فقد كان من المحال على القوات السوفييتية

التوقف في منتصف الطريق وقد امتلكت أسباب القـوة وكان من المحال أيضاً على القوات الألمانية التـراجع عن أهـدافها بسهـولة، والتخلي عن انتصاراتها السابقة بيسر، وهي لا زالت قادرة على زج قوات جديدة رغم كل ما نزل بهـا من الخسائـر والدمـار. ولم تعد القضية بالنسبة للطرفين المتصارعين قضية كسب أرض أو الانتصار في معـركة ، وإنمـا كانت قضيـة حياة أو مـوت بالنسبـة للنـظامـين الحاكمين بالدرجة الأولى وقضية مصير بالنسبة للشعوب المتصارعة، فكـان من المتـوقـع أن يـرتفـع الصـراع المسلح إلى درجـة العنف القصوى. ولقد عرفت جبهات القتال نوعاً من الهدوء النسبي بعد طـرد القوات الألمـانية من ستـالينغراد ولينينغـراد، وتحولت قـوات الطرفين للدفـاع ، غير أن هـدوء الجبهات واستقـرارها لم يكن إلا هدوء ما قبل العاصفة.

لقد حاولت القيادة الألمانية ايقاف الموقف المتدهور على الجنـاح الجنوبي لقواتها ، فأسـرعت لحشد قـوات إضافيـة، وقامت بهجـوم مضاد عام عـلى الجبهة الجنـوبية الغـربية، وكـان الهدف من هـذا الهجوم هو قذف الجبهة السوفييتية إلى شمال نهر الدونيتس . وبعد أن تؤمن التغطية بشكل دفاعي على نهر الدوينتس، تقـوم بتوجيـه الضربة إلى قوات جبهة فارونيج ، والاستيلاء على (خاركوف)(*) ، وبيلفورد.

(*) خاركوف ، (KHARKOV) مدينة قديمة تقع على أحد روافد نهر دونيتس (دونيتز) وهي عاصمة اوكرانيا.

وبدأت القوات الألمانية هجومها مع بداية شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٤٣ ، ونجحت بتوجيه ضربة قوية لقوات الجناح الأيسر لجبهة فارونيج ، واضطرت القوات السوفييتية للإنسحاب بعد أن تكبدت خسائر كبيرة ، وما لبثت القوات الألمانية أن عادت فاستولت على خاركوف مرة أخرى يوم ١٦ آذار ـ مارس ـ. وبدأت بتطوير ضربتها على اتجاه بيلفورد. وباتت القوات السوفييتية في نتوء (كورسك) مهددة تهديداً خطيراً(*).

كان جوكوف يومها موجوداً في الجبهة الشمالية ـ الغربية التي كان يقودها المارشال تيموشنكو، عندما اتصل به ستالين (يوم ١٤ آذار ـ مارس ـ). فلما أطلعه على الموقف المتدهور، وقدم له المقترحات لمعالجته، طلب إليه الحضور إلى موسكو لمناقشة الموقف. ووصل جوكوف في الهزيع الاخير من الليل، وقد أرهقته وعورة الطريق إرهاقاً شديداً، إذ كانت سيارته العسكرية مرغمة في معظم الطريق للسير على الدروب الوعرة أو الطرق المخربة تخريباً شديداً. فلما وصل إلى الكريملين وجد أن ستالين لا زال مجتمعاً مع أرباب الصناعة. وانتهى الاجتماع في الساعة الثالثة صباحاً. وبقي ستالين وجوكوف وحدهما. فأبلغ ستالين جوكوف بتعيينه قائداً للجبهة الشمالية الغربية. ثم سأله:

«هل تناولت عشاءك؟».

(*) كورسك KOURSK مدينة في الاتحاد السوفييتي ـ إلى الجنوب من أوريل ، (OREL).

وأجاب جوكوف بالنفي.

فقال ستالين: «إذن! لنمض إلى العشاء، وسنكون وحدنا، وسنتكلم عن الأوضاع في منطقة خاركوف».

جاء ضابط هيئة الأركان حاملاً معه خريطة الموقف لقطاعات الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة فارونيج، فتبين بوضوح تدهور الموقف في جنوب غرب خاركوف وفي منطقة بولتافا وكراسنوغراد. وانتهى طعام العشاء (أو بالأحرى فطور الصباح) في الساعة الخامسة صباحاً. وتوجه جوكوف إلى المطار المركزي، وما كاد يجلس على مقعد الطائرة حتى راح في إغفاءة عميقة، ولم يستيقظ إلا عندما شعر بارتطام عجلات الطائرة على أرض مطار فارونيج.

تبين لجوكوف بسرعة أن الموقف أكثر خطورة مما عرفه من خارطة هيئة الأركان، ومن المعلومات التي حصل عليها. فبعد استيلاء الألمان على خاركوف اندفعت قطعاتهم بسرعة واحتلت كازاتشيا ولوبان، وتابعت تقدمها على اتجاه بلفورد، واتصل جوكوف بالقائد الأعلى وقال له:

«ينبغي أن ندفع إلى هنا كل ما هو ممكن من احتياط القيادة العليا ومن التجميعات المجاورة ـ وإذا لم نفعل ذلك، فإن الألمان سيستولون على بلفورد ويطورون الضربة باتجاه كورسك».

وإستجاب القائد الأعلى ـ ستالين ـ لطلب جوكوف فأمر بدعمه بالجيش المدرع الأول والجيش ٦٤ والجيش ٢١. واستطاع الألمان الاستيلاء على مدينة بلفورد يوم ١٨ آذار ـ مارس ـ ١٩٤٣، ولكن

جوكوف كـان قد انتهى من تنـظيم القوات وحشـدها في مـواجهة الهجوم. فلما حاول الألمان الانطلاق من بلفورد لتطويـر هجومهم اصطدموا بمقاومات ضارية، أرغمتهم على التوقف. ومع نهاية شهر آذار ـ مـارس ـ استقر المـوقف على الجبهـات. وانصـرف كـل من الـطرفين لإعـادة تنظيم قـواته استعـداداً لحسم الصراع عـلى هذه الجبهات.

رفع جوكوف تقريره إلى القائد الأعلى يـوم ٨ نيسان ـ ابـريل ـ ١٩٤٣، وضمنه توقعـاته عن الأعمـال القادمـة والمحتملة للقوات الألمانية، وما يجب اتخاذه ضدها.

ثم تبع ذلك إرسال تقريـر آخر لهيئـة الأركان العـامة يـوم ١٠ نيسان ـ أبريل ـ. وقامت بقيـة الجبهات بـرفع تقـارير ممـاثلة، فيما كانت الاستعدادات تجري باستمرار لمجابهة الاحتمالات القادمة. واتضح الموقف بشكل نهائي في الأيام الاخيرة من شهر حـزيران ـ يـونيو ـ وأصبـح جلياً، بـالنسبة لجـوكوف، أنـه هنـا، في منـطقـة كورسـك، وليس في مكان آخـر، سينتقل الألمـان للهجوم خـلال الأيام القليلة القادمة.

وكان جوكوف قد أنهى استعداداته، واتخذ جميع الإجراءات التي يمكن له اتخاذها لإحباط المخـططات الألمانيـة. وكان في جملة هـذه التدابير، تنظيم دفاع متعدد النطاقـات على اتجـاه كورسـك بعمق عام زاد على ٢٥٠ ـ ٣٠٠ كم مع حشد احتياط استراتيجي ضخم تابع لهيئة القيادة العليا ـ شمل جبهة السهوب حتى منطقة شـرق

كـورسك، وكـذلك زج أضخم حجم للقـوى والوسـائط خـلال الحرب العالمية الثانية كلها في منـطقة كـورسك ، وتنـظيم عمليات جوية خاصة لتشويش عمل المواصلات الألمانية ، وكسب السيـطرة الجـوية عـلى الألمـان ، وتنشيط أعمـال الأنصـار في تنـظيم أعمـال التخريب الجماعي على مؤخرات القوات الألمانية، وبالحصول على المعلومات الاستطلاعية الهامة، وتنفيذ عدة مجموعات من التدابـير المتعلقة برفع الروح المعنوية للقوات.

تـوافرت المعلومـات لـدى جـوكـوف بـأن الألمـان سينتقلون للهجوم في الساعة ٣,٠٠ من فجر يوم ٥ تموز ـ يـوليو ـ ١٩٤٣ ، فـأصدر أمـره عـلى الفـور بتـطبيق التعليمـات الـواردة في خـطة العمليات، والبدء بـرمي (معاكس) التمهيـد المدفعي اعتبـاراً من السـاعة ٢,٢٠ . وفجـأة اهتزت الأرض بمـا عليهـا ومن عليهـا، وامتلأ الجو بهدير هائل. لقد بدأت معركة كورسك الكبرى.

قامت القوات الألمـانية بهجـومها في السـاعة الخـامسة تقـريباً، وزجت في النسق الأول بثـلاث فرق مـدرعة وخمس فـرق مشاة، ولكن قوات الهجوم اصطدمت بمقاومـة ضاريـة، وتبع ذلـك قيام الألمـان بخمس هجمات ضـارية في محـاولـة للتـوغـل في الـدفـاع السوفييتي، غير أن قوات الهجوم لم تفلح حتى آخـر النهار بـالتقدم لأكـثر من ٣ حتى ٦ كيلومترات. زج الألمـان بأنسـاقهم التـاليـة، واستمـرت المعارك الضـارية حتى ١٠ تمـوز ـ يوليـو ـ. وتعـرضت القوات الألمانية لخسائر فادحة بلغت ٧٠ ألف رجل، و٨٥٠ مدفعاً و١٥٠٠ دبابة و١٤٠٠ طائرة.

إتصل القائد العام بجوكوف يوم ٩ تموز ـ يوليو ـ في مقر قيادة الجبهة الوسطى، وسأله:

«ألم يحن الوقت لزج جبهة بريانسك والجناح الأيسر من الجبهة الغربية في القتال، كما ذكر ذلك في الخطة».

وأجابه جوكوف: «هنا وعلى قطاع الجبهة الوسطى، لا يملك العدو أية قوة قادرة على اختراق دفاع قواتنا، وعلينا أن ننتقل على الفور إلى الهجوم بجميع قوى جبهة بريانسك والجناح الأيسر من الجبهة الغربية حتى لا نتيح للعدو فرصة تنظيم الدفاع الذي سيضطر إلى الانتقال إليه. وبدون ذلك، فإن الجبهة الوسطى لا تستطيع أن تخوض بنجاح الهجوم العام المعاكس المخطط له».

وأجاب ستالين معقباً: «أنا موافق. اذهب وزج جبهة بريانسك.. متى تتوقع أن تبدأ بالهجوم؟»

وقال جوكوف: «في الثاني عشر من تموز».

فرد ستالين: «موافق!».

بذلك انتهت المرحلة الأولى من موقعة كورسك، وأمكن إحباط الهجوم العام الألماني، وأصبح بالمستطاع الانتقال للهجوم يوم ١٢ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤٣ حيث انطلقت جبهة بريانسك وجيش الحرس الحادي عشر المدعم والتابع للجبهة الغربية. وبدأت الهجوم المضاد العام، ولم تنطلق جميع الجبهات للهجوم المضاد في وقت واحد، فقد اضطرت جبهة فارونيج وجبهة السهوب ـ احتياط القيادة العليا ـ للتأخر من أجل إنهاء استعداداتها. وقد اضطر جوكوف للانتقال

للجبهتين المذكورتين في اليومين الأخيرين من شهر تموز ـ يوليو ـ للعمل معهما، وتوجيه أعمالهما ـ بناء على توجيهات القائد العام ستالين ـ. مما أسهم في إعطاء الهجوم زخماً قوياً.

ولقد أبدت القوات الألمانية مقاومة ضارية، ودارت معارك عنيفة في كل مكان، واستطاعت القوات السوفييتية تدمير القوات الألمانية على التتابع، وتمكنت من دخول مدينة (بلفورد) في صباح يوم ٥ آب ـ أغسطس ـ. وبعد أن تم تطهير المدينة من فلول القوات الألمانية، تابعت جبهتا فارونيج والسهوب، تقدمهما بسرعة. وبدأ جوكوف بالتعاون مع قادة الجبهات والجيوش لتطوير الضربة على اتجاه خاركوف. ورفع جوكوف بالتعاون مع قائدي الجبهتين (كونييف وزاخاروف) اقتراحاتهما إلى القائد العام ستالين، مع طلب الدعم «٢٠ ألفاً من الجنود، ومائتي دبابة ت ـ ٣٤ و١٠٠ دبابة ت ـ ٧٠ و٣٥ دبابة ك. ف. و٤ أفواج مدفعية ذاتية الحركة ولواءي هندسة».

وتابعت قوات الجبهات تقدمها فيما كانت قوات الدعم ترفد قدرتها باستمرار، فأمكن لها اجتياز خط جديد (بولتافا ـ فاركوف) يوم ١١ آب ـ أغسطس ـ. وحاول الألمان إيقاف هذا التقدم بضربات مضادة، غير أن القوات السوفييتية نجحت في تدمير هذه الضربات وإحباطها. وتمكنت جبهة السهوب من الوصول إلى ضواحي خاركوف يوم ١٨ آب ـ أغسطس ـ حيث دارت معارك ضارية.

وبدأت القوات الألمانية بالانسحاب من خاركوف اعتباراً من يوم

٢٢ آب ـ أغسطس ـ بعد أن أدركت أنه من المحال عليها مجابهة القوات السوفييتية التي كانت تتزايد قوة يوماً بعد يوم بفضل ما كان يصل إليها من الدعم. وكانت القوات في جبهة (بريانسك) قد حررت أُوريول يوم ٥ آب ـ أغسطس ـ وبات باستطاعة القوات السوفييتية تطوير أعمالها الهجومية لتدمير التجمعات الألمانية على الأراضي السوفييتية، والانتقال بعد ذلك إلى مهاجمة ألمانيا ذاتها. ولكن الوصول إلى هذا الهدف كان يتطلب بعض الوقت، من أجل إعادة التنظيم الشامل لقوات الجبهات، بعدما تعرضت له من الإنهاك والخسائر في معارك كورسك وأُوريول وخاركوف.

صدر الأمر باستدعاء جوكوف إلى هيئة القيادة العليا يوم ٢٥ آب ـ أغسطس ـ ١٩٤٣ لمناقشة الموقف، والمهمات اللاحقة للهجوم العام للقوات السوفييتية، وذلك بعد أن تم تدمير القوات الألمانية في منطقة كورسك. وكان جوكوف يحمل في جعبته اقتراحاً ـ كان قد طرحه من قبل ـ ويتلخص بإعادة تجميع القوات، ودعمها، والقيام بعمليات هدفها عزل التجميعات الألمانية الضخمة في منطقة الدون، مما يسهل متابعة خوض الحرب فيها بعد، إذ أن تطويق هذه التجميعات من شأنه أن يعزلها عن سائر القوات الألمانية بضربة قوية تنطلق من منطقة خاركوف ـ إيزيوم باتجاه الدنيبر ـ بيتروفسك وزابورجيو. ولكن ستالين كان يرى تأجيل تنفيذ مثل هذه العملية، والعمل على تطوير الهجوم بسرعة للوصول إلى نهر الدنيبر.

وصل جوكوف إلى الكريملين، فوجد أن ستالين في اجتماع مع

أعضاء لجنة الدولة للدفاع. فلما دخل سأله على الفور:

«كيف تسير الأمور على جبهتي فارونيج والسهوب؟ وهل تلقت قوات الجبهتين التوجيه الخاص بمتابعة الهجوم على اتجاه الدنيبر؟ وما هي إمكانات الجبهات؟».

وأجاب جوكوف: «لقد تعرضت قوات الجبهات لخسائر كبيرة، وهي تحتاج بشكل جدي إلى دعمها بالأفراد وبالوسائط القتالية ـ وبصورة خاصة الدبابات».

فرد ستالين: «حسناً! سنتكلم في هذا الأمر. والآن تعال لنستمع إلى التقارير عن سير الهجوم على الاتجاهات الأخرى».

وعندما فرغ ستالين من سماع التقارير، والتعليق عليها، أصدر توجيهاته لاتخاذ التدابير من أجل الوصول بسرعة إلى نهر الدنيبر ونهر مولوتشنايا حتى لا تتمكن القوات الألمانية من تحويل حوض الدون والضفة اليسرى لأوكرانيا إلى أرض محروقة. ثم طلب إلى جوكوف تحديد متطلبات جبهتي فارونيج والسهوب من القوى والوسائط.

وفي مساء اليوم ذاته تقدم جوكوف إلى ستالين بقائمة طلباته من الأفراد والدبابات والمدفعية والذخائر والوقود الخ..

وأمعن ستالين النظر طويلاً في سجله الخاص الذي يتضمن الوسائط المتوافرة لديه، وأمسك بقائمة طلبات جوكوف، وتناول كعادته قلمه الأزرق المفضل واختصر الكميات كلها بما يقارب ٣٠ ـ ٤٠ بالمائة، ثم قال معقباً:

«أما الباقي، فستقدمه هيئة القيادة العليا عندما تصل هذه الجبهات إلى نهر الدنيبر».

استقل جوكوف الطائرة في اليوم ذاته، وعاد إلى الجبهة، وبدأ عمله في تنسيق التعاون بين الجبهات، واستلم يوم ٦ أيلول ـ سبتمبر ـ أمر القيادة العليا بمتابعة الهجوم حتى الوصول إلى المجرى الأوسط لنهر الدنيبر، والاستيلاء هناك على رؤوس جسور. وكان الوقت مضغوطاً، فلم يسمح بإعداد العمليات إعداداً دقيقاً، وسارت عمليات الهجوم في بدايتها بصورة بطيئة، وسط مقاومة الألمان الضارية، ولا سيما في منطقة بولتافا. ولكن الخسائر الكبيرة التي نزلت بالقوات الألمانية أرغمتها على الانسحاب ـ منذ منتصف شهر أيلول ـ سبتمبر ـ والجلاء عن منطقتي حوض الدون وبلتافا باتجاه الدنيبر. واستولت جبهة السهوب على بولتافا يوم ٢٣ أيلول ـ سبتمبر ـ ودفعت قواتها المتقدمة نحو نهر الدنيبر. وأمر جوكوف بزج كل ما هو متوافر في الجبهات من الطائرات لقصف القوات الألمانية المنسحبة، وعدم السماح لها باحتلال خطوط جديدة على نهر الدنيبر، كما اتخذ مع قادة الجبهات التدابير الكفيلة باحتلال الجسور القائمة على نهر الدينبر، ومتابعة الهجوم من الحركة. ونشبت المعارك الضارية التي انتهت بنجاح عظيم لدى اقتحام جبهة السهوب لنهر الدنيبر، في مناطق دنيبر ـ بتروفسك ـ دوموتكانا.

استمرت عملية تحطيم القوات الألمانية وتجمعاتها. وفي نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر ـ كانت القوات السوفييتية قد اقتحمت نهر

الـدنيبر في قـطاع عرضـه ٧٥٠ كيلومتراً، واستـولت عـلى رؤوس جسور هامة. وتبع ذلك تغيير أسماء الجبهات، في الفترة ما بين ١٢ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ و٢٣ كانـون الأول ـ ديسمبر ـ فـأصبحت جبهة فارونيج تحمل اسم (جبهة أُوكرانيا الأولى) كما أصبحت جبهة السهوب تحمل اسم (جبهة أُوكرانيا الثانية). وكان جوكوف وقادة الجبهات قد رفعوا إلى القائد الأعلى خـطة تحريـر كييف، وتطويـر الهجوم على اتجاه ـ كوروسـين ـ جيتومـير ـ فاستـوف وقامت هيئـة الأركان العامة بربط هذه الخطة مع خطة الجبهة الوسطى، ووافقت عليها.

وبدأ جوكوف بالتعاون مع قـادة الجبهات بـالإعداد لتنفيـذها، وحشد القوى والوسائط الـلازمة لهـا. وانطلق الهجـوم على اتجاه كييف صبـاح يوم ٣ تشـرين الثاني ـ نـوفمبـر ـ وبـوغتت القـوات الألمانية مبـاغتة تـامة. ورغم ذلـك فقد أخـذت المقاومـة الألمانيـة تتصاعد بوتيرة عالية بفضـل ما كـان يتم زجه من قـوات الدعم. ومقابل ذلك كان جوكوف يعمـل باستمـرار لتطويـر الهجوم بـزج جيوش وقوى جديدة. وفي نهايـة يوم ٥ تشـرين الثاني ـ نـوفمبر ـ ١٩٤٣، وصلت القوات السوفييتية إلى ضواحي كييف حيث دارت رحى المعارك الضارية لتحرير المدينـة، واستطاعت قـوات الهجوم تحـرير مـدينة كييف في السـاعـة ٤,٠٠ من فجـر يـوم ٦ تشـرين الثاني ـ نوفمبر ـ. وأسرع جوكوف فأرسل إلى القائد الأعلى البرقية التالية:

«نعلمكم بغبطة فائقة تحقيق النجاح في تنفيذ الخطة التي وضعت

للاستيلاء على عاصمة أوكرانيا مدينتنا الجميلة كييف، والتي نفذتها قوات جبهة أوكرانيا الأولى. وقد أمكن تطهير مدينة كييف من المحتلين الفاشيين تطهيراً تاماً، وتتابع قوات الجبهة تنفيذ المهمة الموضوعة لها».

ما إن فرغت قوات الجبهة من تحرير كييف، حتى اندفعت نحو الغرب، واستولت على مدن فاستوف وجيتومير ومدن أخرى. ولم تقف القيادة الألمانية جامدة تجاه الأحداث المتطورة بسرعة، فقامت بتنظيم ضربة مضادة قوية، في منطقة جيتومير، وحشدت لها خمس عشرة فرقة منها ثمان فرق مدرعة آلية. وتلقت قوات جبهة أوكرانيا الضربة القوية التي وصلت حتى جيتومير واستولت عليها من جديد، واندفعت نحو الشرق بعمق ٣٠ ـ ٤٠ كيلومتراً. غير أن القوات الاحتياطية تدخلت بسرعة، وأعادت الوضع إلى ما كان عليه، وأصبح خط الجبهة الدفاعية لقوات جبهة أوكرانيا الأولى يمتد على بعد مائة وخمسين كيلومتراً إلى الغرب من مدينة كييف، وعلى بعد خمسين كيلومتراً، إلى الجنوب منها. واتصلت بعدئذ جبهات أوكرانيا الأولى والثانية والثالثة، فشكلت رأس جسر ضخم ذا أهمية استراتيجية على نهر الدنيبر. وكان رأس الجسر هذا يمتد مسافة ٤٠٠ كم في الجبهة و١٠٠ كم في العمق. وكان اتساع رأس الجسر وعمقه، كافياً لاستئناف الأعمال الهجومية القادمة.

وهكذا، ومع نهاية عام الانتصارات (عام ١٩٤٣) أمكن تحرير نصف الأراضي التي كانت القوات الألمانية قد احتلتها في سنتي (١٩٤١ و١٩٤٢). وكانت القوات السوفييتية قد دمرت في

هجومها العام من ستالينغراد حتى الدنيبر ٥٦ فرقة ألمانية تدميراً تاماً، علاوة على إنزال الخسائر الفادحة بـ ١٦٢ فرقة أخرى، وتم تدمير أكثر من سبعة آلاف دبابة ألمانية وأكثر من ١٤ ألف طائرة وحوالي ٤٠ ألف مدفع وهاون ،علاوة على الخسائر الضخمة في القوات. وباتت القوات الألمانية بحاجة لفترة طويلة قبل أن تعيد تنظيم قواتها.

٥ ـ تحرير أوكرانيا وروسيا البيضاء

اشترك جوكوف في مناقشات هيئة القيادة العليا بشأن حملة الشتاء لعام ١٩٤٤ والتي كان يجب لها أن تبدأ من لينينغراد وحتى القرم في الجنوب. وتقرر بنتيجة النقاش أن تكون العمليات الهجومية الرئيسة مركزة على مسرح العمليات الحربية في الجنوب الغربي، وذلك حتى يتم تحرير الضفة اليمنى لأوكرانيا والقرم. كما تقرر تحرير لينينغراد تحريراً كاملاً من الحصار، وقذف القوات الألمانية التي تحاصرها إلى ما وراء حدود منطقة لينينغراد. وحددت لقوات جبهات مناطق البلطيق واجبات تطهير منطقة (نوفغورد) بالتعاون مع قوات جبهة لينينغراد والوصول إلى حدود جمهوريات دول البلطيق. وقد وضع للاتجاه الغربي مهمة تحرير أكبر مساحة ممكنة من أراضي روسيا البيضاء.

تقرر عند التخطيط لعمليات القوات السوفييتية لشتاء سنة ١٩٤٤ أن تركز القوى والوسائط الرئيسة، وأن تحشد على جبهات أوكرانيا الأولى والثانية والثالثة والرابعة. أما ما يخص الجبهات

الأخرى لكل من الاتجاه الشمالي والشمالي الغربي والغربي، فقد قررت هيئة القيادة العليا إعطاءها دعماً محدوداً بالقوى والوسائط. ووقع العبء الأكبر على القائدين جوكوف وألكسندر ميخائيلوفيتش فاسيليفسكي اللذين كان عليهما تنسيق أعمال الجبهات. وقد أفاد جوكوف من هذه الفرصة، فعاد وطرح على ستالين وجهة نظره بشأن تنفيذ الأعمال القتالية الهادفة لإحكام التطويق على العدو. وأجاب ستالين:

«أصبحنا الآن أكثر قوة من قبل، واكتسبت قواتنا المزيد من الخبرة القتالية، ولم يعد باستطاعتنا تنفيذ العمليات لتطويق القوات الألمانية، بل بات من الواجب علينا تنفيذها».

وهكذا مضى جوكوف ـ مع فاسيليفسكي ـ لتنفيذ واجباتهما. وبدأ جوكوف بالعمل مع جبهة أوكرانيا الأولى التي كان يقودها (فاتوتين). ولما وصل إليها وجد أن (فاتوتين) يعمل كثيراً رغم مرضه الشديد، فألزمه بالإخلاد إلى الراحة، واضطلع بعبء العمل نيابة عنه، ونسق التعاون مع جبهة أوكرانيا الثانية (التي كان يقودها كونييف).

وانطلقت القوات للهجوم صباح يوم ٢٩ كانون الأول ـ ديسمبر ـ ١٩٤٣ وهدفها تطويق القوات الألمانية المواجهة لها وتدميرها (وكانت قوتها ٢٠ فرقة منها ٨ فرق مدرعة وفرقة آلية). ولم تصمد القوات الألمانية لثقل الضربة وأخذت في الانسحاب، فتم زج جيشين مدرعين (جيش الحرس الأول وجيش الحرس

الثالث) لتطوير الضربة والإفادة من الموقف الملائم.

وأمكن في نهاية اليوم زادت جبهة الخرق على ٣٠٠ كيلومتر، وبلغ عمقها أكثر من مائة كيلومتر. وتم تحرير عدد من المدن والقرى (منها كوروستين وبروسيلوف وكازاتين وسكفيرا وجيتومير وبيرديتسيف وبيبلاريا وتسيركوف) وتخلل ذلك معارك ضارية. وحاولت القيادة الألمانية سد الثغرة باثنتي عشرة فرقة، غير أن جهود القوات الألمانية لم تفلح في علاج الموقف، واستمر الصراع حتى منتصف شهر كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٤، حيث لجأت القوات السوفييتية لاحتلال خطوط دفاعية جديدة وتوقفت عندها.

أفاد جوكوف من الموقف لتطبيق مخططه الهادف لتطويق القوات الألمانية وحصارها، فدفع قوات جبهتي أوكرانيا الأولى والثانية على شكل سهمين متلاقيين، وعزل المجموعة الألمانية الموجودة في منطقة كورزون ـ شيفتشينكو، وبدأت القوات بممارسة الضغط على اتجاه مركز التطويق. وأحدثت قوات الجبهتين في الوقت ذاته جبهة خارجية أيضاً، لتحول بذلك دون فك الحصار عن التجميع الألماني المطوق ـ من اتجاه أومانا ـ ولتجميد اختراق جبهة القوات الألمانية، واتصال قوات جبهة أوكرانيا الأولى بقوات جبهة أوكرانيا الثانية، وضعت في وسط مدينة (زفيينيغو رودكا) فيما بعد دبابة من طراز (ت ـ ٣٤) على قاعدة. وكتب على هذه القاعدة ما يلي:

«هنا، وفي الثامن والعشرين من كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٤، تم إحكام الطوق على المحتلين الهتلريين في منطقة كورزون ـ

شيفتشينكو. وهنا صافح طاقم الدبابة العائدة للواء المدرعات ١٥٥، حامل الراية الحمراء بقيادة المقدم إيفان بروشين من جبهة أوكرانيا الثانية، والمؤلف من الملازم يفغيني خوخلوف والسائق الميكانيكي أناتولي أندرييف والرامي ياكوف زايتسيف بمصافحة رجال دبابات جبهة أوكرانيا الأولى ـ المجد لأبطال الوطن».

بدأت قيادة القوات الألمانية في محاولة لإنقاذ قواتها التي أحدق بها الموت المحقق، وذلك باستقدام قوات للهجوم على الجبهة السوفييتية الخارجية، بلغ حجمها ٦ فرق. وأرسل قائد الجبهة الألمانية برقية إلى قائد القوات المطوقة (بفتح الواو والقاف) حثهم فيها على الصمود والمقاومة إلى أن يتم تحريرهم وجاء فيها:

«تستطيعون الاعتماد علي كاستنادكم على جدار صخري، سوف تخرجون من هذه البوتقة. وما عليكم إلا أن تصمدوا». ووقعت هذه البرقية في قبضة جوكوف، فاتخذ الإجراءات المضادة لمجابهة الهجوم الألماني المتوقع على الجبهة الخارجية، وأرسل يوم ٩ شباط ـ فبراير ـ ١٩٤٤ برقية إلى القائد الأعلى، جاء فيها:

«تعرضت القوات الألمانية، وفقاً لاعترافات الأسرى، لخسائر كبيرة خلال معارك التطويق. وقد أصيب الجنود الألمان وضباطهم بذهول بلغ في بعض الأحيان حد الذعر. وقد أفادت معلومات الاستطلاع أن العدو قام بحشد قواه الرئيسة الواقعة في دائرة الحصار ضمن منطقة ستيبليف ـ كورزون ـ شيفتشينكو. ويظهر أن العدو يستعد للقيام بالمحاولة الأخيرة للالتقاء بالتجميع المدرع

الـذي يقوم بـالهجوم عـلى اتجاه بـوياركـا. ومن أجل تـأمين هـذا الاتجاه، دفعنا في صباح التاسع من شباط باتجاه منطقة ليسيانكي، لواءاً مدرعاً واحداً ـ من جيش روتميستروف ـ كما دفعنا إلى منطقة كراسنو غورودكا ـ موتايفكا بالفرقة ٣٤٠ ـ من جيش جماتشينكو. قام مندوبـون من قبلنا بتسليم قـوات العدو المـطوقة إنـذاراً نهائياً بالاستلام في الساعة ١٥,٥٠ من يـوم ٨ شباط ـ فبـراير ـ. وعـاد المندوبون وأعلمونا بأن الجواب سيعطى من قبل القيادة الألمانية في الساعة ١١,٠٠ من يوم ٩ شباط».

جوكوف

أجابت القيادة الألمانية برفض الإنذار في الوقت المحدد. وقامت القوات الألمانية بهجمات عنيفة على الجبهتين الداخليـة والخارجيـة للقوات السوفييتية. إلا أنه أمكن إحباط هذه الهجمات. واستمرت القوات الألمانية بهجماتها اليائسـة. وتمكن بعض القادة الألمـان من الفرار بالـطائرات. وفي النهـاية اضـطرت القوات الألمـانية البـاقية للاستسلام بعد أن عانت من التدمير المستمر. فأسرت قوات جبهة أوكرانيا الأولى والثانية ١٨ ألف مقاتل، بالإضافة إلى الاستيلاء على كافة أعتدة القتال التابعة لهذا التجميع.

تابعت قوات الجبهات السوفييتية. وطار جوكوف إلى موسكو، حيث قضى يومي ١٨ و١٩ شباط ـ فبراير ـ ١٩٤٤ في هيئة القيادة العليا، لمناقشة مقترحاته بشأن خطة العمليات القادمة. وقد أمـره القائد الأعلى بالعمـل لتنسيق التعاون بـين جبهتي أوكرانيـا الأولى والثانية، وبدء الأعمال الهجومية على الفور.

وعاد جوكوف إلى مقر هيئة أركان جبهة أوكرانيا الأولى، فوصلها يوم ٢١ شباط، فبراير، حيث أطلع قائد هذه الجبهة (فاتوتين) على التعليمات الجديدة. وتابع جولته على قادة الجيوش، ثم بوغت يوم ٢٩ شباط ـ فبراير ـ بإصابة فاتوتين بجراح بليغة، عندما كان يتوجه إلى قيادة الجيش ٦٠. وقد بذلت جهود كبيرة لإنقاذه، غير أنه فارق الحياة يوم ١٥ نيسان ـ أبريل ـ ودفن بعد يومين في مدينة كييف. وحيت موسكو بعشرين رشقة مدفعية، وداع ابن الوطن البار والقائد الموهوب (نيقولاي فيدروفيتش فاتوتين).

ولما كان جوكوف هو المسؤول عن أعمال هذه الجبهة وعن جبهة أوكرانيا الثانية، فقد أخذ على عاتقه قيادة جبهة أوكرانيا الأولى، وقام بإعلام القائد الأعلى. فصادق القائد الأعلى على قرار جوكوف. **ثم صدر أمر خاص عن هيئة القيادة العليا بتعيين جوكوف قائداً لجبهة أوكرانيا الأولى اعتباراً من اليوم الأول من شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٤٤.**

انطلق جوكوف بقوات جبهة أوكرانيا الأولى للهجوم في يوم ٤ آذار ـ مارس ـ. وتم خرق دفاع القوات الألمانية بعد قتال عنيف، فعملت القيادة الألمانية على زج ١٥ فرقة في مواجهة قوات هذه الجبهة خوفاً من التطويق. ودارت يوم ٧ آذار ـ مارس ـ موقعة ضارية جداً لم يحدث مثلها منذ موقعة كورسك. وظلت القوات الألمانية تحاول طوال الأيام الثمانية التالية إرجاع قوات الجبهة الأوكرانية الأولى إلى قواعدها، ولكن كافة المحاولات باءت بالفشل.

مخطط هجوم الجبهات الأوكرانية في شتاء وصيف عام ١٩٤٤

وتابعت قوات الجبهة الاوكرانية تقدمها السريع نحو الجنوب في ٢١ آذار - مارس - فتم تحطيم المقاومات الألمانية. وأمكن الاستيلاء على مدينة تشيرتكوف (يوم ٢٤ آذار - مارس -) وفي هذا

اليوم ذاته وصلت بعض قوات الجبهة (فيلق الحرس الثامن من جيش المدرعات الأول) إلى نهر الدنيستر، ثم أخذت بقية قوات الجبهة في الوصول تباعاً إلى هذا النهر.

وفي مساء يوم ٢٥ آذار ـ مارس ـ وصلت قوات الجبهة إلى محطة قطار موشا (على مشارف مدينة تشيرنوفيتسي) واستولت على قطار محمل بالدبابات والذخائر. وفي يوم ٢٨ آذار ـ مارس ـ وصلت القوات المدرعة إلى مطار مدينة تشيرنوفيتسي واستولت على عشرات الطائرات الألمانية، فيما كانت هذه الطائرات تستعد للإقلاع.

وفي اليوم التالي تم تحرير المدينة من فلول القوات الألمانية. وتلبية لرغبة السكان، أقيمت قاعدة للدبابة الأولى التي اقتحمت المدينة، ووضعت الدبابة فوقها. وكتب على القاعدة:

«دبابة الملازم نيكبتين التي كانت أول دبابة دخلت المدينة عند تحريرها من المحتلين الألمان الفاشيين يوم ٢٥ آذار ـ مارس ـ ١٩٤٤».

وفي نهاية شهر آذار ـ مارس. تم تطويق تجميع ألماني من ٢١ فرقة منها عشر فرق مدرعة وفرقة آلية وفرقة مدفعية.

بدأت عملية تصفية التجمعات الألمانية في مدينة تيرنوبول يوم ١٢ نيسان ـ أبريل ـ. وبعد يومين انتهت عملية تدمير القوات الألمانية المطوقة. وانتقلت بعد ذلك قوات جبهة أوكرانيا الأولى للدفاع. وتجاوزت قوات هذه الجبهة في تقدمها إلى الأمام مسافة ٣٥٠

كيلومتراً. ودمرت في طريق تقدمها جبهة الدفاع الألمانية حتى كامل عمقها. ونشأت بين مدينة (تيرنوبول) وبين مدينة (شيرنـوفيتسي) ثغرة كبيرة جداً.

وقد اضطرت القيادة الألمانية للعمل بسرعة من أجل سد هـذه الثغـرة، فنقلت قوات كبـرى من جبهات يـوغوسـلافيـا وفـرنسـا والدانمارك وألمانيا وهنغاريا. وتمكنت قوات الجبهة خلال تقدمها من تحرير ٥٧ مدينة ومئات القرى والمراكز المأهولة، مع السيـطرة على ١١ عقدة مواصلات للخطوط الحديدية، ووصلت إلى سفوح جبال الكاربات. **وتم على أثر هذا النصر تقليد جـوكوف وسـام النصر رقم ١.**

تبع ذلك استدعاء جـوكوف يـوم ٢٢ نيسان ـ أبـريل ـ ١٩٤٤ للحضـور إلى موسكـو من أجل منـاقشة خـطة لحملة صيـف سنـة ١٩٤٤ وخريفها. وبينما كان جوكوف في الطائرة، عاد لدراسة قرار هيئة القيادة العليا والذي حدد المهمة الأولى لعمليات صيف ١٩٤٤ بتدمير تجميع القوات الألمانية الفـاشية في روسيـا البيضاء. ووجـد جوكوف أنه من المناسب أن تسبق هذه العملية توجيه ضربات كبيرة وقوية على الإتجاهات الأخرى لدفع القيادة الألمانية إلى سحب الحد الأقصى من الاحتياطات الاستراتيجية من منطقة روسيـا البيضاء، وجرت مناقشة مخططات الهجوم. تقرر البدء بعملية هجوم الصيف في شهـر حـزيـران ـ يـونيـو ـ في بـرزخ (كـاريليـا) بـاتجـاه (بتـروزافـودسـك) ثم تبـدأ العمليـة عـلى اتجـاه روسيـا البيضـاء الاستراتيجي.

وقد عمل جوكوف مع هيئة الأركان العامة لإجراء الاستعدادات الضرورية، ثم عاد إلى جبهة أوكرانيا الأولى يوم ٢٨ نيسان ـ أبريل ـ. وما لبث أن أرسل في بداية شهر أيار ـ مايو ـ اقتراحاً إلى القائد الأعلى يقضي بتسليم قيادة جبهة أوكرانيا الأولى إلى كونييف، وإعفائه من قيادة هذه الجبهة حتى يستطيع الذهاب دونما تأخير إلى هيئة القيادة العليا، والبدء في الإعداد لعملية تحرير روسيا البيضاء. ووافق القائد الأعلى على اقتراح جوكوف. إلا أنه أعلمه في الوقت ذاته بأن جبهة أوكرانيا الأولى سوف تبقى تحت وصايته، وأنه بعد عملية روسيا البيضاء سوف تتم عمليات هامة على قطاع جبهة أوكرانيا الأولى.

وترك جوكوف مقر قيادته، وعاد إلى موسكو، حيث عمل مع هيئة الأركان العامة لإعداد مشروعات جميع الوثائق المتعلقة بخطة عملية تحرير روسيا البيضاء والتي حملت الاسم الاصطلاحي (باغراتيون). وقد تم الانتهاء من هذه الخطة وإعداد متطلبات تأمينها المادي والفني في منتصف شهر أيار ـ مايو ـ. وقد نوقشت هذه الخطة مع القائد الأعلى في عشرين أيار ـ مايو ـ. وصدر الأمر إلى فاسيليفسكي ليأخذ على عاتقه مسألة تنسيق التعاون بين جبهة البلطيق الأولى وبين جبهة روسيا البيضاء الثالثة. كما صدر الأمر إلى جوكوف بتنسيق التعاون بين أعمال جبهة روسيا البيضاء الأولى يوم ٥ حزيران ـ يونيو ـ بعد أن حدد النصف الثاني من حزيران ـ يونيو ـ موعداً للبدء بالهجوم. وتضمنت خطة هيئة القيادة العليا توجيه ثلاث ضربات قوية:

الأولى: بجبهة البلطيق الأولى وجبهة روسيا البيضاء الثالثة على الاتجاه العام نحو فيلينوس.

الثانية: بجبهة روسيا البيضاء الأولى على الإتجاه العام نحو (بارانوفيتشي).

الثالثة: بجبهة روسيا البيضاء الثانية، بالتعاون مع التجميع الموجود على الجناح الأيسر من جبهة روسيا البيضاء الثالثة، والتجميع الموجود على الجناح الأيمن من جبهة روسيا البيضاء الأولى - على الإتجاه العام نحو مينسك.

وقع العبء الأكبر في تنظيم عملية الهجوم على عاتق جوكوف. فقد وضعت جبهة روسيا البيضاء الثانية على محور الجهد الرئيسي، كما أعطت هيئة القيادة العليا إهتماماً كبيراً للضربة القادمة لقوات جبهة روسيا البيضاء الأولى، وقدرت أهميتها الكبرى، فوجهت قواها ووسائطها الرئيسة إلى هناك. وكان على جوكوف أيضاً تنسيق التعاون مع (فاسيليفسكي) وقد تم ذلك بسرعة، وانتهت الاستعدادات وأجريت (لعبة حرب) يومي ١٤ و١٥ حزيران - يونيو - في مقر قيادة جبهة روسيا البيضاء الأولى، بحضور كافة قادة الجيوش والفيالق والفرق وقادة المدفعية وقادة الصنوف، وحددت الواجبات بشكل مفصل، ثم أعيدت (لعبة الحرب) في الأيام الثلاثة التالية على مستوى الجيوش. وسبقت العملية كافة الإجراءات المعروفة (استطلاع قتالي، عمل على المؤخرات الألمانية، التأمين الإداري والفني للقوات الخ . . .).

كانت عملية روسيا البيضاء بمجموعها تغطي مساحة هائلة من الأرض: فقد كانت جبهتها ما بين نهر دفينا الغربي ونهر بريبياتا تزيد على ألف كيلومتر. وكان عمقها ما بين نهر الأودر ونهر الفسيلاناريفا يزيد على ستمائة كيلومتر. وكان على قوة جبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية خوض الموقعة ضد ٨٠٠ ألف جندي وضابط ألماني يملكون ٩٥٠٠ مدفعاً ومدفع هاون و٩٠٠ دبابة ومدفع اقتحام و١٣٠٠ طائرة قتال، واجتياز دفاع محضر يمتد عمقه حتى ٢٧٠ كيلومتر.

بدأ الهجوم يوم ٢٣ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٤ بقوات جبهة البلطيق الأولى التي كان يقودها (باغراميان)، وقوات جبهة روسيا البيضاء الثالثة التي كان يقودها (تشيرنياخوفسكي) وقوات جبهة روسيا البيضاء الثانية التي كان يقودها (زاخاروف). وفي اليوم التالي انتقلت إلى الهجوم أيضاً قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى التي كان يقودها (روكوسوفسكي).

ودارت على الفور رحى المعارك الضارية في كل مكان، وعلى كافة الاتجاهات. وتحقق أول نجاح حاسم يوم ٢٧ حزيران ـ يونيو ـ عندما تم ضرب الحصار على تجميعين ألمانيين قوتهما ٤٠ ألف مقاتل تقريباً في منطقة (بوبرويسك) وبعد يومين تم تطهير مدينة بوبرويسك من القوات الألمانية. وتابعت قوات الجبهات تقدمها، حتى إذا ما كان يوم ٣ تموز ـ يوليو ـ كانت هذه القوات قد عزلت تشكيلات الجيش الألماني الثالث عزلاً تاماً عن طرق انسحابها، وأصبحت معزولة في شرق مدينة مينسك (وقد زاد عدد أفراد هذه

القوات على مائة ألف). وفي اليوم ذاته تم تحرير عـاصمة روسيـا البيضاء (مينسك). واستمرت القوات الألمانية في مقـاومتها ضمن دائرة الحصار الى أن اضطر من بقي منها على قيد الحياة للاستسلام في يوم ٨ تموز ـ يوليو ـ (وبلغ مجمـوع الأسرى ٥٧ ألفـاً منهم ١٢ جنرالاً و٩ قادة فرق و٣ قادة فيالق).

وقد تم استدعاء جوكـوف للحضور إلى مـوسكو، فـوصلها في الصباح الباكر من يوم ٨ تموز ـ يوليو ـ وتوجه إلى الكريملين، حيث تمت مناقشة الموقف العام، مع الأخذ بعين الاعتبار تطور عمليات الحلفاء في الغرب بعـد الإنزال في النـورمانـدي (الذي تم يـوم ٦ حزيران ـ يونيو ـ ١٩٤٤). ووجه ستالين سؤاله إلى جوكوف:

«هل تستطيع قواتنا أن تبدأ بتحرير بولونيـا، وأن تصل إلى نهر فيسلا بدون أن تتوقف؟ وعلى أي قـطاع يمكن أن يزج في المعـركة الجيش الأول من القوات البولونية الذي يتمتع بجميع الخصائص القتالية اللازمة؟».

وأجاب جوكوف: «إن قواتنا لا تستطيع الوصول إلى نهر فيسلا فحسب، بل إنها تستطيع أيضاً الاستيلاء على رؤوس جسور جيدة عليـه لتـأمـين العمليـات الهجـوميـة القـادمـة عـلى اتجـاه بـرلـين الاستراتيجي. أما الجيش البولوني الأول فإنه يجب أن يـوجه عـلى اتجاه وارسو».

فقال له ستالين: «عليك الآن أن تأخـذ على عـاتقك مـوضوع تنسيق أعمال جبهة أوكرانيا الأولى، وأن تركز انتباهك الرئيسي على

الجناح الأيسر من جبهة روسيا البيضاء الأولى وجبهة أوكرانيا الأولى. إن الخطة العامة ومهمات جبهة أوكرانيا الأولى معروفة لديك، ولن تتعرض خطة هيئة القيادة العليا لأي تبديل، وأنت تعرف خطة الجبهة في الأركان العامة».

إطلع ستالين بعد ذلك ـ وبحضور جوكوف ـ على خطة عملية كوفيل التي ستنفذها جبهة روسيا البيضاء الأولى، وهي الخطة التي تضمنت:

١ ـ تدمير التجميع الألماني الموجود في منطقة كوفيل ـ لوبلين.

٢ ـ الاستيلاء على بريست بالتعاون مع قوات الجناح الأيمن للجبهة.

٣ ـ الوصول بجبهة عريضة إلى نهر فيسلا مع الاستيلاء على رأس جسر على ضفته الغربية.

أمضى جوكوف يوم ١٠ تموز ـ يوليو ـ في دراسة خطة جبهة أوكرانيا الأولى، حيث كان على هذه الجبهة توجيه ضربتين قويتين: الأولى باتجاه لفوف والثانية باتجاه رافاروسكي مع توجيه جزء من القوى باتجاه ستانيسلاف. وكان عمق العملية يناهز ٢٢٠ ـ ٢٤٠ كيلومتراً، وكان القطاع المقرر لانطلاق ضربات الجبهة يمتد مسافة ١٠٠ ـ ١٢٠ كيلومتراً.

وصل جوكوف بالطائرة في الصباح المبكر من يوم ١١ تموز ـ يوليو ـ إلى جبهة أوكرانيا الأولى، وأقام مقر قيادته في منطقة لوتسك

حتى يكـون قريبـاً من تجميع كـوفيل ومن جبهـة روسيـا البيضـاء الأولى، وغير بعيد أيضاً عن جبهة أوكرانيا الأولى.

بدأت جبهة أوكرانيا الأولى هجومها يوم ١٣ تموز ـ يوليو ـ باتجاه رافـاروسكي. وبدأ الهجـوم عـلى اتجـاه لفـوف في اليـوم التـالي. وتطورت الأعمال الهجومية بمقادير مختلفـة من النجاح حتى إذا مـا كان يوم ١٨ تموز ـ يوليو ـ اندفعت قوات جبهة أوكرانيا الأولى إلى الأمام مسافة خمسين كيلومتراً بعد أن خرقت دفاع القوات الألمانية. ووصـل الخـرق في بعض الأمـاكن الأخـرى إلى مسـافـة ثمـانـين كيلومتراً، مطوقة بذلك قوات ألمانية تقـدر بثماني فـرق في منطقـة (برودا).

وفي هذا اليوم ذاته، انطلقت قوات الجناح الأيسر لجبهة روسيا البيضاء الأولى بالهجوم من منطقة كوفيل باتجـاه لوبلين. وابتـداء من هذه اللحظة اندفعت جبهة روسيا البيضاء الأولى متقـدمة بجميـع جيـوشها. وكـان من نتائـج الضربـات القويـة التي وجهتها أربـع جبهات إلى مجموعة جيوش الـوسط الألمانيـة، أن تم تدمـير ثلاثـة جيوش ألمانية، وفتحت في الجبهة الاستراتيجية الألمانية ثغرة بعرض ٤٠٠ كم وبعمق ٥٠٠ كم. وكان من الصعب على القيادة الألمانية سد هذه الثغرة. وقد طورت قوات الجبهات السوفييتية هجماتها، فحررت مدينة (لوبلين) يوم ٢٣ تموز ـ يـوليو ـ ثم حـررت مدينـة بريست يوم ٢٨ تموز ـ يوليو ـ وأخذت في الاندفاع نحو نهر فيسلا. وأقامت رؤوس جسور عليه، كما حررت مدينة (لفوف).

اتصل ستالين بجوكوف يوم ٢٩ تموز ـ يوليو ـ وهنأه على تقليده ميدالية النجمة الذهبية الثانية، المرفقة بلقب بطل الاتحاد السوفييتي، ثم اتصل به رئيس هيئة الأركان ـ كالينين ـ وقال له:

بمبادرة من القائد الأعلى، اتخذت لجنة الدولة للدفاع قراراً بتقليدك ميدالية النجمة الذهبية الثانية تقديراً لك على عملية روسيا البيضاء ـ وطرد العدو من غرب أوكرانيا.

انهالت برقيات التهنئة على جوكوف من كل مكان، واتصل به هاتفياً عدد كبير من رفاق السلاح مهنئين. وكان ذلك مثيراً للفرحة والبهجة يقيناً على أن هذه البهجة لم تكن تطغى على سعادته وهو يرى قوات جبهاته وقد انتشرت على الضفة الغربية لنهر فيسلا، إذ أصبح باستطاعته الآن الانطلاق لتحرير بولونيا، ومن ثم التوغل في أقاليم ألمانيا ذاتها، فقد باتت برلين ذاتها على بعد ستمائة كيلومتر من مواقع قواته المتقدمة. وبالإضافة إلى ذلك فقد أنجزت القوات في حملة الصيف من عام ١٩٤٤، سبع عمليات ضخمة عملت فيها على تطويق التجميعات الألمانية وتدميرها (حيث بلغ مجموع ما دمرته القوات السوفييتية على كافة الجبهات ١٢٧ فرقة ألمانية).

اتصل رئيس هيئة الأركان العامة بجوكوف يوم ٢٢ آب ـ أغسطس ـ ١٩٤٤، وطلب إليه الحضور فوراً إلى موسكو، وأعلمه أنه سيكلف بمهمة خاصة حددتها لجنة الدولة للدفاع. وودع جوكوف رفاقه في السلاح وزملاءه في القتال، وتوجه بالطائرة إلى موسكو، فوصلها مساء يوم ٢٣ ـ آب ـ أغسطس ـ وعلم أن لجنة الدولة للدفاع قد عهدت إليه بقيادة جبهة أوكرانيا

الثالثة، والتوجه بها إلى بلغاريا، نظراً لاستمرار حكومتها القيصرية بالتعاون مع ألمانيا الفاشية. وكان عليه قبل ذلك، وبناء على توجيه ستالين ـ الاتصال بزعيم الحزب الشيوعي البلغاري (غريغوري ميخائيلوفيتش ديمتروف) للاطلاع على الموقف العسكري في بلغاريا.

قام جوكوف بزيارة (ديمتروف) فأعلمه هذا أنه قام بإجراء اتصالات جيدة بالمنظمات السرية لحزب العمل البلغاري الشيوعي، وقال له:

«على الرغم من أنك سوف تسافر إلى جبهة أوكرانيا الثالثة، بمهمة إعداد القوات للحرب في بلغاريا، إلا أن الحرب لن تنشب هناك، فالشعب البلغاري ينتظر بفارغ الصبر وصول الجيش الأحمر لمساعدته في قلب الحكومة القيصرية التي يرأسها (باغريانوف) وفي تسليم السلطة لجبهة التحرير الشعبية. ولسوف يستقبلكم الشعب لا بنيران المدفعية والرشاشات، وإنما بالخبز والملح حسب عاداتنا السلافية القديمة. وإنني أرى بالنسبة لقوات الحكومة أنها لن تغامر في خوض صراع مسلح ضد الجيش الأحمر. وحسب معلوماتي فإن قطعات الجيش كلها حالياً تقوم بنشاط كبير، بتأثير رجالنا. وهناك في القرى والجبال قوى كبيرة من الأنصار الذين لا يقبعون في أماكنهم بدون عمل، وإنما يستعدون للنزول من الجبال، ودعم الثورة الشعبية. وقد أثرت انتصارات القوات السوفييتية تأثيراً كبيراً في دعم الحركة الشعبية التحررية في بلغاريا، ويرأس حزبنا هذه الحركة، ويقوم بدور حاسم في تسليح الثورة التي ستندلع مع

وصول الجيش الأحمر».

تقدم جوكوف بشكره إلى (ديمتروف) وتوجه إلى جبهته، وأعدها للقتال. وكان كل شيء جاهزاً يوم ٨ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٤. غير أنه لم يكن هناك على الجبهة البلغارية ما يشير إلى وجود قوات محاربة. ولما دخلت القوات السوفييتية، استقبلت بالترحاب من قبل المواطنين، وتشكلت الحكومة الاشتراكية، وأخذت على عاتقها إدارة أمور الجيش والبلاد، وصدر الأمر إلى القوات السوفييتية بالتوقف، وعدم متابعة التقدم، وترك فيلق سوفييتي في عاصمة البلاد ـ صوفيا ـ لمساعدة الحكومة إذا ما تطلبت الحاجة. وعاد جوكوف إلى موسكو في نهاية شهر أيلول ـ سبتمبر ـ ١٩٤٤، ليتابع دوره في الحرب.

٦ ـ البدء باجتياح ألمانيا

ما إن عاد جوكوف من بلغاريا حتى كلفه القائد الأعلى بالتوجه إلى عاصمة بولونيا ـ وارسو ـ حيث كانت تخوض قوات جبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية معارك ضارية. وتوجه جوكوف إلى وارسو، وقام بدراسة الوضع، فتبين له أن القوات باتت بحاجة للتوقف ريثما تتمكن من استعادة قوتها وتنظيم وحداتها، وأخذ قسط من الراحة بعد الجهد الكبير الذي بذلته في معاركها المتتالية، فلما اتصل جوكوف بالقائد الأعلى، وعرض عليه الموقف، وطلب إليه إيقاف العمليات الهجومية، طلب القائد الأعلى إليه الحضور إلى موسكو في اليوم التالي. وجاء جوكوف، وأعاد شرح الموقف وقاطعه

مولوتوف بقوله:

«أيها الرفيق جوكوف! إنك تقترح إيقاف الهجوم في حين أصبح العدو مهزوماً، وبحالة لا يستطيع معها احتمال ضغط قواتنا! فهل تعتبر اقتراحك هذا سديداً؟».

وقال ستالين: «أعتقد أن العدو سيفيد من فترة الراحة مثلكم. ولكن إذا ما دعمنا الجيش ٤٧ بالطيران، وعززناه بالدبابات والمدفعية، فهل يستطيع الوصول إلى نهر فيسلا - بين مودلين ووارسو؟».

ووجه سؤاله من جديد إلى جوكوف بعد وقفة قصيرة: «ما هو رأيك؟»

وعاد جوكوف للقول: «أرى أن هذا الهجوم لن يحمل لنا أي شيء إلا الضحايا. كما أن منطقة شمال غرب وارسو غير ضرورية لنا بشكل ملح من وجهة نظر العمليات. ويجب الاستيلاء على وارسو بالالتفاف من الجنوب الغربي، بينما نسدد الضربة القوية والحاسمة على الاتجاه العام: لودز - بوزنان، وإن القوى الضرورية لهذه الضربة غير متوافرة في الجبهة حالياً، ولكن يجب أن نحشدها. وينبغي كذلك في الوقت ذاته إعداد الجبهات المجاورة للعمل على اتجاه برلين، إعداداً محكماً للأعمال المشتركة».

لم تعجب هذه الاجابة ستالين لأنها تعارضت مع ما كان يفكر به، فقال لجوكوف:

«إذهب وفكر مرة أخرى، وسنتشاور نحن هنا؟».

وخرج جوكوف إلى غرفة الاستراحة المجاورة، وفتح الخريطة، وعاد للتدقيق فيها، واستدعاه ستالين بعد عشرين دقيقة، وقال له:

«لقد تشاورنا وقررنا الموافقة على انتقال قواتنا للدفاع. أما فيما يتعلق بالخطط المقبلة، فسوف نناقشها بعد، يمكنك الانصراف».

اتصل ستالين في اليوم التالي بجوكوف. وقال له:

«ما هو رأيك في أن ننقل قيادة كافة الجبهات في المستقبل ليد هيئة القيادة العليا؟».

وأجاب جوكوف: «نعم! إن عدد الجبهات قد تناقص، وكذلك امتداد الجبهة العام، وأصبحت قيادة الجبهات أسهل بكثير، وبالإمكان قيادة الجبهات مباشرة من قبل هيئة القيادة العليا».

وعاد ستالين للسؤال: «هل تقول هذا بدون استياء؟».

وأجاب جوكوف: «علام الاستياء؟ أعتقد بأنني لن أبق بدون عمل».

استدعى ستالين في مساء اليوم ذاته جوكوف. وقال له:

«إن جبهة روسيا البيضاء الأولى هي الآن على اتجاه برلين، وإننا نفكر بأن نضعك على هذا الاتجاه. ما رأيك؟»

أجاب جوكوف: «إنني على استعداد لقيادة أية جبهة كانت».

فقال ستالين: «إنك ستبقى نائبي في المستقبل أيضاً».

أصبح على جوكوف بناء على تكليف القائد الأعلى، العمل في نهاية شهر تشرين الأول ـ أكتوبر ـ وبداية شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٤٤، من أجل معالجة المسائل الأساسية المتعلقة بالحملة الختامية من الحرب، وقبل كل شيء بخطط عمليات اتجاه برلين.

كانت هيئة الأركان العامة قد وضعت مخططاتها على أساس البدء أولاً بهجوم الجبهات الجنوبية على اتجاه فيينا، بهدف إرغام القيادة الألمانية على نقل القوى الهامة الموجودة مقابل الجبهات السوفييتية الغربية، وذلك من أجل تعزيز الاتجاه الجنوبي الغربي الاستراتيجي الذي كان منوطاً به مصير جنوب شرق ألمانيا. وقد لاحظ جوكوف ـ بمرارة ـ إهمال هيئة القيادة العليا للاقتراح الذي كان قد تقدم به في الصيف، لتعزيز الجبهات التي كانت تعمل على اتجاه بروسيا الشرقية، من أجل تمكينها من مهاجمة الدفاع الألماني هجوماً من الحركة، لدى نجاح عملية روسيا البيضاء، وتطويرها. أما الآن فإن التجميع الألماني في بروسيا الشرقية بات قادراً على تهديد القوات السوفييتية تهديداً خطيراً عند هجومها على اتجاه برلين، لا سيما وقد حشدت القيادة الألمانية في بروسيا الشرقية تجميعاً ضخماً، ونظمت فيها دفاعاً متطوراً استند إلى المنشآت الهندسية الثابتة وطبيعة الأرض الصعبة، وما يتوافر في بروسيا الشرقية من أبنية حجرية قوية في المدن.

حضر جوكوف لمقابلة ستالين ـ بناء على طلب ستالين ـ في يوم ٢ تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٤٤ فطرح جوكوف من جديد رأيه بضرورة تعزيز جبهة روسيا البيضاء الثانية، بجيش آخر لسحق

تجميع بروسيا الشرقية. ورفض ستالين مرة أخرى الاقتراح، وطلب إعادة البحث في خطة هجوم قوات جبهة روسيا البيضاء الأولى. وأعاد جوكوف اقتراحه بإلغاء توجيه ضربة جبهية ومباشرة عبر نهر فيسلا - ضد وارسو - ووافق ستالين هذه المرة على اقتراح جوكوف، الذي توجه يوم ١٥ تشرين الثاني - نوفمبر - إلى (ليوبلين). وفي اليوم التالي تلقى أمراً بتعيينه قائداً لجبهة روسيا البيضاء الأولى. وبعد أن قضى يومين في (ليوبلين) في بحث الموقف مع القيادات العسكرية ومع القيادة السياسية في بولونيا، بدأ بمباشرة عمله في قيادة الجبهة.

لقد جابه جوكوف لدى إعداد خطة الهجوم لجبهة روسيا البيضاء ظروفاً تختلف عن الظروف التي عرفها لدى إعداد الخطط السابقة عندما كان يتم الهجوم فوق أراضي الاتحاد السوفييتي. ففي الأعمال السابقة، كانت القيادة تتلقى معلومات جيدة من وحدات الاستطلاع ومن مفارز الأنصار الصديقة والتي كانت تعمل على مؤخرة القوات الألمانية. أما الآن، فلم يعد هناك وجود لمثل هذه المفارز، وأصبح لزاماً جمع المعلومات عن العدو بواسطة العملاء والاعتماد على الاستطلاع الجوي بشكل رئيسي، وبواسطة استطلاع القوات الأرضية.

هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فقد باتت الخطوط الحديدية وخطوط المواصلات البرية تمر عبر الأراضي البولونية، وكان يوجد عملاء للألمان مما كان يفرض اتخاذ تدابير الحيطة والحذر مع إحاطة تحركات القوات وتجميعها بنطاق من تدابير الأمن والحيطة.

انتهى إعداد خطة الهجوم، وصادقت عليها القيادة العليا في نهاية شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ إلا أنها لم تحدد موعداً لتنفيذها، واكتفت بالإشارة إلى أنه يجب إنهاء الاستعدادات للتنفيذ ما بين ١٥ و٢٠ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٥.

تضمنت مرحلة الاستعداد كافة التدابير المعقدة التي سبق التعرض لها (بما في ذلك لعب الحرب) وأعطيت العملية في البدء اسم (عملية وارسو ـ بوزنان) ثم أعطيت اسم (فيسلا ـ أودر).

بدأ هجوم الشتاء يوم ١٣ كانون الثاني ـ يناير ـ ١٩٤٥، وجوبه منذ بدايته بمقاومة ضارية، إلا أن المقاومة الألمانية لم تصمد لثقل الهجمة السوفييتية، وأمكن الاستيلاء على مدينة لودز يوم ١٩ كانون الثاني ـ يناير ـ. وذكر جوكوف في تقريره للقائد الأعلى يوم ٢٥ كانون الثاني ـ يناير ـ ما يلي:

«لقد تحطمت معنويات العدو، وهو لا يستطيع الآن إبداء مقاومة عنيفة. قررنا متابعة الهجوم حتى وصول قوات الجبهة إلى نهر الأودر. إن الاتجاه الأساسي للهجوم هو كيوسترين (كوستشين) حيث سنحاول الاستيلاء على رأس جسر هناك. أما الجناح الأيمن للجبهة، فسيفتح في الاتجاهين الشمالي والشمالي الغربي، مقابل تجميع بوميران الشرقية الذي لا يعتبر حالياً مصدر خطر جدي ومباشر».

وصلت القوات المتقدمة إلى نهر الأودر صباح يوم ٣١ كانون الثاني ـ يناير ـ واقتحمته، واستولت على رأس جسر. وكان ظهور

القوات السوفييتية على بعد ٧٠ كيلومتراً من برلين أمراً غير متوقع أذهل الألمان وقيادتهم، غير أنهم أسرعوا لزج قوات ضخمة في محاولة لطرد القوات السوفييتية. ودارت معارك ضارية استمرت عدة أيام، أمكن خلالها توسيع رأس الجسر حتى بلغ ٤٤ كيلومتراً، فيما استمرت المقاومة الضارية والهجمات الألمانية العنيدة، مما دفع جوكوف لإرسال البرقيات للجيوش التابعة لها، ومنها هذه البرقية:

«إلى المجلس العسكري في الجيش الخامس الضارب.
إلى قادة فيالق وفرق الجيش الخامس الضارب.

لقد عهد إلى الجيش الخامس الضارب بمهمة حساسة للغاية هي المحافظة على رأس الجسر الذي تم الاستيلاء عليه على الضفة الغربية لنهر الأودر، وتوسيع رأس الجسر هذا، لكي يصل حتى عشرين كيلومتراً في الجبهة و١٢ كيلومتراً في العمق.

أرجو منكم أن تقدروا جميعاً المسؤولية التاريخية المتعلقة بتنفيذ المهمة الملقاة على عاتقكم، وأن تخبروا عناصركم بذلك، وأن تطلبوا من القوات إبداء صمود فريد وشجاعة نادرة. إننا مع الأسف لا نستطيع حالياً تقديم الدعم لكم بالطيران، لأن المطارات مغمورة بالمياه، ولا تستطيع الطائرات الاقلاع منها. أما العدو فإنه يقلع من مطارات برلين المجهزة بمهابط إسمنتية. لذلك أوصي بما يلي:

«١ ـ أن تحفروا الخنادق عميقاً في الأرض.

٢ ـ أن تنظموا نيراناً كثيفة بالمدفعية المضادة للطائرات.

٣ ـ أن تنتقلوا إلى الأعمال الليلية، وأن تهاجموا كل مرة بأهداف محدودة.

٤ ـ أن تقوموا نهاراً بصد هجمات العدو.

ولن يمضي يومان أو ثلاثة حتى تنهار مقاومة العدو.

أتمنى لكم وللقوات التي تقودونها نجاحاً ذا أهمية تاريخية كبيرة، نجاحاً لا أقول أنكم تستطيعون تحقيقه فحسب، بل يجب عليكم تحقيقه».

غ. جوكوف

تجاوزت قوات الهجوم الأزمة الصعبة على ضفاف الاودر، ونجحت قوات جبهتي روسيا البيضاء الأولى والثانية في إنجاز سحق التجمع الألماني في بوميرانيا سحقاً تاماً، وأصبحت بومبرانيا بكاملها في قبضة القوات السوفييتية مع نهاية شهر آذار ـ مارس ـ ١٩٤٥.

كان من نتيجة النجاح في تنفيذ عملية (فيسلا ـ أودر) أن تم تحرير قسم كبير من بولونيا، وانتقلت الأعمال القتالية إلى أرض ألمانيا ذاتها. كما تم في هذه العملية سحق ستين فرقة من القوات الألمانية، مما أرغم القيادة الألمانية على سحب أكثر من عشرين فرقة من قطاعات أخرى من الجبهة السوفييتية ـ الألمانية ومن الجبهة الغربية والجبهة الإيطالية، وذلك لتشكيل جبهة جديدة للدفاع على اتجاه برلين. ولقد كانت عملية الهجوم من الفيسلا إلى الأودر في الواقع نموذجاً رائعاً لأضخم العمليات الهجومية الاستراتيجية التي

تطورت بدون أي تـوقف. وكان المعـدل الوسـطي اليومي لتقـدم القوات هو بين ٢٥ و٣٠ كيلومتراً. أما الجيوش المدرعة فقد وصل معدل تقدمها اليومي ـ وسطياً ـ حتى ٤٥ كيلومتراً ، بل إنه بلغ في بعض الأيام سبعين كيلومتراً.

لقد بات باب (برلين) مفتوحاً أمام القوات السوفييتية. وفي يوم ٨ آذار ـ مارس ـ تم استدعاء جوكوف للسفر بسرعة إلى موسكو، لمناقشة مخططات المرحلة القادمة. ووصل جوكوف بالطائرة، وتوجه فوراً إلى بيت ستالين الصيفي (الداشا القريبة) حيث كان يقيم فيها بسبب انحـراف صحته. وبعـد أن استوضـح ستالـين عن مسيرة العمليات في بوميرانيا قال لجوكوف:

«هلم نتحرك قليلاً، فإنني أشعر بشيء من الضيق».

لاحظ جوكوف على هيئة ستالين ومن خلال حركاته وحديثه، ما بلغه من إعياء جسدي شديد وقال لنفسه:

«لقد أرهق ستالين إرهاقاً شديداً خلال فتـرة الحرب هـذه التي دامت أربع سنوات. ولقد بذل خلالها جهوداً كبيرة، لطالما حرمته من النوم؟ وكم عانى من آلام الفشل خلال سنتي ١٩٤١ و١٩٤٢، وإذن فلا بد من أن ينعكس ذلك على صحته».

تحدث ستالين للمرة الأولى ـ مع جوكـوف ـ عن أيام طفـولته، ولمدة ساعة على الأقل. وسأله جوكوف:

«رفيق ستالين! لقد كنت أرغب منذ زمن بعيد أن استفسر عن

ابنكم ياكوف ـ يعقوب ـ أليست هناك أية معلومات عن مصيره؟».

لم يجب ستالين مباشرة، وبعد أن سار مئة خطوة أو أكثر قال بصوت خافت:

«لن يسلم ياكوف من الأسر، إذ أن السفاحين المجرمين سيقتلونه رمياً بالرصاص. إنهم كما تشير المعلومات، يحتفظون به بمعزل عن غيره من الأسرى العسكريين. ويحاولون إكراهه على خيانة وطنه، وبعد أن صمت قليلاً قال بصلابة: كلا! إن ياكوف يفضل أن يواجه أية ميتة على أن يخون وطنه ـ ثم قال بمرارة:

«يا لها من حرب قاسية، لكم أودت بأعداد كبيرة من أرواح ابنائنا، ولن تكون هناك عائلة أو أسرة على ما يظهر، إلا ولها نصيبها من النكبة بفقد عزيز عليها».

ومضى ستالين وجوكوف بعد ذلك في الحديث عن السياسة الدولية، ومؤتمر يالطا، وأهداف الحلفاء، ومخططات الاتحاد السوفييتي.

وكان مفتاح القضية هو الوصول إلى برلين، فتمت مناقشة الخطة، وكان على جوكوف متابعة ما بدأ بتنفيذه.

٧ ـ يوم الثأر

بينما كان جوكوف يتابع تقدم الجبهات السوفييتية نحو الحدود الألمانية، كان يعمل في الوقت ذاته ومنذ شهر تشرين الثاني ـ نوفمبر ـ ١٩٤٤ على إعداد المخططات لاجتياح برلين، وتدمير بقايا

التجميعات الألمانية فيها، وتنفيذ القرار السياسي الذي اتخذه قادة الحلفاء وهو «إرغام المانيا على الاستسلام بدون قيد أو شرط».

استدعت القيادة العليا جوكوف للحضور إلى موسكو يوم ٢٩ آذار ـ مارس ـ ١٩٤٥، فحمل معه خطة جبهة روسيا البيضاء الأولى لعملية برلين. ووصل جوكوف في ساعة متأخرة من الليل، إلى الكريملين. وكان ستالين قد فرغ لتوه من الاجتماع بأعضاء لجنة الدولة والدفاع. فلما دخل جوكوف، مد إليه يده صامتاً، وقال كما كان يفعل دائماً كأنه يتابع الحديث الذي لم تمض فترة طويلة على توقفه.

«لقد انهارت الجبهة الألمانية انهياراً نهائياً في الغرب. ويظهر أن النازيين لا يريدون إتخاذ التدابير لإيقاف تقدم الحلفاء، بينما يقومون بدعم تجميعاتهم ضدنا على جميع الاتجاهات الهامة، وأعتقد أن القتال سيكون حامي الوطيس... فما هو تقديرك للعدو على اتجاه برلين؟».

أخرج جوكوف خارطته الخاصة باستطلاع الجبهة، ووضعها أمام القائد الأعلى. وأخذ ستالين ينظر بانتباه إلى موقف التجميع العملياتي ـ الاستراتيجي للقوات الألمانية على اتجاه برلين الاستراتيجي. لقد كان لدى الألمان بحسب المعلومات المتوافرة أربعة جيوش تضم تسعين فرقة بينها ١٤ فرقة مدرعة ومحمولة و٣٧ فوجاً مستقلاً و٩٨ كتيبة مستقلة. وكانت هذه التشكيلات والوحدات تضم مليون مقاتل و١٠ آلاف مدفع وهاون و١٥٠٠

دبابة ومدفع اقتحام و٣٣٠٠ طائرة حربية، بالاضافة إلى حامية برلين التي ضمت مائتي ألف مقاتل.

وسأل ستالين: «متى تستطيع قواتنا أن تبدأ الهجوم؟».

أجاب جوكوف: «تستطيع جبهة روسيا البيضاء الأولى أن تبدأ الهجوم خلال أسبوعين على أبعد تقدير كما أن جبهة أوكرانيا الأولى ستكون جاهزة خلال هذه الفترة على ما يبدو. أما جبهة روسيا البيضاء الثانية، وحسبما تؤكد كافة المعلومات، فإنها ستتأخر في تدمير بقايا قوات العدو في منطقة دانتزيغ وغدينيا حتى أواسط شهر نيسان ـ أبريل ـ. ولن تستطيع أن تبدأ الهجوم من نهر الاودر في آن واحد مع جبهة روسيا البيضاء الأولى وجبهة أوكرانيا الأولى».

فعقب ستالين: «ما العمل؟ علينا أن نبدأ العملية بدون انتظار روكوسوفسكي، ولا ضير إذا ما تأخر لعدة أيام».

أمر ستالين باستدعاء قائد جبهة أوكرانيا الأولى ـ الجنرال كونييف ـ إلى اجتماع يعقد في اليوم الأول من نيسان ـ ابريل ـ ١٩٤٥ لمناقشة خطة الهجوم على برلين بقوات الجبهات الثلاث.
وبنتيجة المناقشة، تقرر أن يبدأ الهجوم على برلين يوم ١٦ نيسان ـ أبريل ـ ١٩٤٥. وصدرت الأوامر عن القائد الأعلى بتحديد واجبات الجبهات.

كان الوقت يضغط بثقله على صدر جوكوف، فلم يبق إلا أسبوعان لبدء العملية الحاسمة، وكان هناك كثير من التدابير التي يجب تنفيذها على الفور، ومنها تنظيم إعادة تجميع القوات، ونقل

احتياطات هائلة من الوسائط المادية للقوات والقيام بتحضير كبير شامل (تكتيكي وعلى مستوى العمليات). ولقد تولى جوكوف الإشراف على عمليات هجومية ضخمة وهامة، إلا أن عملية احتلال برلين تتميز بطبيعة خاصة، بحيث يصعب مقارنتها بأية عملية أخرى. إذ كان على قوات الجبهة أن تخترق منطقة متماسكة ومنسقة بالعمق في إطار خطوط دفاعية قوية متتالية، بداية من نهر الاودر ذاته، ونهاية بمدينة برلين المحصنة تحصيناً قوياً. وكان لزاماً على هذه القوات أن ينسحق على مشارف برلين أضخم تجمع من القوات الألمانية النازية. وبالإضافة الى ذلك، فإن القوات السوفييتية لم تجابه عبر زحفها من ستالينغراد مدناً ضخمة محصنة جداً مثل مدينة برلين، كانت مساحتها العامة تقارب ٩٠٠ كيلومتر مربع. وكانت المنشآت المتطورة تحت الأرض تمكن القوات النازية من القيام بالمناورة على نطاق واسع.

قام طيران الاستطلاع السوفييتي بتصوير برلين وكافة الطرق المؤدية إليها، والنطاقات الدفاعية المحيطة بها ست مرات متتالية. وأمكن بفضل الصور الجوية الملتقطة، بالإضافة إلى الوثائق التي تم الاستيلاء عليها، والتي أكملتها عمليات استجواب الأسرى، الحصول على مخططات دقيقة ومفصلة مع خرائط تم تزويد كافة القيادات وهيئات الأركان والقوات حتى مستوى السرايا بها. كما صنعت قطعات الهندسة نموذجاً مصغراً للمدينة مع ضواحيها. وقد استخدم هذا النموذج لدراسة تنظيم الهجوم والقتال في وسط المدينة. وجرى ما بين الخامس والسابع من نيسان ـ أبريل ـ اجتماع

تم خلاله بكل نشاط وإبداع تنفيذ (لعبة حرب) على الخرائط وعلى النمـوذج المصغر لبـرلين، واشتـرك في هذه اللعبـة قـادة الجيـوش ورؤساء هيئات أركانها، وأعضاء المجالس العسكرية في الجيوش، ورئيس الإدارة السياسية في الجبهة وقادة مدفعية الجيوش والجبهة، وقادة الفيالق المستقلة، وقادة صنوف الجبهـة، كما حضـرها رئيس مؤخرة الجبهة الذي درس مسائل التأمين المادي للعملية بدقة كاملة وعناية فائقة. كما جرت ما بين ٨ ـ ١٤ نيسان ـ ابريل ـ لعب أكثر تفصيلاً، ودروس في الجيوش والفيالق والفرق والقوات من مختلف صنوف القوات.

كان جوكوف وهو يعـد للمعركـة، يشارك الجميـع في مناقشـة الأمور التي يجب القيام بها لصعق العدو والقضاء عليه. وتقرر أن تبدأ الضربة ضد العدو قبل الفجر بساعتـين. ولكن هذا الهجـوم الليـلي يحتاج لـلإنارة، وهنـا خطرت فكـرة استخدام الكشـافـات (الأنوار الكاشفـة). وأصبح لـزاماً استخـدام ١٤٠ كشافـاً مضاداً للطائـرات بإنـارة أرض المعركـة وتحديـد مواقـع العـدو وأهـداف الهجوم. وتم أثناء الإعداد للعملية شرح فعاليـة عمر الكشـافات لكافة المشتركين في تنفيذ العملية.

تبين لجوكوف، من خلال لعبة الحرب، أن القوات المهاجمـة في النسق الأول قد تصطدم بمقاومة قوية في منطقة مـرتفعات زيلوف المحصنة والواقعة على بعـد ١٢ كيلومتراً عن الحـد الأمامي للقـوات الألمانية، فقرر تعديل المهمات التي أصدرتها القيادة العليا، ووضع جيش الحـرس المـدرع الأول في قـاعـدة الانـطلاق، خلف جيش

الحرس المدرع الثامن، وذلك لتكثيف الضربة، والمحافظة على سرعة تقدم الهجوم. ولما أعلم جوكوف القائد الأعلى ستالين بتعديل المهمات تبعاً للموقف أجابه ستالين:

«افعل ما تراه ضرورياً. إنك هناك ترى بوضوح أكثر منا».

تحركت الدبابات والمدافع خلال مرحلة التحضير للهجوم، وقد أخذت بأسباب الحذر الشديد، وطبقت قواعد الإخفاء والتمويه بدقة عند انتقالها إلى الجنوب، وأصبحت جميع الأحراش والغابات الواقعة على الضفة الشرقية لنهر الاودر مكتظة بالقوات. وكان رأس الجسر الذي أقيم على نهر الاودر محرماً على كل حركة في النهار حتى إذا ما هبط الليل، عادت إليه الحياة، حيث كان عشرات الألوف من الجند يقومون بحفر الحفر لإعداد مرابض المدفعية وللسدنة، وذلك باستخدام الرفوش والمعاول فقط. وتم في هذه الليالي حفر أكثر من مليون وثمانمائة ألف متر مكعب من التربة. ولم يكن العمل سهلاً، بسبب وجود المياه الربيعية التي تبقى على عمق بسيط من سطح التربة، وكذلك بسبب المطر والوحل. وكان لزاماً بعد ذلك كله، القيام بأعمال الإخفاء والتمويه قبل ظهور أول ضوء، بحيث لا يظهر أي تغيير في سطح الأرض. وكانت هناك أرتال ضخمة من الدبابات والمدفعية والعربات المحملة بالذخائر والمحروقات والمواد التموينية، تتحرك أثناء الليل. وكان لا بد من أن يكدس للمدفعية وحدها ٧,١٤٧,٠٠٠ قذيفة. وأجريت كذلك إصلاحات على الطرق والخطوط الحديدية، حتى لا يتوقف سيل الإمداد عندما يبدأ الهجوم.

وهكذا أمكن خلال المرحلة التحضيرية للهجوم على برلين تأمين الحشد في قطاع ضيق من الجبهة نسبياً، وخلال وقت قصير، ٦٨ فرقة مشاة و٣١٥٥ دبابة ومدفع ذاتي الحركة وحوالي ٤٢ ألف مدفع وهاون. وبلغت الكثافة للمدفعية على قطاع الضربة الرئيسة لقوات الجبهة ٢٧٠ سبطانة من عيار ٧٦ ملم فأكثر على كل كيلومتر واحد من جبهة الخرق.

سبق عملية الهجوم بيومين استطلاع لكافة الجبهة قامت بتنفيذه ٣٢ مفرزة استطلاعية قوة كل منها كتيبة مشاة (خلال يومي ١٤ و١٥ نيسان ـ أبريل ـ ١٩٤٥) وذلك بهدف كشف الجهاز الناري للدفاع الألماني، وتحديد مواقع تجمعات قواته، وتحديد الأماكن القوية والأماكن الأكثر ضعفاً في نطاقه الدفاعي. وكان لهذا الاستطلاع القتالي هدف آخر أيضاً، هو حمل الألمان على دفع أكبر قوة مقاتلة مع وسائطها القتالية إلى الحد الأمامي حتى يتم تدميرها بنيران مدفعية الجبهة كلها خلال التمهيد المدفعي للهجوم. وقد رافق هذا الاستطلاع القتالي ضربات قوية بنيران المدفعية وقد حققت عمليات الاستطلاع أهدافها كاملة.

تعوَّد الألمان خلال سنوات الحرب، أن تبدأ القوات السوفييتية عملية التمهيد المدفعي والجوي قبل الخرق في الصباح، على أساس أن هجوم المشاة والدبابات لا يتم إلا على ضوء النهار. وتقرر الإفادة من هذه الناحية، عند تحديد ساعة الهجوم.

انطلق جوكوف في وقت متأخر من ليل ١٥ نيسان ـ أبريل ـ ١٩٤٥، وذلك قبل بداية التمهيد المدفعي بساعات قليلة، وتوجه

إلى مقر رصد قائد جيش الحرس الثامن. وقابل أثناء طريقه عدداً من قادة التشكيلات المشتركة والمدرعة وقائد جيش الحرس الأول. وقد أعجب جوكوف بما شاهده من استعدادات لاستقبال أحداث اليوم الجديد. وعندما أزفت الساعة الثالثة من فجر يوم ١٦ نيسان ـ أبريل ـ. تلقى جوكوف إشعاراً من كافة قادة الجيوش والفرق والأسلحة، باستعداد القوات للانطلاق بالهجوم. وحددت الساعة الخامسة موعداً لبداية التمهيد المدفعي. وأخذت عقارب الساعة تتحرك متثاقلة، متباطئة، تسير على مهل، أو هكذا خُيِّل للمقاتلين جميعاً، قادة وجنوداً، وهم ينتظرون الموعد. لقد كانت الأعصاب متوترة ومشدودة، ومتحفزة، حتى إذا ما تلاقت عقارب الساعة على الموعد سطعت الأرض بضياء شديد بعثته آلاف الطلقات من سبطانات المدفعية ومدافع الهاون والكاتيوشا. وبدأ القصف قوياً، كالرعد، واهتزت الأرض بعنف وشدة فيما كان هدير الطائرات وأزيز قنابلها يمزق صمت الفضاء، هذا فيما كانت آلاف الشهب تتلوى في السماء، فسطعت على أثرها الأنوار الكاشفة من المولدات التي وزعت بمعدل كاشف لكل مائتي متر، فأضاءت أرض المعركة بأكثر من مائة مليار شمعة، فخطفت أبصار العدو، وكشفت لدبابات الهجوم ومشاتها الأهداف التي كانت مستترة في الظلام. ولم تستطع القيادة الألمانية التي كانت تمتلك في برلين أعداداً ضخمة من الطائرات، أن تستخدم هذه الطائرات بفعالية في الليل. وعندما أشرق الفجر، كانت قوات الهجوم قد اقتربت جداً من الخطوط الألمانية، فلم تتمكن الطائرات الألمانية من ضرب

القطعات الأمامية المتقدمة خشية أن تصيب قواتها الأرضية الصديقة. ومقابل ذلك كان الطيران السوفييتي يمضي موجة في أثر موجة لدعم المعركة الأرضية، وقصف الأهداف البعيدة، فتم في اليوم الأول من المعركة تنفيذ أكثر من ٦٥٥٠ طلعة جوية.

كان قد خطط لعمليات اليوم الأول، أن تستهلك المدفعية وحدها مليوناً و١٩٧ ألفاً من القذائف، ولكنها تجاوزت هذا الرقم فاستهلكت مليوناً و٢٣٦ ألف قذيفة، وهذا يعني ٢٤٥٠ عربة سكة حديدية مليئة بالقذائف، أي ما يعادل ٩٨ ألف طن من الفولاذ انهالت على رؤوس الألمان. وبذلك تم تدمير دفاع العدو وإبطاله على عمق ثمانية كيلومترات، وسحق وإبطال بعض مراكز مقاومته على عمق يبلغ حتى ١٠ ـ ١٢ كم.

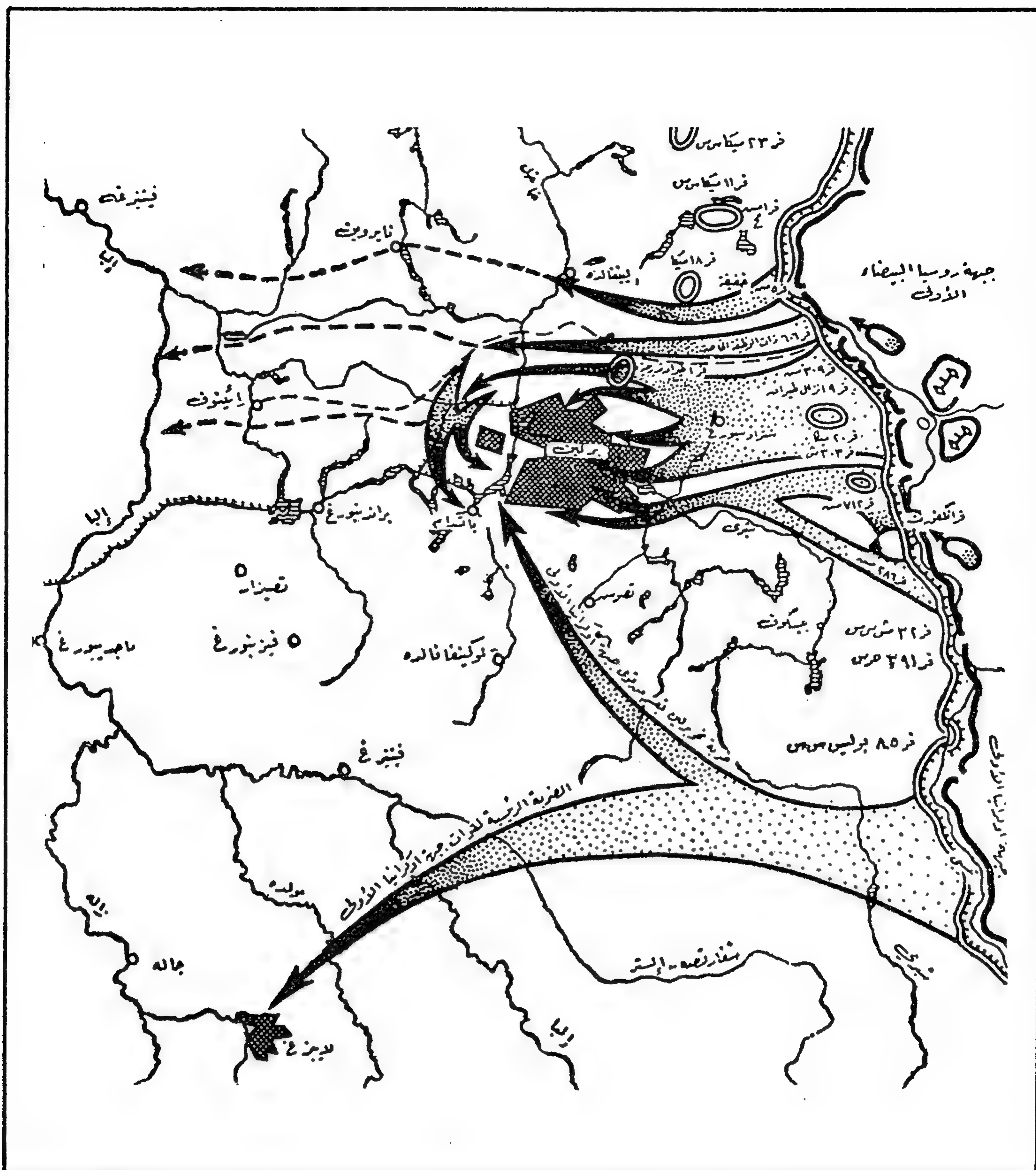
حققت قوات الهجوم تقدماً سريعاً عند انطلاقتها، غير أنها لم تلبث أن توقفت أمام مرتفعات زيلوف. وكان هذا الخط الطبيعي يشرف على كافة الأراضي المحيطة به، وله سفوح حادة، كما يعتبر حاجزاً هاماً من جميع النواحي أمام الطرق المؤدية إلى برلين؛ إذ كان يقف جداراً متماسكاً أمام قوات الهجوم، مدافعاً بذلك عن السهل الذي كان يجب أن تنشب عليه الموقعة الرئيسة على المشارف القريبة من برلين. وكان الألمان يعتمدون على إيقاف القوات السوفييتية عند سفوح هذه المرتفعات فحشدوا هناك أكبر كمية من القوى والوسائط. ولم تكن مرتفعات زيلوف تحد من تقدم الدبابات السوفييتية فحسب، بل كانت كذلك حاجزاً هاماً أمام رصد المدفعية. فكانت تحجب عمق الدفاع الألماني، وتحول دون المراصد

الأرضية من تأمين الرصد المدفعي.

استمرت مقاومة الألمان على خط زيلوف ومرتفعاته يومين كاملين، إلى أن تمكنت قوات الهجوم من الاستيلاء عليه في صباح يوم ١٨ نيسان - أبريل - ١٩٤٥.

بدأت المدفعية السوفييتية بقصف مدينة برلين يوم ٢٠ نيسان - أبريل -. وفي يوم ٢١ نيسان، شقت القوات المتقدمة طريقها إلى الضواحي. وأخذت المقاومة الضارية تتزايد عنفاً مع تقدم القوات السوفيتية، حيث كان المقاتلون الألمان ينتقلون من شقة إلى شقة ومن بناء إلى بناء، ومن شارع إلى شارع ويتحركون عبر الملاجىء والأنفاق التي كانت ذات فائدة كبيرة لهم. ولكن هذه المقاومة لم تتمكن من إيقاف حدة الهجوم، بسبب تنظيم قوات الهجوم بأنساق متتالية. فكان يتم الهجوم في النهار بنسق من القوات، ثم يتقدمه نسق آخر في الليل، وبذلك أمكن تأمين الاستمرار في التقدم ليلاً ونهاراً، حتى لا تتاح للقوات الألمانية فرصة تنظيم مقاومات جديدة. وكانت كل هجمة من هجمات المشاة والدبابات ترافق بضربة كثيفة من المدفعية والطيران التي تم توجيهها إلى كافة قطاعات الجبهة. كان هناك ١١ ألف مدفع تفتح نيرانها في آن واحد خلال فترات متفرقة من الزمن، حتى بلغ ما تم قذفه على برلين ما بين ٢١ نيسان - أبريل - و٢ أيار - مايو - حوالي مليون وثمانمائة ألف قذيفة، بلغ وزنها حوالي ٣٦ ألف طن.

وفي اليوم الثالث من معارك برلين، تحركت من محطة سيليزيا



الخطة العامة لعملية برلين

على خط حديدي تم إعداده إعداداً خاصاً، مدافع قلاع محمـولة على عربات الخط الحديدي، وقامت بفتح نيرانها عـلى المدينة. . وكان وزن كل قذيفة من هذه المدافع تعادل نصف طن. وبـذلك تناثر دفاع برلين هباء، وتمزق شر ممزق.

دارت معارك ضارية في قلب برلـين يوم ٢٥ نيسـان ـ أبـريل ـ

وتصاعدت حدة هذه المعارك حتى وصلت ذروتها يوم ٢٩ نيسان - أبريل - حيث أمكن الوصول في هذا النهار إلى مبنى البلدية. وفي اليوم التالي (٣٠ نيسان - أبريل -) دارت ملحمة دموية طاحنة للاستيلاء على الرايخستاغ.

وفي الساعة ١٥,٠٠ من يوم ٣٠ نيسان - أبريل - اتصل قائد الجبهة كوزنيتسوف هاتفياً، وأبلغ جوكوف ما يلي:

«الراية الحمراء على الرايخستاغ! أورا.. أيها الرفيق المارشال».

وأجابه جوكوف: «عزيزي فاسييلي إيفانوفيتش، أهنئك وجميع جنودك من كل قلبي على هذا النصر الرائع. لن ينسى الشعب السوفييتي أبداً هذه المأثرة التاريخية التي حققتها قواتك. ولكن كيف تجري الأمور في الرايخستاغ نفسه؟».

وأجاب كوزنيتسوف: «ما تزال المعارك مستمرة في بعض أقسام الطوابق العليا وفي أقبية البناء».

وفي نهاية يوم ١ أيار - مايو - استسلمت القوات النازية الباقية في الرايخستاغ.

لكن قصة يوم الثأر لم تصل حتى نهايتها، بعد. ففي الساعة ٣,٥٠ من فجر اليوم الأول من أيار، كان رئيس هيئة الأركان العامة للقوات البرية الألمانية - الجنرال كريبس - قد وصل إلى مقر رصد جيش الحرس الثامن، وقابل الجنرال تشيكوف، وقدم له رسالة من غوبلز جاء فيها:

«استناداً إلى وصية الفوهرر الذي ارتحل عنا، فإننا نفوض الجنرال كريبس بما يلي: نعلم قائد الشعب السوفييتي، بأن الفوهرر فارق الحياة بمحض إرادته اليوم في الساعة ١٥,٥٠. وقد قام الفوهرر على أساس حقه القانوني، واستناداً إلى الوصية التي تركها، بنقل السلطة بأكملها إلى دونيتز وإلي وإلى بورمان. وقد فوضت بورمان بالاتصال بقائد الشعب السوفييتي. وإن هذا الاتصال ضروري من أجل المحادثات السلمية بين الدول التي حلت بها أكبر الخسائر».

الساعة ٤,٠٠ من فجر يوم ٢٩ نيسان ـ ابريل ـ سنة ١٩٤٥.

غوبلز

اتصل تشيكوف بجوكوف ونقل إليه النبأ. ونظراً لأهمية النبأ، فقد أوفد جوكوف نائبه الفريق سوكولوفسكي، لإجراء مباحثات مع كريبس، والطلب إليه: «أن تستسلم ألمانيا بلا قيد ولا شرط». وفي الوقت ذاته اتصل بموسكو، فأجابه الضابط المناوب في بيت ستالين:

«إن ستالين قد ذهب لتوه لينام».

فقال جوكوف: «أرجو أن توقظه. إن القضية عاجلة جداً ولا تحتمل الانتظار حتى الصباح».

وصل ستالين بعد فترة قصيرة، وتحدث إلى جوكوف الذي نقل إليه النبأ عن انتحار هتلر، وعن وصول كريبس، وعن قراره بتكليف الجنرال سوكولوفسكي بإجراء المباحثات، ثم سأله عن تعليماته، فأجابه ستالين:

«لقد نال هـذا السافـل جزاءه. من المؤسف أنـه لم يتم القبض عليه حياً. أين هي جثته؟».

«إن جثـة هتلر قد احتـرقت في النـار، حسبـما يقـول الجنـرال كريبس».

قـال ستالـين عندهـا: «أبلغ سوكـولوفسكي بـأن لا يجري أي مباحثات كانت إلا بشرط الاستسلام المطلق لا مع كريبس، ولا مع غيره من الهتلريين. إذا لم يحدث أي شيء استثنائي فـلا تتصل بي حتى الصباح لأني أريد أن أرتـاح قليلاً، فـاليوم عـرض الأول من أيار ـ مايو ـ».

ظهر لجوكوف أن غوبلز وبورمان وبقية أعضاء القيـادة النازيـة الجديدة يحاولون الدخول في مفاوضات لعقد هدنة، وكسب الوقت بالمراوغة والمكر. فوجه جوكوف إنذاره:

«إذا لم تتم الموافقة على الاستسلام المطلق حتى الساعة العاشرة، فإننا سنوجه ضربة قوية تقتلع رغبتهم في المقاومة إلى الأبد. فليفكر الهتلريون بضحايا الشعب الألماني التي لا مبرر لها، وإنهم يتحملون بصفة شخصية نتائج هذه الرعونة».

فتحت القوات السوفييتية نيراناً كثيفة في الساعة ١٠,٤٠ على ما بقي من القطاع الخاص للدفـاع عن مركـز المدينـة. وأعلن غوبلز وبورمان رفضهـما لشرط الاستسـلام المطلق في السـاعة ١٨,٠٠. ورداً على ذلك انطلقت القوات في انقضاضها النهائي على القسم المركزي من المدينة، وذلك في الساعة ١٨,٣٠، حتى إذا ما كانت

الساعة ١,٥٠ من فجر يوم ٢ أيار ـ مايو ـ أذاعت محطة اللاسلكي في هيئة أركان الدفاع عن برلين البرقية التالية، وكررتها مرات متتالية باللغتين الروسية والألمانية.

«سنبعث رسلنا إلى جسر بسمارك ـ شتراسه. سنوقف الأعمال القتالية».

وفي الساعة ٦,٣٠ صباحاً. استسلمت القيادة الألمانية. وفي اليوم ذاته (يوم ٢ أيار ـ مايو ـ ١٩٤٥) صدر الأمر إلى كافة القوات الألمانية بإيقاف القتال (في الساعة ١٤,٠٠).

* * *

اتصل القائد الأعلى ستالين من موسكو بالماريشال جوكوف في برلين، يوم ٧ أيار ـ مايو ـ ١٩٤٥ وقال له:

«وقع الألمان اليوم محضر الاستسلام المطلق في مدينة ريمس. إن الشعب السوفييتي هو الذي حمل على كاهله العبء الأكبر من الحرب، وليس الحلفاء. ولهذا يجب أن يتم التوقيع على الاستسلام إلى القيادة العليا لجميع أقطار الحلف المناهض للفاشية، وليس للقيادة العليا للقوات الحليفة فقط. كما أنني لم أوافق أيضاً على توقيع محضر الاستسلام في غير برلين، مركز العدوان النازي. وقد اتفقنا مع الحلفاء على أن نعتبر المحضر الذي جرى التوقيع عليه في ريمس، بروتوكولاً أولياً للاستسلام. وغداً سيصل إلى برلين ممثلو القيادة الألمانية العليا وممثلو القيادة العليا لقوات الحلفاء، ولقد عينت أنت ممثلاً للقيادة العليا للقوات السوفييتية وغداً سيصل إليك

فيشنسكي، الـذي سيبقى في برلـين بعد التـوقيـع عـلى المحضر، ليكون معاوناً للقائد الأعلى فيما يتعلق بالأمور السياسية. كما عينت أنت قائداً أعلى في منطقة الاحتلال السوفييتية من ألمانيا، وستكون في آن واحد القائد الأعلى للقوات السوفييتية في ألمانيا».

وصل فيشنسكي جواً إلى بـرلين في الصبـاح البـاكـر من يوم ٨ أيار ـ مايو ـ حاملاً معه الوثائق الضرورية المتعلقة باستسلام ألمانيا، وأطلع جوكوف على أسماء ممثلي القيادة العليا للقوات الحليفة.

أخـذ رجال الصحـافة، والمـراسلون لجميع الصحف الكبـرى والمجلات في العالم، والمصورون الصحافيون في الوصول إلى برلين منذ صباح يوم ٨ أيار ـ مايو ـ لتسجيل أحداث اللحـظة التاريخيـة التي تتم فيها الصياغة القانـونية لسحق ألمـانيا النـازية، واعتـرافها بانهيار مشـاريعها وأطمـاعها وأحقـادها انهيـاراً نهائياً. وكـان يمثل القيادة العليا لقوات الحلفاء ماريشال الجو الانكليزي. آرثر. ف. تيدر، وقائـد القوات الجـوية الاستـراتيجية في الـولايات المتحـدة الجنرال سباتس، والقـائد العـام للجيش الفرنسي الجنـرال دولاتر دوتاسيني. وقد استقبلهم في المطار، ورافقهم إلى كارلهورست وفد عسكري سوفييتي رفيع المستوى. كما وصل ـ تحت حراسة ضبـاط بـريطانيـين ـ الوفـد الألماني الـذي ضم الفيلد ماريشـال كـايتـل، وأدميـرال الأسطول فـريديبـورغ والفريق الجـوي شتوميف، وهم الذين فوضهم دونيتس بتوقيع محضر استسـلام ألمانيـا بلا قيـد ولا شرط.

كان قد أعد في كارلهورست، في القسم الشرقي من برلين، قاعة

في بناء من طابقين، كان مطعماً لكلية الهندسة العسكرية، وذلك لتوقيع مراسم التوقيع على محضر الاستسلام. وما إن دخل ممثلو قادة الحلفاء إلى القاعة التي خصصت للمباحثات بين هؤلاء القادة حتى اندفع فوج كبير من رجال الصحافة الأمريكيين والإنكليز، وباشروا أعمال مهنتهم على الفور. فانهالوا على جوكوف بوابل من الأسئلة، وقدموا إليه راية صداقة من القوات الحليفة نقشت عليها بأحرف ذهبية كلمات تحية من القوات الأمريكية إلى الجيش الأحمر. وبعد أن غادر الصحافيون قاعة الاجتماع، حتى شرع القادة في مناقشة عدد من المسائل والقضايا المتعلقة بإجراءات مراسم استسلام المانيا. وكان القادة الألمان في هذه الأثناء، في بناء آخر.

دخل جوكوف ومعه قادة الحلفاء إلى القاعة في منتصف ليل ٨ أيار ـ مايو ـ (الساعة ٢٤,٠٠) وجلسوا جميعاً إلى الطاولة القريبة من الجدار والذي علقت عليه أعلام الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة وإنكلترا وفرنسا. وأعلن جوكوف افتتاح الجلسة:

«نحن ممثلو القيادة العليا للقوات المسلحة السوفييتية، والقيادة العليا لقوات الحلفاء، الذين فوضتنا حكومات الحلف المناهض للفاشية بقبول استسلام ألمانيا بلا قيد ولا شرط، من القيادة العسكرية الألمانية، أدعو ممثلي القيادة العامة الألمانية للدخول إلى القاعة».

التفت الحاضرون، جميعاً، ورجال الصحافة، نحو الباب الذي سيدخل منه في هذه اللحظة كبار القادة الألمان. وكان الجنرال فيلد مارشال كايتل، ساعد هتلر الأيمن، هو أول من تجاوز العتبة بتمهل

وتؤدة، وكان يرتدي لباس المراسم الكامل، ويتأبط عصا المارشالية، فرفع يده إلى الأعلى محيياً ممثلي القيادة العليا للقوات السوفييتية والحلفاء. ودخل بعد كايتل الفريق شتوميف، ومعه أدميرال الأسطول فون فريديبورغ. ودعوا إلى الجلوس إلى طاولة منفردة وضعت من أجلهم ليس بعيداً عن المدخل، وتوجه إليهم جوكوف بحديثه:

«هل لديكم محضر الاستسلام المطلق؟ وهل درستموه؟ وهل لديكم تفويض بتوقيع هذا المحضر؟».

وأجاب كايتل على الأسئلة بإيجاب. فقال جوكوف:

«أقترح على الوفد الألماني أن يقترب من هذه الطاولة. إنكم ستوقعون هنا على محضر استسلام ألمانيا بلا قيد ولا شرط».

وانتهى توقيع محضر الاستسلام في الدقيقة ٤٣ من فجر يوم ٩ أيار ـ مايو ـ ١٩٤٥ وغادر الوفد الألماني القاعة، عندما طلب إليه جوكوف ذلك.

قام جوكوف بتهنئة جميع الحضور تهنئة قلبية باسم القيادة السوفييتية العليا. وارتفعت في القاعة أصوات الضجيج المعبر عن الفرح. كان الجميع يحيون بعضهم بعضاً ويتصافحون وقد انسابت دموع الفرح لتزيل بعض ما جثم على الصدور من الهموم والأحزان. وتبع ذلك حفل استقبال، تحدث فيه قادة الحلفاء، ورقص الجميع مع مجندات الجيش الأحمر، حتى الفجر، فيما كانت

جميع الأسلحة تطلق قذائفها في سماء برلين احتفالاً بيوم النصر، أو يوم الثأر.

* * *

لكن قصة يوم الثأر لم تصل بعد أيضاً إلى نهايتها.

اتصل ستالين يوم ١٥ ـ أيار ـ مايو ـ بجوكوف، وطلب إليه الحضور إلى موسكو، ولما وصل جوكوف إلى الكريملين، حضر النقاش بشأن خطط المرحلة المقبلة لمتابعة الحرب ضد اليابان. وسأل ستالين:

«أليس من الواجب علينا، احتفالاً بالنصر على ألمانيا الفاشية، أن نجري في موسكو عرضاً للنصر، وندعو الأبطال الذين تميزوا أكثر من غيرهم من الجنود والرقباء والمساعدين والضباط والقادة ـ الجنرالات ـ؟».

أيد الجميع الفكرة بحرارة، وأضافوا إليها عدداً من الاقتراحات العملية. وتقرر أن يدعى إلى العرض فوج مختلط من كل جبهات ـ كاريليا ولينينغراد والبلطيق الأولى، وروسيا البيضاء الأولى والثانية والثالثة واوكرانيا الأولى والثانية والثالثة والرابعة، بالإضافة إلى فوج مختلط أيضاً من الأسطول البحري الحربي، وفوج ثالث من القوى الجوية. وكانت هذه الأفواج تضم في قوامها أبطال الاتحاد السوفييتي والفرسان، حاملي وسام المجد والقناصة، وأكثر حاملي الأوسمة بين الجنود والرقباء والمساعدين الضباط. وكان يجب أن يترأس قادة الجبهات بأنفسهم الأفواج المختلطة لجبهاتهم.

وتقرر أيضاً أن تنقل من برلين الراية الحمراء التي رفعت على الرايخستاغ وكذلك الرايات القتالية للقوات الألمانية الفاشية التي استولت عليها القوات السوفييتية في المعارك.

جرت في نهاية شهر أيار - مايو - وبداية شهر حزيران - يونيو - استعدادات كبيرة للعرض. وفي حوالي العاشر من حزيران - يونيو - كان جميع المشتركين في العرض قد ارتدوا بذات العرض الجديدة، وشرعوا بالتدريب الذي يسبق الاحتفال.

وتسلم جوكوف النجمة الثالثة لبطل الاتحاد السوفييتي يوم ١٢ حزيران - يونيو - ١٩٤٥.

استدعى القائد الأعلى ستالين إلى بيته الريفي الماريشال جوكوف، يوم ١٩ حزيران - يونيو - وعندما دخل جوكوف، بادره ستالين بالسؤال:

«هل نسيت ركوب الخيل، أم لا زلت تجيدها؟».

وأجاب جوكوف: «كلا لم أنس».

فاستأنف ستالين: «انظر ما في الأمر. إن عليك أن ترعى عرض النصر. وسيقود روكوسوفسكي قوات العرض».

وأجاب جوكوف: «شكراً على هذا الشرف العظيم. ولكن أليس من الأفضل أن تقوموا أنتم برعاية العرض. فأنتم القائد الأعلى، والأمر من حقوقكم ومسؤولياتكم».

هنا قال ستالين: «إن سني لم يعد يسمح لي بذلك. ارعه أنت،

فأنت أصغر مني سناً».

حدد تشكيل العرض حسب نظام الخط العام للجبهات العاملة من اليمين إلى اليسار. فوضع على المجنبة اليمنى فوج جبهة كاريليا، ثم فوج جبهة لينينغراد، ثم جبهة البلطيق وهكذا. أما على المجنبة اليسرى فقد أقفل الخط فوج جبهة أوكرانيا الرابعة، ثم الفوج المختلط للأسطول البحري الحربي، ثم قطعات حامية موسكو العسكرية. وتم اختيار لحن المسيرة العسكرية الخاص لكل فوج من الأفواج من الألحان التي كان يحبها أفراد هذا الفوج ويفضلونها. وجرت التجربة الأخيرة في المطار المركزي، وتبعتها تجربة عامة في الساحة الحمراء. وقد أعدت الأفواج المختلطة إعداداً رائعاً خلال فترة قصيرة.

صدرت الصحف يوم ٢٢ حزيران - يونيو - وهي تحمل على صدر صفحتها الأولى أمر القائد الأعلى: «بمناسبة النصر على ألمانيا في الحرب الوطنية العظمى، أحدد يوم ٢٤ حزيران - يونيو - ١٩٤٥ ليجري فيه في الساحة الحمراء في موسكو عرض لقوات الجيش العامل والأسطول البحري - الحربي، وحامية موسكو - عرض النصر.

يرعى نائبي ماريشال الاتحاد السوفييتي. غ. ك. جوكوف عرض النصر، ويقود العرض ماريشال الاتحاد السوفييتي. ك. ك. روكوسوفسكي».

القائد الأعلى، ماريشال الاتحاد السوفييتي - ستالين

استيقظ جوكوف مبكراً فجر يوم ٢٤ حزيران ـ يونيو ـ وأسرع إلى النافذة ليتأكد من صحة تنبؤ الأرصاد الجوية. فلقد أعلنت هذه المصلحة أن الصباح سيكون غائماً، وأن المطر سيهطل، وكان يتمنى أن تخطىء الارصاد الجوية هذه المرة. ولكن أمنية جوكوف لم تتحقق وها هي الأمطار تهطل برفق. وأسرع للاتصال بقائد القوى الجوية، الذي أفاد بأن الجو غير صالح للطيران في معظم المطارات. وشعر جوكوف بنوع من الانقباض. إن العرض لن يتم بالمهابة التي كان يريدها. ولكن لا، ها هي جموع أبناء موسكو تتدفق من الضواحي نحو الساحة الحمراء، والوجوه طافحة بالبشر، والعيون ملتمعة بالفرحة، والحناجر منطلقة بالغناء، في حين كانت الأرصفة تغص بالمشاهدين، بالإضافة إلى أولئك الذين غطوا شرفات الأبنية. وكانت الزغاريد (صيحات الأورا) ترتفع من كل مكان. إنها الفرحة المكبوتة التي طالما تاقت لرؤية مثل هذا اليوم. وهل هناك ما هو أحلى من النصر بعد طول معاناة؟.

وصل جوكوف إلى بوابة سباسكي في الساعة العاشرة إلا ثلاث دقائق. ومع وصوله، تناهى إلى سمعه صوت قائد العرض: (للعرض ـ استعد). وتسارعت نبضات قلب جوكوف، ودفع جواده وتوجه إلى الساحة الحمراء، فيما كان هدير الهتاف والتصفيق يصم الآذان. وارتفع صوت الموسيقى على صوت الضجيج وهو يصدح بلحن اغنية (المجد لك يا وطني). وألقى قائد العرض كلمة مثيرة. وانطلقت القوات وهي تدق الأرض بعنف. ووصلت الإثارة ذروتها عندما تقدم حملة الأعلام والرايات الألمانية. وعددهم

مائتي جندي من المحاربين القدماء ـ وقذفوا تحت أقدام تمثال لينين مائتي علم وراية، فمرغوها بالوحل، فيما كانت الطبول تقرع بشدة. إنها ليست طبول الحرب، وإنما طبول نهاية الحرب. لقد أمكن تحقيق النصر، وها هي الأعلام التي جاءت للغزو، وقد طرحت أرضاً دون أن يدافع أحد عنها.

ووقف جوكوف متأملاً:

«يا لها من حرب قاسية ضارية، لقد دمرت هذه الحرب التي دامت أربع سنوات كل شيء. لقد مات أكثر من عشرين مليوناً من المواطنين في ميادين القتال، وتحت أنقاض المدن والقرى المدمرة، أو رمياً برصاص الفاشيين، أو تعذيباً في (مصانع التعذيب النازية) وزالت من على وجه الأرض سبعون ألف مدينة وقرية، وفقدت البلاد أكثر من ثلاثين بالمائة من ثروتها القومية، وما من أحد يستطيع أن ينكر أن التاريخ لم يعرف بربرية ولا وحشية جماعية كالتي ارتكبها الفاشيون على أرض الاتحاد السوفييتي».

فلا عجب إن كانت الفرحة بيوم النصر، أو يوم الثأر، معادلة لتلك المعاناة كلها.

٨ ـ قصة جوكوف أم هي قصة الحرب؟

لم تقف حياة جوكوف القيادية عند حدود نهاية الحرب، وإنما تجاوزتها إلى العمل السياسي على المستوى الدولي، سواء من خلال مؤتمر بوتسدام (١٧ تموز ـ يوليو ـ ١٩٤٥ حتى ٢٨ منه) أو من خلال

مجلس الأشراف لقيادة الحلفاء على ألمانيا المحتلة أو حتى في دعم القيادة السوفييتية خلال مرحلة ما بعد ستالين وحتى تولي خروتشوف السلطة (١٩٥٦). ولكن هذه الأحداث جميعها تبدو باهتة أمام تألق نجم جوكوف في الحرب وصعوده.

وهنا لا بد من التعرض لمجموعة من التساؤلات بصدد العرض الذي تضمنه هذا الكتاب: فهل العرض هو سيرة جوكوف؟ أم هو عرض لقصة الحرب على أرض الاتحاد السوفييتي؟ إذا كانت القصة هي قصة جوكوف، فلماذا هذا الاستطراد في قصة الحرب؟ وإذا كانت هي قصة الحرب، فهل كان جوكوف هو بطلها الوحيد؟.

إنها قصة جوكوف قبل كل شيء، الإنسان الذي عاش حياة الجندية والحرب منذ نعومة أظفاره وحتى آخر أيام حياته، دخل حياة الجندية وهو كاره لها، ثم أحبها إذ وجد فيها ذاته، ثم وهبها وجوده كله، فكان إما معلماً أو متعلماً، إما مدرباً أو متدرباً، وانصرف لممارستها بجوارحه جميعها، وبأحاسيسه كلها. وقد واتاه الحظ دائماً، فعندما كان في بداياته الأولى، قيض له أن يتعرف على كبار قادة عصره في بلاده ـ فرونزه وغ. د. غاي وبوديوني ويغوروف وتيموشنكو. ثم مضى بعقل متفتح يناقش ويقارن ويحلل باحثاً عن المعرفة في بطون الكتب، وعاملاً على الإفادة من المعرفة في ميادين التدريب، فأمكن له بذلك تجاوز أقرانه، بل والوصول إلى مرتبة من تعلم منهم، وأخذ في منافستهم، غير أنه كان من المحال عليه الوصول إلى قمة الهرم في التسلسل العسكري لو لم تتح له

فرصة القيادة في الميدان والتي بدأت مراحلها الأولى في (خالخين غول) ضد اليابانيين.

وهنا يأتي دور الحظ المقترن بالإرادة. فلو لم تتفجر هذه الحرب، لما برز اسم جوكوف. ومقابل ذلك، فقد برزت هذه الحرب، وأحرقت أرصدة كثير من القادة الذين لم يعدوا أنفسهم إعداداً جيداً للقيادة. وما أكثر الذين بذلوا حياتهم كلها في جهد مستمر على أمل أن توافيهم فرصة القيادة الميدانية، فلم تتح لهم هذه الفرصة. وما أكثر الذين قذفت بهم أقدارهم إلى أتون الحرب من غير أن يكونوا على استعداد لها فأحرقتهم بنارها.

وإذن فقد كان من حظ جوكوف أن واتته الفرصة لاختبار استعداده للحرب وكفاءته في إدارة معاركها. ولقد استمرت بعد ذلك قصة تلاحم حياة جوكوف بقصة الحرب ذاتها. فهو رجل الحرب، يقتحم غمارها، وينتقل على جبهاتها، ويراقب تطوراتها ويحلل أحداثها، ويستنبط الدروس الهامة منها. إنه بعقله وجسمه في أتون الحرب دائماً. وإذن فقد يكون من غير الطبيعي فصل شخصية الرجل القائد، عن الظروف التي عاشها وبرز فيها. وكما تتلاحم قصة حياة الأديب بما كتبه وأبدعه، وكما تتلاحم شخصية الرسام بما سجله ورسمه، وكما تتلاحم حياة الموسيقي بما لحنه وأنتجه، كذلك تلاحمت قصة جوكوف بقصة الحرب التي عاشها.

ولقد كان من المحال في غمار مثل هذه الحياة المثيرة، التعرض لمواقف جوكوف جميعها، أو تسجيل يوميات حياته بدقائقها، فكان

لزاماً التنقل فوق قممها والتعرض لما هو مفيد منها ، فحياة عظماء الرجال هي بقدر ما يمكن الأخذ عنهم من خلال تجاربهم. وكان لزاماً لتحقيق هذا الهدف اللجوء إلى الإيجاز أحياناً وإلى الاستطراد في أحيان أخرى بهدف التعلم والإفادة قدر المستطاع.

يمكن الانتقال بعدئذ إلى القضية الثانية وهي: إذا كانت قصة جوكوف هي قصة الحرب، فهل كان جوكوف هو بطلها الأوحد؟.

وللإجابة على مثل هذا التساؤل لا بد من التعرض لنقطتين أساسيتين هما: العلاقة بين القيادة السياسية والقيادة العسكرية، ثم علاقة جوكوف بقادة الحرب. ولقد ظهر من خلال العرض السابق أن جوكوف لم يكن إلا منفذاً لما يريده ستالين، وأن القرار العسكري بيد القائد الأعلى الذي تربع على قمة السلطة فجمع في قبضته السلطة السياسية والسلطة العسكرية، ولم يكن الآخرون من المسؤولين السياسيين والقادة العسكريين أكثر من منفذين. وهنا تبرز النقطة الأساسية وهي: كيف إذن كان يتخذ ستالين قراره إذا كان هو صاحب القرار؟ إن العرض السابق يجيب في الواقع على هذا السؤال، فقد كان ستالين يستدعي مستشاريه من العسكريين والسياسيين ويتناقش معهم في كل موقف، ويجمع للقرار الأسس الضرورية لاتخاذه من معلومات، ثم يصدر قراره بناء على ما توافر له من المعلومات. وكثيراً ما كان يتمهل في اتخاذ قراره إلى أن تتوافر له المعلومات الكاملة عن الموقف. وقد كان جوكوف باستمرار هو الذي يجمع الأسس ـ أو المعطيات ـ الضرورية لاتخاذ القرار. فقد كان يتنقل بين الجبهات، ويجتمع بالقادة على كافة المستويات،

ويقف طويلاً في الخطوط المتقدمة للقتال لدراسة موقف العدو والقوات الصديقة وطبيعة الأرض، ثم يقدم لستالين الموقف الحقيقي والواقعي، ليس ذلك فحسب، بل إنه كان يتجاوز هذا الحد، فيقدم المقترحات الضرورية لمعالجة الموقف بصورة ناجحة وفعالة. ومقابل ذلك، فكثيراً ما كان ستالين يعود ليكلف جوكوف بتنفيذ القرار باسناد قيادة الجيوش والجبهات إليه. لقد كان جوكوف هو عين القائد الأعلى، وهو دماغه المفكر وهو يده المنفذة، ولا ينتقص هذا من دور ستالين كما أنه لا ينتقص من دور جوكوف. لقد كان ستالين هو صاحب القرار السياسي، وهو صاحب القرار العسكري في الوقت ذاته. ولم يكن القرار السياسي في ظروف الحرب بكاملها منفصلاً عن القرار العسكري، ولكن الهيمنة كانت أبداً للقرار السياسي، فكان من الطبيعي أن يخضع القرار العسكري للقرار السياسي، وبالتالي فقد كان خضوع جوكوف هو الخضوع للقرار السياسي ولصاحب القرار السياسي والعسكري.

حقيقة أخرى لا بد من التعرض لها. إن خضوع جوكوف لقرارات ستالين لم يكن خضوعاً سلبياً. ففي أكثر من مرة جابه ستالين بجرأة وصراحة: جابهه يوم أراد عزل تيموشنكو عن قيادته. وجابهه يوم اقترح جوكوف الانسحاب من (كييف) وتوجيه الهجوم المضاد لإزالة نتوء (ييلنا) وقد برهنت مسيرة الأحداث على صحة وجهة نظر جوكوف، وتقديره السليم للموقف، وأدى ذلك بصورة طبيعية إلى زيادة ثقة ستالين بالماريشال جوكوف، واعتماده بدرجة أكبر على قيادته للجيوش والجبهات.

وهكذا فرض جوكوف وجوده بقوة على القرار العسكري. وفي أحيان كثيرة كان ستالين يلغي ما أصدره من توجيهات وتعليمات وأوامر بناء على اقتراح جوكوف. وقد يكون ذلك كافياً لإبراز الدور الحقيقي لجوكوف في إدارة الحرب، فهو ليس أداة منفذة صماء محرومة من الإرادة في جهاز ستالين الضخم، وإنما كان أداة منفعلة فاعلة، ينفذ قرارات ستالين، دون أي تردد، وبأقصى ما يستطيعه من الجهد، غير أنه لا يتردد أبداً في اقتراح التعديلات الضرورية لضمان النجاح في تنفيذ القرار.

لقد ابرزت ظروف الحرب الوطنية العظمى أو الحرب العالمية الثانية على أرض الاتحاد السوفييتي مجموعة كبيرة جداً من القادة الذين توافرت لهم كفاءة قيادية عليا، والذين عجمت نار الحرب عودهم فأسقطت من كان ضعيفاً منهم، وأبقت على من كان صلباً فيهم، وتشكلت بنتيجة ذلك قائمة كبيرة من أسماء القادة الاستراتيجيين وقادة العمليات في وسط القيادة العليا وقادة الجبهات وقادة الفيالق والفرق وحتى الألوية والأفواج. وكان لكل واحد منهم دوره الحسام في كثير من الأحيان، في التأثير على خط مسار الحرب. فماذا كان دور جوكوف بين هذا الزحام من القادة الكبار؟.

لقد كان لكل واحد من هؤلاء القادة الكبار قصته مع الحرب. ولو تم زج هؤلاء، أو بعضهم، في قصة جوكوف مع الحرب، إذن لتشكل خليط من القصص التي يصعب تمييز ملامحها، أو التمييز الواضح بين حدودها، ولتطلب الأمر زج مجموعة لا نهاية لها من

المخططات والوثائق، التي يصبح من العسير معها استخلاص دروس هامة، أو التوقف عند استنتاجات محددة، ولضاعت الفائدة المرجوة من البحث، وإذن فالعملية هنا في مجرى البحث وطريقته ليست انتقاصاً من دور بقية القادة الذين عملوا مع جوكوف أو لم يعملوا معه، وليست زيادة في حجم الدور الذي اضطلع به جوكوف، وإنما هي عملية فرضتها ضرورة البحث، في حدود شخصية جوكوف القيادية، ودوره في إدارة الحرب.

ولكن أليس بروز جوكوف وسط هذا الحشد الهائل من جموع القادة الكبار برهاناً على تفوق جوكوف على ذوي الكفاءة؟ فما هي عناصر التفوق في شخصية جوكوف القيادية؟.

عقل راجح، وقلب كبير، وإرادة صلبة تلك بكلمات قليلة عناصر التفوق الرئيسة التي ميزت شخصية جوكوف وأبرزته. فقد كان بفضل استنفار ملكاته العقلية جميعها قادراً على الإحاطة بكل موقف من المواقف إحاطة عامة شاملة، ووضع هذا الموقف في الإطار العام لبقية المواقف ـ على الجبهات الأخرى ـ وذلك دون إهمال لبقية التفاصيل الدقيقة التي يتضمنها أي موقف. ولم يكن الاحتفاظ بصفاء الذهن، والقدرة على التفكير الصحيح، بالعملية السهلة في ظروف القتال الصعبة التي عاشها جوكوف، وتحت وطأة الضغوط الجسدية والنفسية التي رزح تحت ثقلها، بالإضافة إلى الحرمان من النوم وحتى الطعام في أوقات كثيرة، بحيث أنه لم يكن قادراً على النوم لأكثر من ساعتين في كل ليلة على امتداد سنوات متتالية، (حتى أن ستالين ذاته كان يشفق عليه عندما يطلب

التحدث اليه فيجده نائماً فيقول: لا تعملوا على إيقاظ جوكوف، واركوه حتى يستيقظ) وقد نام مرة خمسة عشرة ساعة متتالية، فاعتبر ذلك ظاهرة غير طبيعية في حياته القيادية. ولكنه لم ينم هذه الفترة إلا بعد أن اطمأن إلى نجاح مخططات العمليات، وإلى أن غيابه لن يؤثر في مسيرة الأعمال القتالية.

وكثيراً ما اضطرته ظروف العمل إلى نسيان الطعام، حتى إذا ما شعر بألم في معدته تذكر أنه من الضروري له أن يسكت عادية الجوع، فيقدم على التهام ما قد يقع تحت يده من الطعام. ولطالما شاهد جوكوف كبار القادة وهم يرزحون تحت مثل هذه الظروف التي كانت تحرمهم من القدرة على التفكير وعلى العمل بصورة صحيحة، فكان يمد إليهم يد المساعدة للخروج بهم من المأزق الذي يجابهونه، أو الموقف الذي يضعهم تحت وطأة المعاناة القاسية. فكان تفوقه في هذا المضمار، في جملة عوامل التفوق التي فرضت وجود جوكوف على القمم القيادية.

كان عمل جوكوف ـ على الأغلب ـ ومن خلال ممارسته لدوره القيادي، هو تنسيق التعاون بين القادة المختلفين التابعين له مباشرة، أو العاملين لتقديم الدعم من قادة الأسلحة المشتركة. وكان لزاماً لضمان النجاح توافر قلب كبير إلى جانب العقل الراجح. فإذا كانت المعرفة هي سبيل جوكوف من أجل تحديد الواجبات المختلفة للقوات للحصول على المردود الأقصى، إلا أن دفع الجميع للعمل بصورة طوعية كان يحتاج للقلب الكبير أيضاً، الذي يستطيع استيعاب هموم الآخرين ويدفعهم للعمل بحماسة.

وقد ظهر ذلك واضحاً منذ البدايات المبكرة في حياة جوكوف القيادية. فقد كان يحرص على أن يكون فوجه، ثم لواؤه، ثم فرقته في طليعة القوات إعداداً وتدريباً مع إذكاء (روح القطعة) أو (أخوة السلاح) لخلق القطعة الأنموذج التي تحتذي حذوها بقية القوات والقطعات.

لقد كان جوكوف ينظر إلى الأمور لا بعيني رأسه فقط، وإنما بضياء قلبه، ولم يكن يناقش الأمور بعقله فحسب، كما يتم النقاش في المعادلات الرياضية أو حتى بما تتطلبه مناقشة أمور القيادة والقضايا الاستراتيجية من العقلانية، وإنما كان يناقشها ويضع لها حساباتها بدفء عاطفته، وبجمع دفق قلبه. فكان الأنموذج الصحيح لإنسان العقل والعاطفة، وكان في ذلك أيضاً أحد عوامل التفوق في شخصية جوكوف القيادية.

لقد كان جوكوف يعرف الرجال حق المعرفة، يعرفهم بعقله وبقلبه، يقدر فيهم مواهبهم وكفاءاتهم، ويرتبط معهم بدفء العاطفة وصادق المشاعر. وكانت الحياة العسكرية، وظروف الحرب بصورة خاصة، تحمل القيادة العليا على اتخاذ مواقف خاطئة تجاه بعضهم، فكان جوكوف يسرع لبذل الجهد، قدر المستطاع، وأكثر مما هو مستطاع! لتقويم المواقف الخاطئة وتصحيحها. فكان من طبيعة الأمور أن يستحوذ جوكوف على قدر من ثقة القادة بأكثر مما استطاعه أي قائد آخر، وبأكثر مما حصل عليه من الثقة. وكانت هذه الثقة هي الرصيد الهائل الذي أفاد منه جوكوف في تفوقه على الآخرين، وفي دفعهم للعمل معه بعيداً عن التحاسد أو التباغض

أو سواها من المشاعر الدنيا (السافلة).

وانطلاقاً من هذه (الفضائل الحربية) ذاتها، وصل جوكوف إلى مرتبة لم يبلغها سواه في الهرم القيادي، فحصل على لقب (بطل الاتحاد السوفييتي) أربع مرات. ونال من الأوسمة قدراً كبيراً، وحمل رتبة ماريشال، ورغم ذلك كله، بقي (الجندي جوكوف). فهو يتقدم الصفوف والموت يتخطف النفوس من حوله، ويخرج لاستطلاع الموقف على الطبيعة تاركاً من يحبون المكوث وراء مكاتبهم لدفء المكاتب، يعيش مع الجنود ظروفهم الصعبة، ويحمل معهم ما يستطيعه من البؤس والمعاناة، بل وينصاع لأوامر ـ رئيس حرس ذو رتبة صغيرة ـ إذا ما كان النظام العسكري يفرض عليه هذا الانصياع، دون أن يتملكه الغضب أو تأخذه العزة بالإثم، ويردد في نفسه (الحياة العسكرية هي الحياة العسكرية) يخضع الجميع لأنظمتها وقوانينها وأسس الانضباط فيها. ولعل جوكوف كان يتذكر عندما يجابه مثل هذه المواقف ماذا سيكون عليه موقفه بالذات عندما كان يحمل رتبة صغيرة لو أنه كلف بتنفيذ أمر من الأوامر، أو الاضطلاع بواجب من الواجبات، وهو العسكري الصلب من قمة رأسه حتى أخمص قدمه. إذن فالأوامر هي الأوامر. ولا ريب أن الجنود وذوي الرتب الصغرى، كانوا يتناقلون بسرعة الأحاديث عن سلوك جوكوف ـ الماريشال ـ فيتخذون من ذلك القدوة المثلى والأنموذج الصالح.

لم يكن جوكوف ليتردد رغم ذلك كله في إبعاد أي قائد عن هرم القيادة، إذا ما أدرك أن هذا القائد غير قادر على الاضطلاع بما

تتطلبه القيادة من الكفاءة والقدرة. وليس ثمة تناقض على الإطلاق بين موقفه الحازم في مثل هذه المواقف، وبين صدق العاطفة ومراعاة المشاعر الإنسانية في تعامله مع الآخرين، بل إن الأمر على النقيض تماماً. فهذا الموقف الحازم هو امتداد لصادق عاطفته وعمق مشاعره الإنسانية. فالقائد مسؤول عن أرواح آلاف الجند، ومسؤول عن الإمكانات والوسائط القتالية التي قدمتها له أمته بجهدها وتضحياتها ودمائها وعرقها، وإن أي تهاون في هذا المجال هو خيانة للأمانة التي أسندت إلى القائد، وهي بالتالي خيانة للوطن. ولم يكن هناك ثمة مجال للمفاضلة بين المصلحة العليا للوطن وبين الفرد ومشاعره الإنسانية - مهما بلغت مرتبته - ولطالما عمل جوكوف على إسقاط من يجب إسقاطهم، ولكن بغير حقد، ولا كراهية. ولا ريب أن أمثال هؤلاء الذين عمل جوكوف على إسقاطهم كانوا يدركون خطأ مواقفهم وانحراف نهجهم. لقد دافع جوكوف بحرارة عن أولئك القادة الذين جرفتهم حملة التطهير التي قام بها ستالين. ودافع من قبل وبصدق عن القادة القدامى في الجيش القيصري ممن انتقلوا للعمل في الجيش الأحمر وأعطوه خبراتهم، ووظفوا فيه كفاءاتهم، وخصوه بجهدهم. وإذن فإن عمل جوكوف لإسقاط غير الأكفاء لم يكن بتأثير مشاعر الحقد أو الكراهية، وإنما بدافع نبيل هو وضع مصلحة الوطن، وحياة أبناء الوطن، فوق كل اعتبار.

لقد عاش جوكوف حياته القيادية في ظل قيادة ستالين، وكان لجوكوف رأيه مع ستالين وضده وفقاً للمواقف التي عاشها، وحمل لستالين ما يستحقه من التقدير. ودارت عجلة الزمن، واختفى

ستالين من على مسرح الأحداث ـ بوفاته سنة ١٩٥٤ ـ. وانقلبت الدنيا على أعمال ستالين ومنجزاته من خلال هجوم القيادة السوفييتية الجديدة ـ بقيادة خروتشوف ـ على ديكتاتورية ستالين، وفرديته، وانحرافاته الخ ـ. . .

وفي وسط هذه الدوامة التي جرفت الكثيرين، وقف جوكوف كعهده دائماً، راسخاً كالطود، شامخاً كالجبال، يقول رأيه بوضوح وصراحة، فيدافع عن ستالين وعن قيادته الاستراتيجية، ويعطيه حقه في الدفاع عن الاتحاد السوفييتي وسط الانهيار الذي جرف الكثيرين، ويشيد بمواقفه في إدارة الحرب، ويذكر له فضائله، دون إهمال لسلبياته وأخطائه. إنها كلمة الحق التي يجب لها أن تعلو على كل ضلال وتضليل، فلا تضرب الحسن بالسيء فتذهب به جميعاً وتزيل كل أثر له، وإنما تضع ما هو حسن في مواضعه وتضع السيء في مواضعه، وتلك هي أفضل فضائل الموضوعية. ولقد وقف جوكوف إلى جانب (خروتشوف) يوم تم اتخاذ القرار باعتقال وزير الداخلية (بيريا) والذي كان المسؤول الأول عن عهد الإرهاب في عهد ستالين، ولم يكن ذلك بالتأكيد دعماً لخروتشوف، أو سعياً وراء منصب أو مركز قيادي، وإنما سيراً على نهج جوكوف ذاته: العمل دائماً لانتصار الفضائل، وتطهير المجتمع من كل انحراف.

لقد بلغ جوكوف مبلغاً لا يطاله طائل، وتجاوز في عطائه حدود بلاده، واكتسب شهرة عالمية في إدارته للحرب، وفي مجال عمله السياسي. ولقد تعب كثيراً، وآن له أن يستريح بعد رحلة العمر الشاقة، فانزوى بعيداً عن السلطة، وعن صراع مراكز القوى،

وعن دسائس الطامعين ومؤامرات المتآمرين. إنه أرفع علواً من الانحدار إلى هذه الهاوية. ثم ماذا يريد بعد؟

لقد نال من الدنيا ما لا يطمع لبلوغه أحد، ونال في ميادين الحروب ما قصرت عن بلوغه همم الرجال، فليسترح بعد هذا العناء، ويكفيه ما كلل هامته من الأمجاد وأكاليل الغار. ومضى جوكوف مع ذكرياته وتأملاته. ما أبعد الشقة التي فصلته عن الأمس يوم كان عاملاً في الفراء في موسكو، ويوم غادر قريته، وليس على جسده إلا ما يقيه شر البرد.

ما أبعد الشقة التي فصلت بينه وبين مرتع صباه في قريته الصغيرة.

وها هم أحفاده يمرحون حوله. لقد أعطته الدنيا كثيراً، بل أكثر مما يمكن أن يطمح إليه طامح. فليمض عن الدنيا. ولكن لا زال أمام جوكوف عمل يجب عليه أن ينجزه. لقد عاش تجربة فردة، واكتسب خبرات ليست ملكه، وإنما هي ملك الأجيال القادمة، فليتفرغ لها بكليته، وليسجلها بأمانة، وصدق، ولو من وجهة نظره، حتى إذا ما فرغ منها عرف أنه قدم في حياته كل ما يستطيع تقديمه.

وجاءت سكرة الموت بالحق.

ومضى جوكوف. وبكاه من عرفه، وبكاه من عرفوه على جبهات القتال، في موسكو ولينينغراد وستالينغراد وويبلنا وحتى برلين. وخرج الشعب السوفييتي وهو في حداد. لقد افتقد الرجل الذي

أعطى شعبه وجوده، فأعطاه شعبه حقه في الحفاظ على هذا الوجود.

ووصلت القصة إلى نهايتها.

قصة جوكوف في الحرب، وقصة الحرب في سيرة جوكوف. وهي ليست قصة جوكوف بكاملها وليست قصة الحرب جميعها. إنها جانب من جوانب حياة جوكوف القيادية، وهي وجه من وجوه الحرب التي عاشها جوكوف. فحياة جوكوف أكبر من أن يتسع لها كتاب وقصة الحرب أكثر اتساعاً من أن تضمها المجلدات. وفي إطار هذه القصة، تسقط المخططات، وتفقد قيمتها لأنها في تبدل مستمر وفي تطور دائم، كما تسقط الأسماء والأرقام، أسماء المدن والقرى والجبهات والجيوش وأسماء القادة والمقاتلين على اختلاف أقدارهم ومرتباتهم، وتبقى هناك الحقائق والدروس المستخلصة من تجربة جوكوف في حياته القيادية، فهي الحقائق الأكثر ثباتاً، والأكثر احتفاظاً بقيمتها. إنها ليست خلاصة تجربة فرد ولا أمة، بقدر ما هي خلاصة للتجربة الإنسانية ومعاناتها على الأرض.

وتبقى الفضائل هي من أبرز ما يمكن استخلاصه من التجربة الانسانية. ولقد كانت قصة جوكوف في الحرب هي بعض قصة (الفضائل الحربية) وبعض ملامح قصة (الفضائل الانسانية).

بسام العسلي

مراجع البحث الرئيسة

١ ـ مذكرات وآراء ـ المارشال جوكوف ـ وزارة الدفاع في الجمهورية العربية السورية ـ الطبعة الثانية ـ دمشق ١٩٧٢ .

٢ ـ المعارك الحاسمة في الحرب العالمية الثانية ـ بيتر يانغ ـ ترجمة المقدم المتقاعد بسام العسلي الإدارة السياسية ـ دمشق ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م .

٣ ـ تاريخ فن الحرب ـ الجنرال آ. آ. ستروكوف ـ ترجمة العميد الركن صباح الدين الأتاسي إدارة الشؤون العامة والتوجيه المعنوي ـ دمشق. الطبعة الأولى ١٩٦٨ (مجلد ١ و٢) .

٤ ـ ملحمة القفقاس ـ المارشال أندريه غريتشكو ـ تعريب اللواء الركن عبد الرزاق الدردري ـ العميد الركن عبد العزيز جركس. وزارة الدفاع ـ دمشق ١٩٧١ .

٥ ـ الأركان العامة السوفييتية في سني الحرب ـ س. م. شتيمنكو. ترجمة المقدم الركن حسن تركماني ـ هيئة التدريب ـ دمشق ـ ١٩٧١ .

٦ ـ الاستراتيجية العسكرية السوفييتية ـ الماريشال سوكولوفسكي ـ ترجمة خيري حماد منشورات عالم الكتب ـ بيروت. لبنان.

٧ ـ تطور فن الحرب ـ الجنرال جيلين ـ مركز الدراسات العسكرية ـ دمشق ١٩٨١.

٨ ـ قضية العمر ـ أ. م. فاسيليفسكي ـ ترجمة سعيد أحمد ـ دمشق.

٩ ـ الواجب العسكري ـ مارشال روكوسوفسكي ـ ترجمة اللواء الركن عبد الرزاق الدردري ـ دمشق ١٩٧٢.

الفهرس

مشاهير قادة
الحرب العالمية الثانية

الحرب العالمية الثانية، التي ما زالت كابوساً يؤرق حياة الناس، وعقلاء القادة، حتى يومنا هذا، أبرزت قادة عظاماً يجدر بعسكريينا ومثقفينا وجميع شبابنا أن يدرسوها، ويستفيدوا من خبراتها...

فقديماً قيل: «إذا أردت أن تكون عظيماً فاقرأ حياة العظماء».

لقد اختار مؤلف هذه السلسلة الجديدة، وهو المحلل العسكري الشهير والكاتب المبدع، أشهر قادة هذه الحرب، فكتب عن كل واحد منهم كتاباً، حلل فيه شخصية القائد موضوع البحث، وشرح المعارك التي خاضها، في إطار بحث شائق للظروف التي أحاطت بكل معركة من تلك المعارك وأدت إلى النصر أو الهزيمة.

الناشر

